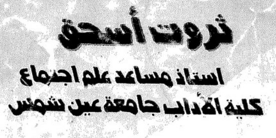
علم الانسان
و
الدراسة السسيوأنثروبولوجية



ثروت أسحق

استاذ مساعد علم اجتماع

كلية الآداب جامعة عين شمس

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. أحمد أبو زيد
أنثروبولوجي



والدراسة السوسيوانثربولوجية

ثروت إسحق

أستاذ مساعد علم الاجتماع

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

اهـــــداء

الى طلابى الذين اســـعد بحـــوارى معهم ٠
الذين ارى من خـــلال عيـــونهم ، واجـــد
فى عذوبة ابتساماتهم ، واتصـــور من معايشتى
لحياتهم وجه مصر المشرق دائما ٠

ثروت اسحق

مقـــــــــدمة

شكرا لله فقد ساعدنى على تقـــديم هذه المجموعة من المقـــــالات التى يمكن أن تعطى فكرة للقارىء عن علم الانثروبولوجيا وتاريخه وفروعه الأساسية بينما استأثرت الانثروبولوجيا الثقافيةو الاجتماعية وأبرز مجالات الدراسة على اهتمام واضح فى هذا المؤلف .

وقد حرص الباحث على أن تتبع المقالات النظرية بدراسات حقليـــة فى علم الانســــان — لمجتمعنا أو لمجتمعــــات اخرى — وقد اسهمت هـــذه لدراسات الحقلية المقارنة فى القاء الضوء على المقولات النظرية والمنهجية كما اسهمت فى توضيح الجوانب المختلفة للبنــــاء الاجتماعى فى المجتمعات المدروسة موضوع الدراسة وقد اجتهد الباحث أن يقدم المقالات النظرية صورة مبسطة والدراسات الحقلية فى صـــورة مختصرة دونما الاغراق ى تفاصيل تؤدى الى ملل القارىء أو تزيد من حجم الكتاب ككل .

وقد خرج الكتاب فى صورته النهائية فى ٣ أبواب و ١٠ فصـــــول تعرض الباب الاول لنشــــأة العلم وأبرز فروعه (الفصلين الاول والثانى) يتعــــرض البـــــاب الثانى لمجـــالات الانثروبولوجيا وفروعهـــا فيعـــرض لانثروبولوجيا الثقافيــــة كما يعرض نموذجا لاحـــد الظواهر الثقافيـــــة لتى تم دراستها (الفصل الثالث) كما يتعـــرض الباحث فى الفصـــول تالية لأبرز المجـــالات فيعرض الفصل الرابع للانثروبولوجيـــا الريفية ، الخامس للانثروبولوجيا الحضرية والسادس للانثروبولوجيا الصـــناعية السابع للأنثروبولوجيا الاقتصادية والثامن للأنثروبولوجيا الســــياسية . قد استشهد الباحث هنا بالعديد من الدراسات الحقلية للبناء وللانساق اجتماعية .

وقد تضمن الباب الثالث والاخـــير عرضا للاتجـــــاه السوسيو — أنثروبولوجى وأبرز أدواته كما عرض لاحدى الدراسات الحقلية .

وينتهى الكتاب بعرض للأنثروبولوجيا الراديكالية .

وأتعشم فى النهاية أن يفيد الطـــلاب من هذا المؤلف — الذى تمتزج فيه النظـــرية بالدراسات الحقلية — فى اجراء دراساتهم فى المســــتقبل لخدمة وطننا الحبيب .

والله ولى التوفيــــــق ...

ثروت اسحق

١٩٨٨/٩/١١

البـــــاب الأول

عـــلم الانســـــــان

« ظروف النشـــــاة وفروعه الأســـاسية »

الفصل الأول : نشـــــاة علم الأنثروبولوجيـــــا

الفصل الثانى : عـــلم الانســـــان وفروعه

الفصـــــل الأول

« نشـــــأة علم الأنثروبولوجيـــــا »

لا تختلف ظروف نشأة هذا العلم عن ظروف نشأة غيره من العـــلوم غير اننـــا نبدأ بطرح التساؤلات التالية لفهم طبيعة هذا العـــلم وتقاليده وظروف نشأته .

ما هى الانثروبولوجيا ؟ لمـــاذا ظهـــر هـــذا العلم ؟ وكيف ظهـــر ؟ وما هى اهدافه ؟ وما هى فروعه الاســـاسية ؟ وما هى ابرز مدارسه ؟

الأنثروبولوجيا هى علم دراســـــة الانســـان فنحن كما يذكر عالم الانثروبولوجيا الامريكى روبرت ميرفى كائنـــــات تظهر بصورة مؤقتة — وسريعة — على مسرح التاريخ الانسانى ودور عالم الانثروبولوجيـــا هو وصف أو ايضـــاح الطرق الانسانية التى ننتهجها فى حياتنا فاذا كان الكثير من العلماء يدرسون السلوك الانسانى فان الدراسة الانثروبولوجية هى الدراســـة الاكثر شمولا لهذا السلوك فى ضـــوء الزمان والمكان أو على حد تعبير ميرفى :

«Only anthropology tries to see the Full panorama, in time and space».

وكلمة انثروبولوجيا Anthropology مشتقة من الكلمة الاغريقية Anthropo اى الانسان و logy بمعنى علم ويعنى المصطلح حرفيـــــا العـــلم الذى يدرس الانســـان حيث تهتم **الانثروبولوجيـــا الفيزيقيـــة** physical Anthropology بدراسة الانســـان كنتاج لعملية التطـــور وتدرس الفروق بين السلالات البشرية ، كما تدرس **الانثروبولوجيا** الثقافية الثقـــافة المـــادية material culture وغير المـــادية un material culture بينما تهتم **الانثروبولوجيا الاجتماعية** Social Anthropology بدراسة البناء الاجتماعى Social Strucrure وشبكة العلاقات الاجتماعية Net work of social relation ship.

وهكذا **تتولى الانثروبولوجيا دراسـة الانسان من كافة جـوانب حيـاته .**

ومن الواضح أن عالم الانثروبولوجيا الفيزيقيـة يستند للتـاريخ من جهـة وللدراسة المقارنة بين الجماعات البشرية من جهـة ثانية ، ويتعاون مع العديد من أصحاب التخصصات الاخـرى فى دراسته الحقلية بينما يهتم عالم الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة الثقافة والثقافات الفـرعية بالنسبة للشرائح السكانية والفئات المختلفـة . أما عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية فيتولى دراسة العلاقات الاجتماعية على مستوى المجتمع المحلى والمجتمع الكبير .

اذن ان الانثروبولوجيا هى العـلم الذى يحاول توضـيح الطـرق التى تنتظم خلالها المجتمعات المختلفة ويتناول تحليل نظمها
«It attempts to explain the ways in which various societies are organized and to analyze their institutions».

ومن الواضح أنه رغم التعدد المذهل للسلوك المتبـول والاعراف فى العالم الذى نعيش فيه فان هناك ميلا مؤكدا لتشابه العديد من العادات وأنماط السـلوك فى مجتمعات مختلفـة ، ولعل سـير ادوارد تايلور sir Edward Tylor عالم الانثروبولوجيـا البريطـانى كان رائدا فى تطبيق هذه النظرية المنهجية المقارنة خلال القرن التاسع عشر وقد نهج فيما بعـد على نهجـه الانثروبولوجى الامريكى جوئيـان ستيوارد Julian Steward حين حاول القـاء الضوء على العـلاقة الوثيقة بين الانساق الاجتماعية والمواقع التى تشب فيها .

وتهدف الانثروبولوجيا الى تعليمنـا كيفية ادراك المنطق الداخـلى للثقافات وبخاصة تلك البعيدة والغريبة عنا .
Anthropology teaches us how to comprehend the internal logic of the cultures».

فاذا اسـتوعبنا هذا الدرس جيدا فان ما يبدو « لا عقـلانى » أو « طائش » أو « خليع » فى جمـاعة (أخرى) يمكن أن يرى — كما يذكر ميرف — باعتباره عقلانى أو له معنى ، كما أننـا نتعلم على أقل تقـدير أن نمسك أنفسنا عن الحكم على العادات الغريبة من واقع مفاهيمنا القبلية وهى الظاهرة المعروفة باسم التعصب السلالى Ethno Centerism لدى علماء الانثروبولوجيا(٣) .

وقد ظهر هذا العلم أســـاسا نتيجة **لحب الاستطلاع المتصـــل** بالعادات الغريبة للشعوب فهـــو قديم قدم التاريخ نفســـه ، ولذلك فان الارهاصات الاولى ترجع الى مئات السنوات التى شهدت محاولات دراسة الانسان وتحليل سلوكه ففى مصر القـــديمة والصـــين واليونان وبابل بدأ الانسان يعمل جاهدا لدراسة مجتمعه وقد عبر عن ذلك من خـــلال الرسم والنقوش والكتابات والصور والتماثيل .

وعندما بدات **الفتوح الكبرى** على يد الاغريق والرومان والفـــرس والعرب كانت هناك فرصا كبيرة لكى يتعرف الانسان على سكان البلدان الاخرى ،وهكذا ظهرت كتابات هيرودوت اليـــونانى ولوكريتوس الرومانى والأسقف أيزدور ومؤلفات **الرحالة العـــرب** كابن خلدون ، والحمـــوى والمسعودى ... الخ (٤) ، كما شهدت العصور الوسطى رحـــلات مارك بولو وكارينى وغيرهم .

ويطلق اسم **عصر التنـــوير** على العصر الذى سادت خلاله الفلسفة الناقدة للمجتمع الاقطاعى فى القرن السابع عشر اذ تم فى هذا القـــرن التاليف بين تيارين فلسفيين سائدين هما التيار العقلانى « الديكارتى » والتيـــار التجريبى لدى بيكون من خلال فلاسفة ورواد وضـــعوا ثقتهم فى العقل والملاحظة الامبيريقية ، وشهد هذا القرن والقرن الذى يليـــه فلسفة نقـــدية — قادها لوك وهيوم وكانت — تعرضت للمجتمع الاقطاعى الذى كان يرى أن ليس فى الامكان أبدع مما كان وأن لا جدوى من محـــاولات التغيير القائمة وهكذا وضعت فلسفة التنوير الانسانى تحت مجهر العقل والملاحظة والدراسة المتعمقة .

وقد ادت **الثورة الفرنسية والثورة الصناعية** الى ردود افعال واسعة كما استمرت شعلة فلسفة التنوير التى قادها هيجل وماركس فى مجـــال الفكر ، ومن ثمة ازدادت سرعة التغييرات الفكرية والمـــادية من خـــلال نمو الاحزاب الاشتراكية ونقابات العمال فى الغرب .

وخلال القـــرن التاسع عشر صاحب عصر التنوير بما حمله من « لبرالية فكرية » تمثلت فى الغـــاء العبودية — بمناداة شارب وفورتس وغيرهما — قيام رحلات علمية اتجهت الى أفريقيا على يد بارث ولفنجستون منذ سنة ١٨٥٠ وسبق ذلك تأسيس الجمعية الاثنولوجية فى باريس سنة ١٨٣٩ والجمعيـــة الاثنولوجية فى لنـــدن سنة ١٨٤٣ غير أن كتـــابات هؤلاء الرحالة قد شابها الخيلاء والتباهى وكان لسان حالهم « نأتى اليهم بصفتنا منتمين لعرق متفوق ... من أجل عرق ما زال فى الحضيض » .

وشهدت الفترة من ١٨٦٠ — ١٨٨٠ ازدهار ما يعــــرف « بالنزعة التطورية » على يد باخوفن وتايلور ومورجان ممن اعتمدوا على ما يعرف « بالتاريخ الظنى » لتتبع تطور النظم الاجتماعية فى المرحلة البربرية السابقة لمرحلة التمدن والحضارة Civilisation .

وخلال الحقبة الممتدة من ثمانينيات القــــرن التاسع عشر حتى قيام الحرب الاولى اظهرت المستعمرات مقاومتها للاستعمار واضحى واضـحا بالنسبة لأبنـــاء هذه المستعمرات صعوبة تبنى ثقافة المستعمر (دون قيد أو شرط) غير أن هذه الحقيقـــة نفسها لم تزيد الحـــكام الا اصرارا على احكام القبضـــة على السكان ومصـــداق هذا أن بعض الحكام فى افريقيـــا امثال كلوزال ولوغارد قد قاموا بتكليف بعض الرحالة أمثـــال دلاموس وكاامرون بدراسة سكان هذه المستعمرات لضمان زيادة التأثير والمـــد الاستعمارى والابقاء عليها .

وقد شهدت **الفترة من ١٩٢٠ الى ١٩٣٠** محــاولة تأهيل الاداريين والانثروبولوجيين بهدف اجراء أبحاث خاصـــــة واكاديمية وهكذا لم تتمكن الانثروبولوجيا الكلاسيكية — رغم نفيها — انكار أن الاســـتعمار لم يدعم خلفيتها النظرية والحقلية كذلك(٥) .

ويؤرخ البعض(٦) لعلم الانثروبولوجيا بظهور **اميل دور كايم** فى فرنسا وبواز فى أمريكا ومن بعــدهما جيمس فريزر ومارسيل موس ومايلنوفسكى وبعبـــارة اخرى فان النشأة الاكاديمية لهذا العلم لا تتعـــدى مائة عام ولا يعنى هذا أن هؤلاء الرواد قد انفصلوا عن التراث الذى رســـخه الآباء الأول أمثـــال مونتسكيو وتايلور ومن قبلهم الرحالة الذين قدموا اسهامات أساسية فالمعرفة العلمية تراكمية وقد استمرت المسيرة وقادها حتى منتصف القرن الحالى رادكليف براون وايفانز برتشارد وغيرهما .

غير أن الدراسة الحقليـــة المتعمقة التى تعـــد قداس أقداس علم الانثروبولوجيا لم تبدأ بصورة جادة الا منذ نحو نصف قرن من الزمان ولكم كان انصار هذا العـــلم يتوقعون أن تكون البداية سابقة لهذا بعدة قرون اذ يذكر شتراوس أن المرء يستطيع أن يتخيل أن عام ١٥٥٨ كان هو العام المناسب لانشاء كرسى الانثروبولوجيا بالكوليج دى فرانس (حيث تأسس هذا الكرسى سنة ١٩٥٨) ففى سنة ١٥٥٨ وضع جان ليرى أول كتاب له بعد عودته من رحلة البرازيل وظهر كذلك لاندريا تيفى مؤلفـــا عن فرنسا القطبية الجنوبية(٧) .

ونحن نؤكد مع جيرارد لكليرك Gerard leclerk أن الحقيقة الممتدة من صدور كتاب روسو حول أصل اللامساواة سنة ١٧٥٤ حتى صدور كتابات **كوندرسية** سنة ١٩٧٤ قد شهدت رؤية تقدمية فى الصراع ضد الاقطاع ، وعلى مدى أكثر من ثلاثين عاما هاجم الكتاب بربرية الاسبان فى الامريكتين وصفقوا للجمهورية الناشئة فى الولايات المتحدة والتى كانت تنشد الحرية والمساواة لاتباعها .

وقد شهدت الفترة الفاصلة بين القرن الثانى عشر والتاسع عشر ظهور بعض الكتابات التى قدمها البعض من أمثال دى جرندو عن المجتمعات الانسانية ومن هذه الوجهة بوسعنا أن ندرك سر اهتمام أوربا بالقبائل البدائية بقصد التعرف على النوع الانسانى لاعادة تصور وتركيب التاريخ البشرى بأكمله نتيجة لذلك وتتبع تقدم الانسان ومراحل هذا التطور ويوضح ذلك كوندرسيه بقوله : « اننا حين نحاول البحث فيما هو مشترك بين مختلف أفراد الجنس البشرى ، وحين نتتبع ذلك من جيل الى جيل فذلك يعنى الاهتمام بتقدم العقل الانسانى والتقدم هذا خاضع للقوانين العامة ... الخ » .

وهكذا لم يخامر المفكرين فى نهاية القرن الثامن عشر ادنى شك فى أن أفراد الشعوب البدائية المتوحشة هم الممثلون المعاصرون للانسان الاول ، بل لقد بذل الرحالة جهودهم لاظهار **الطرائف** فى سلوك سكان المجتمعات البدائية وابراز التناقضات فى تصرفاتهم وأفكارهم التى تبدو اشد غرابة مما ألفوه أنفسهم أو درجوا على اتباعه وبينما حاول البعض السخرية أو تقديم الحلول الكفيلة بتقدم هؤلاء القوم من أمثال دى بوماراى P. de pumeraye الذى كان يتهكم على ديانة شعوب داهموت « حين يذكر بأن « الههم هو حيوان اسمه دابوى Daboue وهو يزحف على الارض .. ويقدسونه من سواه » .

ذكر البعض الآخر اننا يجب أن ننكر أنه كان بامكان هذه الشعوب أن تكون أكثر سعادة — وبغض النظر عن ديانتها — لو لم نأت نحن (الاستعمار الغربى) اليها ... (٨) .

ويذكر حسين فهيم أنه اذا كان عصر النهضة فى أوربا هو « كشف للعالم والانسان » ففى هذا يكمن موضوع الانثروبولوجيا وهدفها لذلك يجد المؤرخ لتاريخ الانثروبولوجيا أن لعصر النهضة ينابيعه الانثروبولوجية الاصيلة والعميقة التى تتمثل فى تحصيل المعرفة عن ثقافات لم يكن قد كشف النقاب عنها من قبل أو التوصل لنظرية تفسر أوجه الاختلافات

والتشابهات بين السلالات البشرية وبين الناتج الحضارى للشعوب ، كما أسهم عصر النهضة فى دفع حركة الكشوف الجغرافية فى عصر النهضة ومن المعروف أن رحلة كرستوفوكولبس كان لها تأثيرها البارز على التراث الانثروبولوجى حيث حفلت مذكرات هذا الرحالة بالتفاصيل الاثنوجرافية التى يغلب عليها الطابع الموضوعى وتخلى عن القاء الاتهام على عواهنه فهو يذكر « ومع أنه ليس لديهم دين لكنهم ليسوا وثنيين فهم يؤمنون ان القوة والخير توجدان فى السماء ... الخ » .

ولقد أوضحت **الكشوف الجغرافية** بجلاء حقيقة تنوع الجنس اللبشرى وانعكس هذا على ظهور نظريات عن أصل الانسان الاحادى Monogenetic وعن تعدد الاصول الانسانية Polugenetic وتبلورت فكرة العودة الى الماضى لفهم الحاضر وظهر ما يعرف بالمذهب الانسانى Humanism وشهد القرن التاسع عشر أيضا آزدهار التبادل التجارى وظهور الرأسمالية الحديثة التى دفعت حركة الاستعمار دفعات قوية حتى كادت الحضارة الاوربية تبسط ظلها على أنحاء المعمورة كلها وادت الثورة الثقافية الى خضوع التفكير للرؤية الواقعية المادية العلمية الصبغة التى انعكست على الفلسفة الوضعية والفن الواقعى ، وولد علم الاجتماع على يد كونت بينما أسهمت الجمعيات العلمية مثل جمعية « ملاحظوا الانسان Les deservateurs de Lhomm فى باريس — والتى اهتمت بتنظيم رحلات الى الخارج لملاحظة الشعوب الاخرى سنة ١٨٠٠ — والجمعية ألاثنولوجية البريطانية سنة ١٨٤٣ التى تحولت فيما بعد الى المعهد الملكى الانثروبولوجى البريطانى وغيرها من الجمعيات المختلفة «Royal Anthropological institute of Great Britain and Ireland»

فى بلورة علم الانسان (الانثروبولوجيا) وظهرت مراكز البحوث الانسانية بدعم من الحكومات ومن بينها مؤسسة سمسونيان الشهيرة سنة ١٩٤٦ بالولايات المتحدة الامريكية التى لعبت دورا بارزا فى هذا الشأن .

كما أسهمت **المتاحف** فى ظهور الانثروبولوجيا ففى الولايات المتحدة أسست جامعة هارفارد متحفا للاركيولوجى والاثنولوجيا تحت اشراف فدردرك بوتنام .

أما الدور الاكبر فقد لعبه الرحالة الذين كانوا يسعون لوصف تقاليد الشعوب التى زاروها فقد وصف الاب جيروم الاحباش وبوركهارت أهالى الشام والمغرب بصفة عامة وتأثر الرحالة بالنظريات قوائم تحوى أسئلة عن المعلومات التى يريدون آلاطلاع عليها الى الاشخاص المقيمين

بين الشـــــعوب البـــدائية للاجابة عليهـــا ولعـــل من اهم هـــذه القوائم ما يعرف بمذكرات واستقصاءات فى الانثروبولوجيا Notes and queries in Anthropology والتى نشرت سنة ١٨٧٤ (٩) .

ويعـــد **اميل دوركايم الاب الروحى لعلماء الاجتماع والانثروبولوجيـــا** معـــا فقد درس اميل دوركايم الانثروبولوجيـــا الثقـــافية والفولكلور ويمثل مؤلفـــه عن « الصور الاوليـــة للحياة الدينية سنة ١٩١٢ آخر اعمـــاله الهـــامة ، وقد حاول تطبيق مفاهيمه عن دور القـــوى المجتمعية فى الدين — فى اكثر مظاهره الاولية — حيث وقع اختياره على قبيلة « الارونتـــا » فى استراليا لدراسة الدين مع ربطه بباقى نظم المجتمع وانساقه الاجتماعية.

وقد نفذت بصيرة دوركايم الى هالبواس Halbwachs وجان هاريسون J. Herrison وفرانسيس كورنفورد Cornford والانثروبولوجى كولودليفى ستراوس Strauss وديموزيل Dumezil الى الحـــد الذى جعل كوزر يؤكد :
«He is, if not the father, then the grandfather of us all».

ومن المسلم به أن هناك ارتباطا وثيقا بين الانثروبولوجيا والدراسات الحقلية غير أن هذا لا يتنافى وما يؤكده ايفانز برتشارد كذلك من انه بدور النظريات والفروض « فلن يمكن القيام بأى بحث انثروبولوجى لان الكشف عن الاشياء والعثور عليها لا يتم الا بالبحث عنها » (١٠) . فالدراسة الحقلية غير الموجهة نظريا هى حشد غير منظم للوقائع لا فائدة ترجى منه .

وهكذا بدأ هذا العلم من خلال كتابات الرحالة الذين أهتموا بالقبائل والثقافات والشعوب الغريبة عنهم فاهتموا بتسجيل كل ما يقع تحت أيديهم عن هؤلاء القوم وكانت أخلاق الرحالة وأمزجتهم واتجاهاتهم تصيغ رؤيتهم وكتاباتهم عن البشر .

غير أننا لا نوافق ايفانز برتشارد فى أن هـــذه الكتابات المتعمقـــة عن تلك الشعوب قد تبلورت منذ منتصف القرن الســـابع عشر(١١) ، فالكتابات التى قدمها **الرحالة العرب** لم يزح الستار عنها حتى الآن(١٢) . ويستشهد البعض بما ذكره « كراتشوفسكى » عن فضل العرب فى تطوير جميع العلوم ، حيث يصل الى نتيجـــة مؤداها بأن دور العرب واسهامهم فى الصرح للانثروبولوجيا ما زال مغبونا أشد الغبن ويكتنفه الغموض أذ أن كارأنتون كون يؤكد أن الرحالة العرب هم الذين مهدوا الطريق أمام الرحالة الغربيين وأمام الكشوف الجغرافية نفسها ومن هؤلاء الرحالة العـــرب

ابن فضلان الذى زار العـــديد من الاقطار ، والبيرونى الذى زاد الهنـــد وقارن عاداتهم بادات الفرس واليـونان والعرب واليهود والمجبوس • وابن خلدون الذى تحــدث عن العــديد من عادات الشعوب والقبــائه التى طاف بها ، وقد ساعد على ذلك اتســاع رقعة الخلافة الاســلامية فى تلك الحقبــة . قد وصــف هؤلاء الرحالة اخــلاق هؤلاء الشــعوب وممارساتهم للســحر والتوتمية ، والافراح ، والاحتفالات الجــنائزية وغيرها وربما اتفق هؤلاء الرحالة فى ربط العادات الاجتماعية بالثقافة العمة أو بالبنــاء الاجتماعى — باستثناء حالات قليلة كما فى حالات ابن فضلان فى وصفه لعادات الزواج فى البلاد التركية وبلاد الصقالبة والروس — غير أنهم استخدموا فى جمع مادتهم الاثنوجرافية بعض الاساليب الانثروبولجية كالملاحظة والاستعانة بالشخصيات الاخبارية فضــلا عن انهم قد أبرزوا الكثير من الانماط الثقافية لهذه البلدان .

ويتضح جدوى اسهام هؤلاء الرحالة العــرب اذا عرفنا انه لم يكن أحــد من الآباء الاول لعلم الانثروبولوجيا حتى نهاية القرن التاسع عشر قد قام بأى دراســة حقليــة حتى أطلق عليهم أصــحاب المقــاعد الوثيرة Archair Anthropolosists (باســتثناء مورجان) ويذكــر ايفـــانز برتشارد على لسان وليــــام جيمس للتدليل على ذلك أنه حين ســـال جيمس فريزر sir James frazer عن الشــعوب البدائية التى زارها صاح قائل « العياذ بالله » (١٣) .

ولقد بدأت الرحـــلات الانثروبولوجية فى الاصــل فى أمريكا وذلك حين قام **بواز** Boas بدراســة قبــائل البافيين فى كولومبيا البريطانية ثم فى انجلترا حين قام **هادون** Haddon على رأس بعثة جامعــة كمبردج بدراسة منطقة مضايق توريس Torres فى المحيط الهادى الواقعــة بين غينيــا الجديدة وشمال استراليا وترتب على هذه الرحلة أمرين :

١ — **بدء ظهور الانثروبولوجيا** كعلم يحتاج للتخصص .

٢ — **اعتبار الدراسة الحقلية عنصرا جوهريا** فى هذا العلم(١٤) .

ويرى غالبية علماء الانثروبولوجيا بأن المجتمعات « **انساق طبيعية** » تعتمد مكوناتها بعضها على البض الآخــر ويدخل كل جــزء فى عــدد بن العلاقات فالبنــاء الاجتماعى يتكون من انســاق Systems **والحيــاة الاجتماعية يسودها نوع من الترتيب** لا يتيسر أن تسير الحيــاة الاجتماعية بدونه . فكان للنظم والانساق الاجتماعية وظائف فى البناء الاجتمـــاعى

الذى يتكون من علاقات احتمـــاعية مقررة(١٥) وعلى الرغم من أن البعض أمثال ايفانز برتشارد وشابيرا Schapera ولوسى مير Mair يعتمـــــدون بصورة واضحة على التاريخ فان مظم علماء **الانثروبولوجيا « الوظيفية »** الذين يركزون على الدراسة الآنية أو التزامنية Synchronic امثـــال مالينوفسكى Malinowski كانوا ينفـــرون من ذلك مما جعل تركيزهم الاساسى على العلاقات الاجتماعية اكثر من التحـــول Transition الذى تتعرض له الثقافة المـــادية وغير المادية اذ أن مالينوفسكى يؤكد على التصـــور النسقى للوحـــدة والاداء الوظيفى دون الاهتمام بالبحث عن جذورها التاريخية ، ويعتقد البعض (١٦) أن الانثروبولوجيا قد اصطبغت فى الحقبة من منتصف عشرينيات هذا القرن الى منتصف الاربعينيات بالفكر « الوظيفى » حتى أن مصطلح الانثروبولوجيا أصبح مرادفا للانثروبولوجيا الوظيفية وادى ذلك لنتائج ايجابية وسلبية فى الوقت نفســــه فقد ازداد الاهتمام بمسألة التبادل بين النظم داخل الوحدة الاجتماعية فى اطار زمانى ومكانى واحـــد وتلاشى الاهتمام باعادة بناء العملية التاريخية .

ولا يعنى هذا أن على العالم الانثروبولوجى استبعاد التاريخ تمـــاما فنحن نستبعد فقط جواز العودة الى أساس الحضارة الانسانية أو للافكار التطورية الظنية المتصـــلة بظاهرة معينة كما أن التركيز الآن يؤكد على العمليات التى تتم أمام أعيننا بالنسبة للحاضر .

ومن المتفق عليه الآن أننا نلجـــأ الى **التـــــاريخ** طالما نحن ندرس مجتمعات لها تاريخها المكتوب وآثارها التى يمكن دراستها أو الرجـــوع اليها(١٧) .

ويعد مالينوفسكى كما أسلفنا من أوائل الذين حددوا شروط هـــذا العلم الجديد وقد اعتبر الانثروبولوجيا دراسة للمجتمعات الاخرى غـــير الغربية فى مواجهة الحضارة الغربية ، وهذه المواجهة الصريحة بما تحمـــله من احترام **لبنيات الشعوب الاخرى** كانت الشكل الاساسى لقيام هذا العلم فلا يسوغ أن نصفْ سلوكهم بالغرابة أو « اللاعقلانية »(١٨) .

وهكذا انطلقت الانثروبولوجيا لتصبح نظرية تحليلية للمجتمع وأنساقه لا مجرد تجميع لوقائع مجزئة أو خيالية ، وبدأ علماء الانثروبولوجيا يعلنون ما ذكره لوبرسيه دى لاريفير Dela Riviere أن اهتمامات المجتمـــــاعت البدائيـــة ومصالحها لا تختلف كليـــا عن اهتماماتنا وعن مصـــالحنا ... « أدخلوا الى الشعوب التى ما زالت مجهولة .. وقدموا أنفسكم لهـــــا بطريقة لا تثيرهم ... الخ » . وتذكر لوسى مير فى مؤلفها عن الانثربولوجيا

الاجتماعية أن على علماء الانثروبولوجى — تمشيا مع رأى ايفانزبرتشارد — أن يهتموا بالكشف عن انتظام الحياة الاجتماعية لا الوصول الى القوانين التى يخضع لها الناس .

كما أن لوسى مير توافق ليفى شتراوس على أننا ينبغى ايضا أن نهتم بالتاريخ وشواهد الماضى التى لها أثرها فى تطور الانساق الاجتماعية فى الحاضر فالتاريخ هنا يعد وسيلة لالقاء الضوء على الحاضر دون أن نضيف له من عندياتنا العديد من التأويلات والتصورات .

واذا كانت الانثروبولوجيا شأنها فى ذلك شأن علم الاجتماع قد نظرت الى الشعوب المنعزلة فى العالم الثالث نظرة تعكس تدنى هذه الشعوب — فى مقابل تقدم شوب أوربا الغربية والولايات المتحدة — وحاولت دراستها لضمان استغلالها فان الحاجة ماسة اليوم لاستخدام مناهجها المفيدة والنوعية فى **الدراسة الحقلية المتعمقة** التى تجمع بين المنهج العلمى الرصين والنزعة الانسانية غير المتحيزة وهى النزعة التى تناهض الاستعمار والتفرقة العنصرية وتسعى لفهم الانسان المعاصر ومشكلاته **فى اطار شمولى** من خلال الدراسة المقارنة للثقافات .

وغير خاف أن النظرة الكلاسيكية العنصرية التى خيمت على الدراسة الانثروبولوجية والتى كان من شأنها فيما بعد أن تربط بين هذا العلم وبين الاستعمار (الذى كان يجثم على معظم أنحاء افريقيا وآسيا) قد بدأت تنقشع مع بواكير ستينيات هذا القرن فقد انطلق علماء الانثروبولوجيا من وجهات نظر مخالفة تماما للاسس التى قامت على أساسها النظريات **الانثروبولوجية المحافظة** بينما بدأ علماء العالم يتساءلون عن دور هذا العلم فى بناء مجتمعاتهم لتلحق بركب الحضارة الانسانية حيث قاموا بدراسة تراث المستشرقين دراسة نقدية واعية كما اهتموا بعمل وجهد مماثلين فى دراسة مجتمعاتهم المحلية(٢٠) .

وتعرف الانثروبولوجيا بأنها علم الانسان الذى يدرس المجتمعات الانسانية وبصفة خاصة **المجتمعات البسيطة والمنعزلة** .

ولقد أدرك علماء الانثروبولوجيا منذ زمن طويل أن هناك علاقة قوية تفاعلية بين كل نظم المجتمع وانساقه الاجتماعية ، وأن دورهم يتلخص فى مجرد وصف هذا التفاعل — من خلال الاحداث اليومية والعادات والتقاليد وصفا دقيقا — غير أنهم قد أدركوا فى مرحلة لاحقة أنه لابد من وجود فروض نظرية توجه الدراسة واذ ذاك فان الاحداث

والوقائع ليس لها اى معنى أو اهمية فى حد ذاتها وانما تكتسب معناها الاجتماعى فى ضوء **نظرية عامة** تسوس الدراسة وتوجهها بل ان الانثروبولوجيا لابد أن تتم على مستوى معين من **التجريد** الذى يرتفع بالباحث عن مستوى الحقائق الجزئية والوقائع المحسوسة الى **التحليل البنائى**(٢١) .

ومن الواضح أن الكثير من علماء الانثروبولوجيا اصبح شغلهم الشاغل الآن **العلاقات الاجتماعية المستقرة والدائمة والجماعات الاجتماعية التى تتميز بدرجة عالية من التماسك** ، وهم يصرفون النظر بالتالى عن العلاقات بين الافراد والجماعات القابلة للتغيير أو الجماعات التى سرعان ما تتغير (بتغير الافراد الذين يؤلفونها) ومن ابرز الدراسات التى تعبر عن هذا الاتجاه دراسات مالينوفسكى،وسلجمان وايفانزبرتشارد وغيرهم من الرواد .

ومن الواضح أنه لابد من وجود درجة معينة من الاتساق فى الحياة الاجتماعية وهذا الاتساق يمكننا من الحديث عن بنية عامة للمجتمع ومهمة الانثروبولوجى الاجتماعى عادة الكشف عن هذا البناء الذى ينطوى بدوره على عدد من الابنية أو الانساق الداخلة فى تكوينه كالنسق القرابى والنظم الاجتماعية التى تضمها هذه الانساق .

ومن الواضح أن الاهتمام الراهن لعالم الانثروبولوجيا يدور حول العلاقات **والقضايا والظواهر** — لا للشعوب والقبائل نفسها — التى تبرز ملامح الحياة الاجتماعية واتساقها ومشاكلها .

وللعمل الميدانى وللدراسة الانثروبولوجية الحقلية الجادة شروطا محددة فالدارس الانثروبولوجى اليوم يترك مكانه الوثير راضيا وسلاحه هو ايمانه بعمله وقلمه الرصاص ودفتر صغير حيث يجمع ما يقوله الرواه ، ويسجل الاخبار ويرتاد القرى والشواطىء والادغال يزور ويرحل .. ويبحر .. — ليرى كيف يعمل الناس — ويراقب ويدرس وتأتيه البيانات فى نكهتها الحقيقية من خلال الدراسة المتعمقة التى لا يقنع غيها بالمعلومات المنقوصة والاخبار القليلة والمحادثات اليسيرة فالقيام بأبحاث انثروبولوجية عمل شاق غير أن فائدته على ما يذكر ريفرز كبيرة ومؤكدة اذ تكمن فيها ارادة فهم حياة المجتمعات مكا هى ، وقد أجاد مالنوفسكى ايضاح هذه النقطة ابان عمله فى ماليزيا حين قال : « أن الطريقة التى يتكلم بها البعض الذين أمدونى بالمعلومات عن السكان الاصليين .. تنم عن

ذهن غير مجرب وقد كانت آراؤهم فى الغـالب مثقلة بالاخطـاء والاحكام المسبقة .. فالعالم فى هذا الميدان يحاول أن تكون وجهة نظره موضوعية ، وهو يدرس بنفسه دون تحيز أو ترفع (٢٢) .

المدارس الانثروبولوجيـة :

لا يخفى على الدراس الانثروبولوجى أن هناك من يرى الانثروبولوجيا اقرب فى طبيتها الى الفن Art منها الى العـلم Science — مثلهـا مثـل الخدمة الاجتماعية على سبيل المثال — وانها تلجأ الى الدراسة **الاثنوجرافية الوصفية** غير أن الجانب الاكبر من العلماء يعارضون هذه النظرة ويعتبرون الانثروبولوجيا الاجتماعية علما تستخدم العلماء فيه ألطريقة « الاستقرائية » التى تعتمـد على الملاحظة والمقـارنة وتصنيف الجمـاعات التى تتميز بدرجة عالية من التماسك والاستمرار (٢٣) ويمكن القول بأن **الاتجـاه الثقـافى** Cultural يغلب على الدراسات الانثروبولوجيـة فى أمريكا بينما يغلب **الاتجـاه البنائى** Structural الذى يركز على دراسـة البناء الاجتمـاعى Social structure على علماء الانثروبولوجيـا فى بريطانيا والواقع أن الظروف العامة التى لابست نشأة الانثروبولوجيا فى القـرن التاسع عشر فى كل من بريطانيا وأمريكا مسئولة الى حد كبير عن قيام هذين الاتجاهين فقد اتجه علمـاء الانثروبولوجيا الانجليز الى دراسـة المجتمعـات المحلية (المجتمعات القبليـة) الخاضعة تحت سيطرتهم فى أفريقيا بينما اتجه العلمـاء الامريكيون لدراسـة قبـائل الهنود الحمر فى أمريكا ذاتها وهذه القبائل — كما يرى ايفـانز برتشارد — ليس لهـا بالضرورة تقاليد موغلة فى القـدم كما أنها تشكل بصـورة أو بأخرى مجتمعات مجزأة غير متماسكة مما يسهل دراسة ثقافاتهـا اكثر مما يتيح سبرغور أبنيتها الاجتمـاعية ، وهذا الاختلاف هـو الذى افرز لنـا هذه التفـرقة « الكلاسـيكية » — الشكلية — بين المدخـل « البنائى » والمدخل « الثقافى » فى الانثروبولوجيا (٢٤) .

ويعتقد دافيد بيدنى Bidney (٢٥) أن ايفانز برتشارد قد اختزل فكرة الخـلاف بين المدرسـة الامريكية والبريطانية حين ذكر أن الجناح الاول قد تأثر **بتـايلور** Tylor وغيره من الآباء الاول لاهتمامهم بالهنـود الحمر وأن الجناح الثانى قد تأثر **بمورجان وسبنسر وكايم** مع تركيزهم على القبائل والمجتمعات المحلية التى خضعت للاستعمار البريطـانى وهو بهذه الصورة قد تجاهل أعمال بواز Boas وكروبر وسـابير Sapir ، ولوى Lowie ولنتـون Linton وسبير وهى الاعمال التى كان يمكن

— اذا أمعن النظر اليها — أن تعطى له مبررات أخرى أشد واقعية للفرق بين المدرسة الامريكية والبريطانية .

ويشير بيدنى (٢٦) الى أن **الصراع بين الجنـاح الاول والثـانى** قد حدا بالبعض أمثال ميردوك أن يتهم المدرسة الانجليزية بأنها ليست مدرسة أنثروبولوجية على وجه الاطلاق أو حد قوله :

«The British school are actually not anthropologists but professionals of another category».

والامر الذى لا شك فيه كما يذكر البعض أن الدراسة الانثروبولوجيه للبنـاء الاجتماعى مع اغفال الاشارة للثقافة أو العكس هى دراسة مجحفة تماما ومتحيزة علميا ، وقد تبنى هذه النظرة البعض امثال فيرث Firth ، ونادل Nadel ، وفورتس Fortes .

واذا كان ميردوك — قد أظهر تحيزه للثقافة بقوله :

The special province of Anthropology in relation to its sister disciplines is the study of «culture».

فان البعض على الطرف الآخر يعتقد أن تركيز الانثروبولوجيا على النظم والعلاقات الاجتماعية يجعل التشـابه بينها وبين علم الاجتمـاع كبـيرا حتى ان رادكليف براون Brown يرى أنه ليس هناك ما يمنع عن تسمية الانثروبولوجيا الاجتمـاعية بعـلم الاجتماع المقـارن Comparative Sociology والحقيقة أنه مع وجـود الاتفـاق بينهما فى الاتجاهات والادوات الا أن لكل منهما صبغة متميزة كما أن وجودهما معـا سيعمق دون شك من نظرتنا وفهمنـا للمجتمعات الانسانية ، ومن هنا فان علمـاء الانثروبولوجيا أصبحوا اليـوم ينفرون من الفصـل بين الجانب الثقـافى والبنائى كما أن **التكامل بينهمـا** اكثر وضوحا عن ذى قبل (٢٧) .

ويعتقد شتراوس أن الانثروبولوجيا تتسم بالشمول ، والتجـانس فضـلا عن اتفاق العلماء فيها على المبادى الاساسية (رغم اختـلافاتهم الثانوية) كما أنهـا تهتم بدراسة المجتمعات الانسانية فى شتى أشكالها كما تنظر للمجتمعـات المختلفة اليوم على أنها ليست مسئولة — بصورة أو بأخرى — عن تخلفها ، ولقد أصبح راسخا فى ذهن عالم الانثروبولوجيا اليوم الا يصف هذه القبـائل المنعزلة بالخمـول أو اللامبالاة أو السذاجة

فالامر كله تلخصه الفــروق الثقافية بين ثقافة هؤلاء القـــوم وثقافة الانثروبولوجى (اذا كان أجنبيا عن المجتمع) حيث يورد شتراوس على سبيل المثـــال ما يسجله مؤخرا أحد علمـــاء الانثروبولوجى عن قبـــائل « الفاهوكى ــ كاما » فى غينيا الجديدة فقد تعـــلم هؤلاء الاهالى لعبـــة كرة القـــدم وشرعوا قرب نهاية المباراة يضاعفون عدد الجـــولات حتى يصبح عدد الهزائم والانتصارات متساوية تماما فاللعبة تنتهى عندهم ــ بخلاف ما يشيع عندنا ــ بالتعادل ، والتأكد من أنه ليس هنـــاك من ينتصر على الآخر (٣٨) .

ويعنى هذا أن عالم الانثروبولوجيا يتعمق فى فهم السلوك المجتمعى وتفسيره مهما بدأ هذا السلوك غريبا أو طريفا أو غير متماشى مع ما يالفه الباحث نفسه فى مجتمعه وهكذا تدرس الانثروبولوجيا الانســان بصورة شاملة من كافة جوانب حياته (٢٩) .

وينبغى أن ننوه فى نهاية هذا المبحث أن الانثروبولوجيا الاجتماعية نفسها تضم **العـديد من الفروع** من ابرزها الانثروبولوجيا الاقتصـــادية والريفية والحضرية والسياسية والدينية والطبية والصناعية وانثروبولوجيا التنمية .

« المصـــــادر »

١ — R. F. Murphy, Cultural and social Anthropology, New Jersey., 1986, P. 231

٢ — Nbid. pp. 7-8.

* يظهــر هذا النــوع من التعصب عندما ينظر الفــرد أو الجمــاعة الى ثقافته على انها ألثقافة الراقية بالفطرة ويتضمن هذا الاتجــاه حكما بالدونيـــة على ألثقافات الاخرى . ويعكس التعصب السلالى عدم المقدرة على تقدير وجهة نظر الآخرين ذوى الثقافات المختلفـــة بما تتضمنه من لغة ودين وأخلاق كما يعكس ألافتقـــار الى النظــرة الانسانية الشمولية وفهم المشاكل التى تواجه البشر فى ألمجتمع » .

محمد عاطف غيث — قاموس علم الاجتماع — الهيئة العــامة للكتاب ١٩٧٩ ص ١٦٣ ، ص ١٦٤ .

٣ — Op. Cit. p. 6.

٤ — حسين فهيم — قصة الانثروبولوجيا — عالم ألمعرفة ص ٩٨ — الكويت — ١٩٨٦ — ص ٤٠ ، ص ٧٩ .

٥ — محمود عودة — تاريخ علم الاجتماع — دار النهضة العــربية — بيروت — بدون . الفصل الاول وانظــر أيضـــا جيرار لكلوك — الانثروبولوجيا والاستعمار ترجمة جورج كتوره — معهــد الانمــاء العربى — بيروت ١٩٨٢ ص ٢٢ : ص ٤٥ وص ٢٠٥ : ٢١٥ .

٦ — ايفانز برتشارد — الانثروبولوجيا الاجتماعية ترجمة أحمــد أبو زيد الهيئة ألمصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ١٩ ، ص ٢٠ .

٧ — ك.ل.شـــتراوس — مقالات فى الاناسة — اختـــارها ونقلهـــا للعربية حسن قبيسى — سلسلة الفكر المعاصر — بيروت ١٩٨٣ —

٨ ــ لكلرك ــ المصدر السابق ص ٢٠٩ : ص ٢١٦ .

٩ ــ حسين فهيم ــ المصدر السابق ص ٨٠ : ص ٨٦ ، ص ١١٧ : ص ١٣٠ .

١٠ــ ايفانز برتشارد ــ المصدر السابق ــ مقدمة المترجم .

١١ــ المصدر نفسه ــ ص ٨٦ : ص ١٠٤ .

١٢ــ أحمد الربايعة ــ اسهامات بعض الرحالة العرب فى الدراسات الانثروبولوجية المبكرة فى مجلة دراسات ــ المجلد العاشر عمان ١٩٨٣ ــ ص ٢٨ وما بعدها .

١٣ــ ايفانز برتشارد ــ المصدر السابق ص ٢٧ ، ص ٥٣ ، ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

١٤ــ المصدر نفسه ص ٧٣ : ص ٧٥ .

١٥ــ على ليلة ــ البنائية الوظيفية ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٨٠ -- ص ١١٣ : ص ١٢٣ .

١٦ــ نبيل صبحى ــ الانثروبولوجيا الاجتماعية ــ دار المعرفة الجامعية ــ ١٩٨٥ ص ٤٨ : ص ٥٢ .

١٧ــ ليفى شتراوس ــ المصدر السابق ص ١٥٠ : ص ١٥٥ .

١٨ــ حسين فهيم ــ المصدر السابق ــ ص ١١٦ : ص ١٣٠ .

١٩ــ لكلرك ــ ص ٦١ ، ص ٢٠٥ : ص ٢١٧ .
وانظر أيضا مير ــ الانثروبولوجيا الاجتماعية ترجمة علياء شكرى وحسن الخولى ، مراجعة محمد الجوهرى ــ القاهرة ــ سنة ١٩٨٥ ــ الفصل الثالث .

٢٠ــ حسين فهيم ــ المصدر نفسه ص ٩٥ والخاتمة .

٢١ــ شتراوس ــ المصدر نفسه ــ ص ١٠١ .

٢٢ــ لكلرك ــ المصدر نفسه ــ ص ٥٦ : ص ٥٩ .

٢٣— أحمد أبو زيد — البناء من ص ٣١ : ص ٦٦ .

٢٤— المصدر نفسه من ص ١٧٦ : ص ١٧٩ .

٢٥— The Theoretical Anthropology N.Y. 1967.pp. 98 : 101.

٢٦— Ibid. p. 102.

٢٧— محمد عبده محجوب — مقدمة فى الاتجاه السوسيووانثروبولوجى — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٧ — ص ٤٦ .

٢٨— ل.شتراوس — المصدر السابق ص ١٠٦ ، ص ١٢٤ ، ص ٢٤ .

٢٩— محمد الجوهرى — علم الانثروبولوجيا — دآر المعارف — ١٩٨٠ — الفصل الاول .

الفصـــــل الثـــانى

« علم الانســــان وفروعه »

١ ــ الانثروبولوجيا الفيزيقيـــة :

يذكر جابريل لاســكر G.W. Lasker (١) فى معــرض حـديثه عن الانثروبولوجيا الفيزيقيه Physical Anthropology الحديثة أن هـــذا المصطلح يعنى دراسة ميكانزمات التطور الانسانى . فهى فى نظره تعنى بدراسة مشكلات خاصـــة بجسم الانسان غير أن هذه المشــكلات لا تفهم بدورها الا من خلال الجماعة الانسانية حيث يحرص الانثروبولوجى على دراســة التشــابه والاختلاف بين الجماعات الانسانية بحسب خصائص السن والنوع ومحل الميلاد وطرق الحياة ، ومن هنــا فانه لا يدرس هذه الخصائص الا من خلال اتصالها بالثقافة Culture (التى عاش أو يعيش فيها الانســان) ، ومن هنا فان الثقافة نفسها هى التى تفسر صـــور الاختلاف فى أساليب الحياة وفى السلوك المتعلم ويذكر لاسكر أن دراســة التركيب الجسمى ، والبنية ، والسلالات ، والنمو الانسانى ، والوراثة والهندسة الانسانية ، والعوامل البيولوجية الكيميائية ، وأشكال العظام والاسنان ضرورية للدراسة فى مجال الانثروبولوجيا الفيزيقة .

ويرى بيلز Beals وهويجــر H. Hoijer (٢) ان هذا الفــرع من فروع الانثروبولوجيا قد تعرض لقدر كبــير من الاهتمــام والرعاية منذ مطلع الحرب الثانية وهذا الاهتمام يفوق ما شهدته الفروع الاخــرى فقد زاد الانتفـــاع من المورفولوجيا الجسمية وقيــاس الهياكل العظميــة والابعاد الجسمية وأحجام الجمجمة وقامة الجسم وبرزت دراسات حديثة فى مجالات الوراثة والبيولوجيا وغيرها حيث يزداد الاهتمام بدراسة وتحليل الجماعات الانسانية ودراسة الانسان نفسه من خلال عملية التطور اذ أن البشر المعاصرين يتشابهون بعضهم مع بعض تشابها كاملا فى البنـــاء الاساسى حيث ينتمون الى ما يعرف بالانسان العاقل رغم الفوارق الموجودة بينهم فى المظهر الخارجى .

وتتضمن الدراســة فى هذا الفرع دراســة **التغيرات البيولوجية** من

الحمل الى البلوغ وتأثير **الظروف البيئية** والنواحى **الايكولوجية** ودراسة **ميكانزمات الوراثة** فى ضوء الاختلاط بين القبائل والشعوب الانسانية والتزاوج بينها .

ومن الواضح أن عالم الانثروبولوجيا الفيزيقية يستعين بمجموعة كبيرة من العلماء الذين يساعدونه فى دراسة البقايا العظمية والادوات والاطلال والاوانى وتحدد عمر الحفريات والسلالات المكتشفة ومن بين هذا الفريق المتخصص فى هذا الفرع يمكن أن نلمح عالم **التاريخ والآثار وعالم الاركيولوجى** Archeology عالم آثار ما قبل التاريخ (للربط بين احداث وترتيب حدوثها) **وعالم الطبيعة وعالم الجغرافيا والجيولوجيا وعالم الوراثة** والمتخصص فى الهندسة البشرية لاجراء المعالجة الرياضية المعقدة لعلم الوراثة مع فهم البيئة والتضاريس فضلا عن **عالم الاجتماع وعالم الانثروبولوجيا الثقافية** لدراسة الثقافة المحيطة بالانسان .

ومن المعروف أن أبرز الدراسات فى مجال الانثروبولوجيا الفيزيقية ترجع الى مجهود العالم **بيرت** B. Deperthes سنة ١٨٣٠ .

ونورد هنا أبرز النماذج الحضرية والتى بنيت عيها بدورها العديد من الدراسات وقادت للعديد من النتائج فى هذا الفرع من فروع الانثروبولوجيا :

(أ) انسان جاوه :

وقد عثر عليه فى شمال جزيرة جاوه سنة ١٨٩١ العالم الهولندى يوجين ديبوا E. Dubois .

(ب) انسان الصين القديم :

واكتشفت بقاياه لاول مرة سنة ١٩٢٧ فى احدى كهوف قرية شوكوتين غرب بكين وطوله نحو ١٥٠ سم وحجم من بين ١٠٠٠ : ١٢٠٠ سم٢ وكان رأسه اكثر تراجعا للخلف ويتميز انسان الصين عن انسان جاوه بكثرة ما عثر عليه من بقايا حضارية من العظم وادلة أخرى تبين استخدامه للنار ومعيشته فى جماعات وسكنه فى الكهوف .

(جـ) انسان هايدلبرج Heidelberg :

وقد اكتشف بالقرب من مدينة هيدلبرج الالمانية سنة ١٩٠٧ وعثر

معه على بقـايا ادوات ، ويرجح البعض انه كان معاصرا لانسـان الصين القديم .

(د) **انسـان نياندرتال** Neaderthalensis :

وعثر عليه فى وادى نياندر بحوض الرور فى المانيـا ويتميز هـذا الانسـان . بحجم مخه الكبير الذى يبلغ ١٤٠٠ سم٣ كما يتميز بجبهـة شديدة الانحـدار وبروز واضح لعظـام الحاجبين وقد تمكن بدوره من اصطياد الحيوان واستخدام الآلات الحجرية البسيطة وتمكن من اشـعال النار والمعيشة فى جمـاعات ، ويرجح كذلك أنه كان يدفن موتاه مع بعض الادوات اعتقادا منه فى الخلود والبعث وكان لاستقراره فى كهوف متجاورة اثره الكبير فى تشابه الطابع الجمعى للحيـاة والحياة الروحية المشتركة . التى ترجح وجود شكل للعبادة وانتشار للتعاليم الدينية .

(هـ) وقد تقدمت الانثروبولوجيا الفيزيقية بفعل توفر معلومات عن الانسان الحديث من خلال اكتشـاف **انسـان كرومانيون** Cromagnon فى فرنسا سنة ١٨٦٨ حيث بلغ طوله نحو ١٧٠٠ سم وحجم مخه حوالى ١٦٠٠ سم٣ حيث بدأت تبرز عظـام الحاجبين وعظام الذقن وتعـددت الادوات الحجرية المكتشفة معه كالرماح وغيرها ، وقد أطلق على الحضارة التى كان يعيشها الحضارة الاورجيناسية Aurignacian .

(و) **انسـان جريمالدى** Grimaldi :

وقد عثر على بقاياه فى فرنسا وبلغ طوله نحو ١٦٠ سم وحجم مخه نحو ١٤٥٠ سم٣ وقد تميزت حضارته بصـناعة أسلحة الصـيد وباقى الادوات .

(ز) **انسـان شانسيلد** Chancelade :

واكتشفت بقاياه كذلك فى فرنسا وتميزت حضارته باتقان صـناعة

(*) انظر فى نقد النظرية الداروينية والبقـايا البشرية المؤلف الذى كتبه شاكر باسيليوس وآخرون بعنوان النشوء والارتقاء بين الواقع العملى والتصور العلمى — مكتبة مصر — القاهرة ١٩٧٩ .

الادوات ، وازدياد حدة الصراع بينه وبين الحيوانات الاخرى . وقد سكن هذا الانسان للكهوف، ويقسم معظم علمـاء الانثروبولوجيا الفيزيقيـة السكان فى عالم اليوم الى ثلاث مجموعات جنسية كبرى هى مجمـوعة القوقازيين والمغول والزنوج وهى ما يعـرف بالجنس الابيض والاصفر والاسود (٣) .

٢ — الانثروبولوجيا الثقافيـة :

يذكر البعض ومن بينهم فردريك هولس (١) F.S. Hulse انه عن طريق الاهتمام بالثقـافة وحدها كمبحث متسق اشتقت الانثروبولوجيـا اتساقها الفعلى .

ويذكر أبو زيد (٤) أن الانثروبولوجيا فى أمريكا تكاد تصطبغ بصبغة ثقافة خالصة (*) ويستشهد بما ذكره ايفانز برتشارد فى تعليله لغلبـة هذا الاتجاه انه اما لان قبائل الهنود الحمـر كانت تشكل جمـاعات لكل منها شخصيتها المستقلة واما لعزوف العلماء انفسهم عن الالتزام بالفـترة الطويلة التى تستلزمها الدراسة البنائية للمجتمع اصطبغت الانثروبولوجيا بصفة ثقافية . فالمجتمع بالنسبة لانصار الاتجاه الثقافى **وسيلة أو وعاء توجد فيه الثقـافة** أى انه مجرد شرطا ضرورى لوجوده فمن خصائص الثقـافة **تمايزها** عن الافراد الذين يحملونها ويمارسونها فى حياتهم الشخصية اذ أنها تمثل طرق المعيشة ، وأنماط الحياة ، وقواعد العرف ، والتقاليد والفنون، والتكنولوجيا السائدة ثم ان من خصائص الثقـافة **الاستمرار** فهى تنتقـل عبر الزمان من جيل الى جيل بل انها **تنتشر** من مكان لآخر نتيجة للعمليـة التى تعرف باسم الاتصال الثقافى بين الشعوب حيث تنتقـل السمات الثقافيـة Cultural traits من الثقـافة الاقوى الى جاراتهـا الأضعف . كما أن من خصائصها أيضا **التعقيـد** لاشتمالها على عدد كبـير من الملامح العامة أو « العموميات » Universals التى يشـترك فيها كل أعضاء المجتمع القومى كاللغة والمعتقدات الدينية ... الخ .

ولا يمنع هذا أن لكل مجموعة من البشر ثقافتها الخاصة أو «الفرعية» Sub Culture ومن هنا تبرز أوجه **الاختلاف** والتنوع الثقافى .

(*) يشذ عن ذلك علماء الانثروبولوجى فى الولايات المتحـدة الذين تأثروا بأفكار عالم الانثروبولوجيا البريطانى رادكليف براون وكتـابات المدرسة الفرنسية ورائدها اميل دوركايم .

وقد قدم تايلور سنة ١٨٧١ تعريفـا للثقافة وجد رواجا شـديدا لدى معظم العلمـاء حيث اعتبره البعض من التعـريفات الاساسية فها هو جون جانوش J.B. Janusch يذكر انه من افضل التعريفات وانه قد استحوذ على اهتمام مورجان وكروبر وهويت ، والثقافة لدى تايلور هى هـذا الكل المعقـد الذى يتضمن المعـرفة والمعتقـدات والفن والاعراف والقانون والعادات واى امكانيات وتقاليد مكتسبة بواسطة الانسان كعضو فى مجتمع .

بينما يؤكد بارسونز ومن بعده ميرفى وغيره من علماء الانثروبولوجيا أن الثقافة هى **مجمـوعة التوقعات** «set of expectations» .

فهى ترتكز على **نظام متسع من الرموز** ولاسيما الكلمات ، ومن هنا تأخذ اللغة مكانتها لدى عالم الانثروبولوجيا الثقافية فهى الوسيلة الاسـاسية للاتصال بين البشر ونقل الثقافة (٧) .

وتتضمن الثقافة اذن كل مجالات الفكر والمعـرفة وكل انماط السلوك فالمفهوم حقيقـة يتضمن **تجـريد السلوك الفعلى** ويستوجب البحث عن تعميمات لهذا السلوك من خلال الرموز المستخدمة فى المجتمع وهو يبتعـد بهذا عن التركيز على الانماط السلوكية الفردية وعن كل اداة — على حدة — ينتجها الناس بأنفسهم ويستخدمونها .

ومن هنا فان عالم الانثروبولوجيا الثقافية يهتم **بتتبع النمط الثقـافى** Pattern **عبر التاريخ** حيث تنتقـل الثقافة عبر الأجيال من خلال عملية التعـلم .

والباحث فى الانثروبولوجيا الثقافية يلاحظ ويسجل السلوك البشرى السـائد ومنتجاته بالنسبة لجماعات معينة فى بيئات بعينها والحلول التى يواجه بها الانسان مشكلاته وهو هنا يرتكز على :

(أ) **التاريخ السلالى** Ethno history الذى يهتم بتاريخ الشعوب المنعزلة مع الاستعانة بالمصادر المكتوبة .

(ب) **البيـانات الاركيولوجيـة** التى تساعد على اعادة رسم صور النماذج الثقافية .

٣ — **البيانات الاثنوجرافية** Ethnography التى تركز على الوصف أكثر من التحليل والتفسير ويمكن هنـا الاعتماد على الملاحظة بالمشـاركة ، والمقابلات الحرة ، واستخدام الشخص الاخبار Informant وعلى الأداة المعروفة باسم الفهم الذاتى للثقافة الفرعية Ethnoscience **الذى يرتكز** على فهم طريقة تنظيم للناس لثقافتهم الخاصة وتصنيف الانماط الثقـافية وتوضح المنطق الكامن وراء العادات والتقاليد والأعراف وأنماط السلوك .

هذا فضلا عن **تاريخ الحيـاة النفسية** غير اللفظية(*) ويذكر بيلز وهويجر أن هذه الاختبارات تتضمن قدرا من المرأن للاشراف على اجرائها كما تحتاج لاعداد كبير لتفســيرها على الوجه الاكمل ويعطينا مثالا لهـذا بدراسة جزيرة أوليثى Ulithi فى المحيط الهادى فقد قدم وليم ليســا W. Lessa للناس صورة واحــدة لرجل ينظر لامراة صغيرة محجبة تحمل صينية من الفاكهة — نظرة ماكرة — وعندما شاهد سكان الولايات المتحدة هذه الصورة صـاغوا قصصـا تتضمن معنى جنسى بينما تضمنت هذه القصص بالنسبة لسكان الجزيرة ويكاد الافراد يتضورون جوعا (٨) .

ويذكر أبو زيد (٩) أن دراسة الثقافة بمكن أن تســير وفق منهج **التتبع التاريخى** بالنسبة للظواهر الثقـافية وهو الاتجـــاه الذى يراعى **تعدد الازمان** diachronic .

كما أن الاتجاه الآخر يحاول أن يدرس الظواهر **دراســة تزامنيــة للحــاضر** Synchronic ومن أبرز التوجيهات هنا **التــاويل السيكولوجى** والاستعانة بعلم النفس فى فهم الظواهر الثقافية وهى الابحاث التى أثرت ميدان **الثقافة والشخصية** Culture and personality ودراســات الشخصية القومية وقد قادتها روث بندكت ، ومرجريت ميد ، وجوليوس هنرى ، وهسو Hsu وحيث يستعين الباحث هنا — فضلا عما سبق أن ذكرنا من أدوات — بالاختبـارات الاسقاطية ، وتحليـل المضمون ، وتحليل الاحلام (١٠) .

وقد أورد ليفى بريل (١١) فى مؤلفـه عن العقلية البدائية العـديد من الامثلة عن قبائل مختلفة للاشارة الى الظواهر الثقافية ومدى تنوعهـا وخرج من دراسة نتائج عديدة ، ومن بين ما أورده عن الاحلام فى افريقيا الاستوائية الاشارة الى مدى ثراء هذه الظواهر بالنسبة للقبائل البسيطة

(*) أهم هذه الاختبارات اختبار روشاخ واختبار الادراك الموضوعى

والمنعزلة ، اذ يترتب عليها العديد من الممارسات ويذكر بريل أن أحد الرؤساء رأى ابان نومه أنه قام برحلة فاعتبر أن هذا قد تم بالفعل ، ويستطرد بعد ذلك « ولشدة ما كانت دهشتى عندما رأيته جالسا على باب عشته مرتديا الملابس الاوربية بمجرد أن استيقظ من نومه وقال لرعاياه انه آت من بلاد البيض وكان على من يأتون لرؤيته من شيب وشبان ان يصافحوه مهنئين بسلامة العودة ... الخ » .

وتهتم الاثنولوجيا Ethnology بالدراسة المقارنة للشعوب على اساس خصائصهم الثقافية والسلالية وتحركاتهم ومدى انتشار الخصائص الثقافية والسلالية وتحركاتهم ومدى انتشار الخصائص الثقافية فهى دراسة مقارنة للثقافات كما تتميز عن الاثنوجرافيا باهتمامها بالتحليل اكثر من الوصف (١٢) .

٣ — الانثروبولوجيا الاجتماعية

ان الموضوع الاساسى الذى تدرسه الانثروبولوجيا الاجتماعية هو **البناء الاجتماعى** Social structure الذى يشمل على انساق اجتماعية ونظم اجتماعية فالمصنع على سبيل المثال ينقسم آلا أقسام عديدة ينقسم كل منها الى اقسام أصغر يقوم بالعمل فيها عامل أو مجموعة من العمال . ولا تترابط ألاقسام معا بطريقة جامدة أو روتينية لتكون الكل الواحد بل أن الاقسام المكونة للبناء وهيكل المجتمع لا تشهد انسجاما بين جزئياتها فحسب بل ومختلف ضروب الصراع أيضا .

وقد عرفت جامعة كمبردج أول كرسى للانثروبولوجيا الاجتماعية سنة ١٩٠٨ وقد نصب عليه الرائد الانثروبولوجى **سيرجيمس فريزر** Frazer ، ويدرس هذا الفرع — من فروع ألانثروبولوجيا — السلوك الاجتماعى الذى يتخذ شكل ألنظم الاجتماعية كالعائلة ونسق القرابة « كما تدرس الانثروبولوجيا ألاجتماعية العلاقة بين هذه النظم سواء فى المجتمعات المعاصرة أو فى المجتمعات التاريخية » على ما يذكر ايفانز برتشارد :

«It studies.. Social behaviour, generally in institutionalized form, Such as the Family, kinship system, political organization legal Procedures religious cults and the like, and the relations between such institutions etc.,

ولم يبدأ علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية فى **تصنيف المجتمعـــات على أساس بنيتها الاجتماعية** للوصول الى **الدراسات المقارنة للمجتمعات** الا فى نهاية القرن الماضى ، وهكذآ بدأت الانثروبولوجيا الاجتماعية توجه عنايتها لشبكة العلاقات الاجتماعية فى المجتمع وهكذا يقرر ايفانزبرتشارد أن المجتمعات هى **انساق طبيعية** natural systems تعتمد أ جـــزاؤها بعضها على بعض interdependent ويدخل كل جـزء منها **فى عدد من العلاقات الضرورية** المعقدة للمحافظة على الكل ، وواضح هنا أن **الحيـــاة الاجتماعية يسودها نوع من الترتيب والتماسك والاستمرار** لا يتيسر بدونها للمرء أن يشبع ابسط احتياجاته الاولية ، وهكذا تتسق ا لحياة الاجتماعية فى شكل نظم اجتماعية يمارس الاشخاص الداخلون فى نطاقها ادوار معينة مرسومة .

كما تتميز **الحيـــاة الاجتمـــاعية بعموميتها وقدرتها على الانتقال** عبر الزمن ، وهكذا يتسم البناء الاجتماعى **بالاستمرار والاستقرار** بينما يفرض المجتمع او القبيلة على الفـــرد الخضـــــوع للنظم والاعراف الاجتماعية السائدة أما من يتملص من الالتزام بها فانه يتعـــرض للعديد من العقوبات الرسمية وغير الرسمية التى تبـــدأ بالسخرية وتنتهى بالقتـــل أو على حد قول ايفانزبرتشارد :

«Institutions are thus thought of as functioning within a social structure consisting of individual human beings connected by a definite set of social relatios into an integrated whole.

ويذكر أبو زيد (١٥) أن البناء الاجتماعى لأى مجتمع هو عبـــارة عن مجمو عة من الانساق كالنسق الاقتصـــادى والقرابى والايكولوجى ويضم كل من هذه آلانساق عدد من النظم الاجتماعية التى تؤلف فيما بينها وحدة متماسكة متكاملة ولن يتيسر فهم البنـــاء الاجتماعى الا بدراســـة هذا التفاعل بين الانســـاق وبين النظم الاجتماعية المكونة بدورها لهـــذه الانساق وليس النظام هنا مجـــرد ظـــاهرة بسيطة بل ان معظم النظم الاجتماعية على درجة كبيرة من **التعقيـــد** ويدخل فى تكوينها عدد كبير جدا من العناصر المتشابكة والعلاقات التى تحتاج الى كثير من الجهد لـ تحليلها وفهمها .

والباحث الحقلى فى ميدان الانثروبولوجيا الاجتماعية لابد أن يعـــد اعدادا جيدا لبحثه ، وان يختـــار **المنطقـــة** التى سيجرى عليها بحثـــه ، **والنموذج السكانى** الذى اختاره لتحقيق هذا الهدف ، وان يتـــدبر **التمويل**

اللازم للبحث المقترح للدراسة الحقلية ، ومن ابرز **الادوات** المستخدمة هنا **الملاحظة بالمشاركة** حيث تتاح الفرصة للملاحظة المتعمقة — فى الوقت الذى يسهم الباحث فيه ويشارك فى اكبر عدد من الانشطة — كما يفيد عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية من المقابلات الحرة فى دراسة النسق السياسى واشكال الضبط الاجتماعى فى المنطقة بينما يستطيع **الاخبارى** أن يوضح للباحث الانثروبولوجى العديد من الجوانب المتصلة بموقع المجتمع وعلاقته بسكان المجتمعات المجاورة وأبرز عصبياته وانسابه ويزوده بفكره عن مصطلحات القرابة وعن المكانات الاجتماعية للأفراد الذين يشغلون مواقع اساسية فى بناء القوة فى المجتمع المدروس (١٦) .

ويلخص فهيم (١٧) الموقف الراهن لعلماء الانثروبولوجيا الاجتماعية « **الوظيفة والاتجاه** » فى أنهم يستخدمون ملاحظاتهم لدراسة **النظم الاجتماعية كاجزاء مترابطة فى النسق الاجتماعى** (فى صورة متكاملة) وانهم أصبحوا أكثر قدرة على دراسة المجتمعات المعقدة بدلا من العكوف على دراسة المجتمعات والقبائل البدائية (البسيطة المنعزلة) حيث انتقل الاهتمام من المحيط الهادى الى افريقيا فبدأ التركيز على النظم القرابية والسياسية بصفة خاصة وقد تصدت بض الكتابات لدراسة بعض الظواهر النوعية كالعنصرية والعلاقات والمحرمات الجنسية دراسة نقدية جادة ، ومن هنا ظهر « الاتجاه الراديكالى » الذى مؤداه أن على الباحث الانثروبولوجى هنا أن يتخذ موقفا ايديولوجيا مسبقا قبل الشروع فى الدراسة الحقلية على ما تذكر الباحثة البريطانية كاثلين جاف K. Goough .

وقد يتساءل المرء هنا عن **دور عالم الانثروبولوجيا** الاجتماعية وتمايز هذا الدور عن **دور عالم الاجتماع** ويلخص ايفانزبرتشارد هذا الفرق فى أن علماء الاجتماع يركزون جهودهم عادة على دراسة مشكلات أو ظواهر معينة فى المجتمع المعاصر بينما تتسع دائرة اهتمام الانثروبولوجيا للاهتمام بالبناء الاجتماعى للمجتمعات والقبائل المنعزلة فضلا عن المجتمعات المعقدة .

كما انه يلزم نفسه بأن **يعيش لعدة شهور او سنوات معهم** اذ ان دراسته ينبغى أن **تتعمق فى فهم العلاقات المتبادلة** بين النظم والانساق الاجتماعية أكثر من كونها دراسة تحليلية لهذه النظم نفسها (١٨) .

« المصـــــــدر »

١ — The New physical Anthropology, seenin retrospect and prospect (in) N. Kop Nan R.W. Thompson (Eds) Human Evolution U.S.A. 1967.

٢ — مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة . ترجمة محمد الجوهرى والسـيد الحسينى ، دار نهضة مصر بالقاهرة ١٩٧٦ ، جـ ١ الفصل الاول والفصل الثانى .

٣ — عبد الحميد لطفى — الانثروبولوجيا الاجتماعية — دار المعـارف — القاهرة — ١٩٧٥ — الفصل الثانى والفصل الثالث .

٤ — The Human species. Pandom House Newyork. 1965. p. 10.

٥ — البنـــاء الاجتماعى — الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ جـ ١ الفصل الرابع .

٦ — Origins of man. U.S.A. 1967 pp. 345, 346.

٧ — R.F. Murphy, Cultural and social Anthropology. New-jersey. 1986, p. 24.

وانظر ايضا :

من المؤلفات التى ناقشت التثقف يمكن الرجوع الى :

R. Bastide, Applied A nthropology. Newyork. 1971. ch. 3, 4.

٨ — بيلز وهويجـر — المصدر السابق ذكره — جـ ١ الفصل الخامس .

٩ — أحمد ابو زيد — المصدر السابق ذكره جـ ١ — الموقع نفسه .

١٠— محمد سعيد فرح — الشخصية القومية — منشأة المعارف — الاسكندرية — ١٩٨١ — الفصل الثالث .

١١— العقلية البدائية — ترجمة القصاص — مراجعة حسن الساعاتى — الفصل الثالث .

١٢— عاطف غيث — قاموس علم الاجتماع — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٩ — ص ١٦٤ .

١٣— روبرت ميرفى — المصدر السابق ذكره — ص ٤٠ : ٤٣ .

١٤— E. Pritschard. Social Anthropology and other essays. U.S.A. 1966. Ch. 1 and 3.

١٥— احمد أبو زيد — المصدر السابق ذكره — ص ٣٥ ، ص ١٣٨ .

١٦— بيلز وهويجر — المصدر السابق ذكره — الموضع نفسه .

١٧— قصة الانثروبولوجيا — عالم المعرفة — الكويت — ١٩٨٦ — الفصلين الخامس والسادس .

١٨— ايفانز برتشارد — المصدر السابق ذكره — الفصل الاول .

البـــــاب الثــــانى

« مجـــــالات علم الانســــــان »

الفصل الثالث : الانثروبولوجيا الثقافية .

نماذج لبعض الدراسات الحقلية :

مقـــــــدمة : مجالات الانثروبولوجيا الاجتماعية .

الفصـــل الرابع : الانثروبولوجيا الريفيـــة .

الدراســـة الحقلية : عمــــال التراحيل .

الفصل الخامس : الانثروبولوجيا الحضرية .

الدراســـات الحقليـــة :

١ — الخصائص الاجتماعية لسكان الاطراف.
٢ — الهامشية الحضرية .
٣ — الفقراء فى المدينة

الفصل السادس : الانثروبولوجيا الصناعية .

الدراســـات الحقليـــة :

١ — الورش الصناعية .
٢ — أثر التصنيع و التحضر
الصغيرة .

الفصل السابع : الانثروبولوجيا الاقتصـــادية .

الدراســــة الحقلية : أوضاع وعلاقات الباعة فى الاسواق الحضرية .

الفصل الثـــامن : الانثروبولوجيا السياسية .

الدراسات الحقلية : الدين والسلطة — القيادة فى القرية .

الفصل الثالث

« الانثروبولوجيا الثقافية »

اعتقد البعض أن الانثروبولوجيا الثقافية هى دراسة ثقافع المجتمعات البدائية (البسيطة ا لتكوين)
«describing the culture of less complex societies».

وخلال القرن الماضى كان الرحالة ودعاة الارساليات الدينية وغيرهم يسترسلون فى وصف عادات وتقاليد **الشعوب غير الغربية** بينما أسهمت الدراسات الحقلية خلال القرن العشرين فى تنقية هذه التقارير الاثنوجرافية — الوصفية للثقافة — من الشوائب والثغرات التى كانت تهدد دقتها وموضوعيتها .

وقد اكتشف علماء الانثروبولوجيا الثقافية أن الجماعات التى تسكن بعيدا remote groups قد « تمثلت » assimilate بصورة أو بأخرى العديد من الاساليب التكنولوجية الحديثة بل وبعض العادات الخاصة بالافراد والجماعات الذين احتكوا بها كما أصبح هؤلاء العلماء أشد ميلا لدراسة الثقافات الفرعية subcultures فى المجتمعات الاكثر تعقيدا «Subcultures, within more complex societies».

ولذلك فان سبرادلى spradley ومكردى Mecurdy يذكران أن الثقافة ليست هى السلوك نفسه بين **المعرفة المكتسبة التى يستخدمها الناس لتفسير عالمهم ولانتاج السلوك الاجتماعى :**
«Culture is not behavior it self, but the knowledge used to construct and understand behavior».

ويمكننا أن نؤرخ للانثروبولوجيا الثقافية بكتابات الرحالة ولعل أعظم الاحداث الذى عجل بالولادة الفعلية لهذا الفرع هو كشف العالم الجديد بمعرفة كولومبوس اذ أن **اكتشاف امريكا** فى السنوات الاخيرة للقرن الخامس عشر (١٤٩٢) قد أثر فى فروع الانسانيات : السياسة

والاقتصاد والاجتماع فلقد أوضحت الاستكشافات الجغرافية بجلاء حقيقة تنوع الجنس البشرى وثارت أسئلة عديدة حول أصل هذه القبائل وجرت محاولة ربطها بسفر التكوين (السفر الاول من الكتاب المقدس الذى يتعرض لنشأة الانسان والكون) .

ومن ناحية أخرى بدأت عملية الاتصال والصراع بين الدخيل الاوربى وهذه القبائل فى اطار انسانى الصبغة .

وفى هذا الوقت ظهرت كتابات جوزيه **آكوستا** J. Acosta فى القرن السادس عشر التى حاول فيها ربط ملاحظاته الشخصية عن السكان الاصليين فى العالم الجديد ببعض الافكار النظرية عن مراحل تطور الحضارة الانسانية . ودراسات ميشيل **دى مونتانى** M.D. Montaigne الذى أجرى مقالات مع مجموعات من السكان الاصليين الذين كان بعض الرحالة قد أحضروهم الى أوربا ، وغيرهم من العلماء ، هذا فضلا عن مؤلفات مونتسيكيو وروسو التى تناولت الثقافة الانسانية أو بعض الانماط الثقافية بالمناقشة والتحليل للخروج ببعض الاستنباطات النظرية عن الانسان (٢) .

ويذكر تشايلد V.G. Childe (٣) خلال القرن الثامن عشر أصبح العلماء على دراية أكبر بالمجتمعات الانسانية التى تختلف أساسا عن المجتمع الاوربى ووجدوا بين « المتوحشين » تشكيلة غير متوقعة من النظم الاقتصادية والتكنولوجية ، وهكذا حاول فيرجسون سنة ١٧٦٨ أن يقارن الوحشية بالبربرية والمدنية .

وفى سنة ١٨٥٠ حاول هربرت سبنسر أن يتوصل الى **قانون التطور الثقافى** الذى تخضع له « مجموع المجتمعات بترتيب هرمى » .

وقد سار فى هذا الطريق سير هنرى مين فى دراساته عن القانون القديم ، وباخوفن فى مجال دراسته عن القرابة فى «حق الام» سنة ١٨٦١ ، وماك لينان فى كتابه عن « الزواج » سنة ١٨٨٦ وتايلور الرائد الحقيقى للمدرسة البريطانية فى « الاثنوجرافيا » والذى صاغ فرضيته الاساسية فى المقولة الآتية : من الممكن أن نعامل الجنس البشرى باعتباره ذا طبيعة متجانسة رغم وجوده على مستويات مختلفة من الحضارة ، واذا تجاهلنا الاختلافات الناتجة عن الوراثة والبيئة أو الاحداث التاريخية فان ما يتبقى لنا هو مجتمع عالمى خاضع « لقوانين عامة » .

وغنى عن القـــول أن **الثقـافة هى نسق من الاجـزاء المترابطة** Culture is a system of interrelated parts ويعبر **نسق القيم** فى المجتمع افضل تعبير عن العادات والتقاليد والاعراف والمحرمات والامور المرغوبة فى المجتمع . ومن هنا فان الطفل يكون مفتقـدا فى لحظة الميـلاد لنسق المعتقدات والمعرفة وانماط السلوك المعتاد ولكن من هـذه اللحظة فصاعدا وحتى الوفاة يشارك كل منا فى مدرسة عامة هى مدرسة الحيـاة تعلمنا ثقافتنا الاصلية :

From that moment until we die, each of us participates in a kind of universal schooling that teaches us our native culture» (o)

ويذكر أبو زيد (٦) أن علمـاء الانثروبولوجيا الثقافية خلال القرن التاسع عشر قد وقفـوا مواقف متباينـة من العموميات universals والخصوصيات الثقـافية Specialities (*) فى الوقت الذى كانوا ينظرون فيه للثقافة على اعتبـار انها التشكيل المتكامل للسمات والعناصر التى تتجسد فى كل مجتمع وفق مبـدأ معين أو مجموعة من المبادىء .

فالثقافة على ما يذكر ميرفى (٤) هى أسـاليب الحيـاة الخاصـة والمميزة للمجتمعات المختلفة distinctive life styles characteristic of different societies» .

وهى تتضمن وسائل الاتصال بالغير حيث تبرز أهمية اللغة وغيرها من أساليب الاتصال اذ أن لزلى هويت L. White يقـرر أن الثقافة تتضمن نسـق من الرموز System of symbols فهى العنصر الفعـال فى أى ثقافة انسـانية ومع أن هؤلاء العلمـاء قد ركزوا على المبـادىء

وانساق القيم السائدة الا انهم ظلوا ينظرون للثقافة وفقا لرؤى **سيكولوجية أو تاريخيـة** بل انهم اختلفوا كذلك فى تفسـير تشابه السمات الثقافية لدى كثير من المجتمعات المتباعدة فى الموقع الجغرافى فالبعض رأى أن هذا التشـابه يعود بدوره لتشابه الظروف الطبيعية السـائدة فى تلك المجتمعات بينما رأى البعض الآخـر أن هذا التشابه يرجع لظروف

(*) تمثل العموميات فى وحدة التقاليد والعادات والمشاعر لكل أعضاء المجتمع بما يضمن للمجتمع تجانسه بينما تمثل الخصوصيات التقاليـد والعادات والمشاعر التى تسـود فى قطاعات جغرافية أو لدى شرائح سكانية بعينها دون أن تتعارض مع العموميات .

اتصال هذه الثقافات بعضها (بالبعض الآخر) وهو ما يعرف باسم عملية « **الاتصال الثقافى** » أو « **الانتشار الثقافى** » Diffusion of culture بمعنى أن ينتقل **المركب الثقافى** بكل ملامحه وسماته من مجتمع لآخر ، والاتجاه السائد الآن فى الانثروبولوجيا الثقافية يركز على الدراسات الحقلية لثقافة مجتمع معين وعلى التغير الناتج عن الاتصال الثقافى مع الابتعاد عن تتبع مراحل تطور الثقافة الانسانية بصفة عامة أو ترتيبها بحسب رقيها وانحطاطها .

وقد حدد عاطف غيث (٧) العوامل التى تلعب دورا فى التفسير الثقافى فى **العوامل الداخلية والخارجية** كما استشهد محجوب فى معرض حديثه عن طرق البحث التى يعتمد عليها فى جمع المادة الانثوجرافية فى الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة اسكارلويس عن « لافيدا أو الحياة » وهى دراسة عنيت بحياة أسرة من بورتوريكو تعيش ثقافة الفقر فى الولايات المتحدة حيث استعان الباحث بالملاحظة بالمعايشة من خلال المشاركة فى شتى المناسبات والمواقف وتسجيل تاريخ حياة الاشخاص والتركيز على مشكلات وأحداث معينة فى حياة الاسرة من خلال استخدام صحائف المقابلة (الاستبيان) وبض الادوات والاختبارات المعروفة فى علم الاجتماع والنفس فضلا عن الدراسة الكلية للحياة الاسرية من خلال الملاحظة والمناقشة والتسجيل التفصيلى للأحداث .

ومن الدراسات المعبرة عن هذا الفرع من فروع الانثروبولوجيا دراسة روبرت ردفيلد R. Redfield عن شان كوم Chankom (٩) وهى القرية التى درسها فى الثلاثينيات وعاد لدرأستها فى نهاية الاربعينيات ليكشف عن التغير الثقافى Cultural change الذى تعرضه له القرية وهو يصف فى مقدمة دراسته حالة هذه القرية المنعزلة بقوله :

«in its situation in the bush apart from roads and rail roads, physically isolated from town and city».

ثم يذكر فى المقدمة نفسها ما حدث من تغير بقوله :

«The villagers' had committed themselves to progress and civilization sovigorously».

وغنى عن القول كما سبق أن ذكرنا أننا ينبغى أن نتصل بالناس فى المجتمعات الصغيرة التى ندرس أنماطها الثقافية اتصالا وثيقا ، وهنا يذكر ميرفى :

«living in close interaction with the people of a small community makes one a participant in a culture whether he or she wants to be or not (he) is the center of attention throughout his stay.»

وقد تأثر روجـــرباستيد R. Bastide (١١) بكتـــابات كلاكهوهن C. Kluckhohn وتعريفاته عن الثقافة وذكر أن المتخصص فى الانثروبولوجيا الثقافية يتميز بـــ :

١ ــ **انه الوحيد الذى يدرس كل جزئيات الواقع :**
The only one who studies all the aspects of reality.
سواء اللغة أو أساليب الانتاج أو التنظيم الاجتماعى .

٢ ــ انه يركز اهتمامه على **الحقائق الثقافية** cultural facts التى تبين ان النظم الاجتماعية لا توجد بمنأى عن الافراد الذين يشـــاكون فيها وأن هذه المشـــاركة بدورها لا توجـــد بدون نسق للقيم يشكل الاطار الذى يوجد فيه الافراد والجماعات .

٣ ــ اهمية الاستقصاء عن **النماذج البنائية** والثقافية من جهـــة ومعرفة القوانين والميكانزمات التى نعمل بموجبها هذه النماذج من جهة أخرى .

ويستلزم الامر هنا **المعرفة المتعمقة للمجتمع والفهم الشمولى للثقافة**
indepth knowledge of one society and olso the Complete undestanding of the totality of culture etc—
ويلزم عالم الانثروبولوجيا الثقـــافية أيضـــا أن يستقصى عن ميكانزمات **التغـــير الثقـــافى** من جهة وأن يقارن مع ثقافات أخرى من جهـــة أخـــرى cross c ulture studies والمجتمع المصرى هو أكثر شعوب منطقـــة الشرق الاوسط احساسا بوحـــدته الثقافية ففيه تتركز على ما يذكر محمد الجوهرى (١٢) أكبر المقومات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية للتكامل والوحدة وتعـــد الدراسة الانثروبولوجية مطلبا حيويا لمواجهة المشكلات المحلية ليتحقق التكامل العربى لهذا المجتمع .

ومن هنا فاننا سنعرض نموذجا لبعض الدراسات التى تدخـــل فى مجال الانثروبولوجيا فى مجتمعنا وهى ظاهرة الموالد وظـــاهرة الكتابة على هيـــاكل المركبات ثم المعتقدات والمعـــارف الشعبية فى قرية غرب أسوان ثم للتغير الثقافى للظهير الزراعى فى مدينة متروبوليتانية .

١ — المـــــوالد (١٣) : (*)

وهى دراســـــة انثروبولوجية للموالد كظاهرة ثقــــافية شعبية حيث تتضمن الموالد ٣ عناصر شعائرية هى :

زيادة الضريح ، والذكر ، والمــوكب وتتضمن زيادة الضريح تلاوة الفاتحة على روح الولى ولابد من الايمان بقدرته وطلب معــونته كذلك لتسهيل الزيارة القـــادمة وزيارة الضريح لا تكون قاصرة على الرجال والشـــباب بل والنساء ايضـــا ، فكل شىء مباح للسيدات حتى الاقامة فى صحن المسجد وتناول الطعام مع تقـــديم النذور ، وزيارة المقصـــورة والضريح مناسبة للحصـــول على البركة حيث تلجـــأ كثير من الســـيدات لاستخدام المناديل لهذا الغرض والاحتفاظ بها ليتمسح بها بقيـــة افراد الاسرة ممن لم يتمكنوا من الحضور للزيارة والموالد مناسبة هامة تتغـير فيها كسوة المقصـــورة أو عمامة الولى فيسعى الجميع للحصول على قطعة صغيرة بأى ثمن ويستغل بعض خدام المسجد هذه المناسبة فيبيعون هذه القصاصات نظير مبالغ نقـــدية تتمشى مع القدرة المـــادية للشخص الذى يرغب فى ذلك ، والتناقض الواضح هنا أن الناس يحولون المساجد والكنائس الى اماكن للمعيشـــة وقضاء الحاجة ، وبالتالى يتحول ما هو مقـــدس sacred الى دنيـــوى secular أما **الذكر** فتؤديه الجماعات الصـــوفية بقصـــد ذكر أسماء الله أو صفاته أو أفعـــاله مع ذكر رسل الله وأنبيـــائه ، ومن الذكر ما هو ثنـــاء على الله ، ومنه ما هو دعاء أو طلبه وترى هذه الجمـــاعات أن الذكر يؤدى للطـــاعة وتجنب المعاصى بينما يصاحب الذكر بالانشـــاد الدينى الذى يؤدى بمصاحبة الموسيقى أو بغير مصاحبتها حتى تســـاعد الجماعة على التواجد والشطح والهزات العنيفة حيث يتحرك الاتباع ويرقصون طربا تحت قيـــادة الشيخ الذى يقود الذكر ويصدر التعليمات .

فهو يسمح بدخول الاعضاء أو قد يقتصر الذكر على الاعضاء أنفسهم كما يتم الذكر عادة فى السرادقات والخيام حيث يستخدم مكبرات الصوت بينما تدفع النقـــود للمنشد لتشجيعه على حسن الأداء ولتحيـــة الولى المحتفى به وافراد الفـــرقة الموسيقية الذين يحضرون هذه المناســـبة ،

(*) قام بهذه الدراســـة أ.د.فاروق أحمـــد مصطفى خلال عامى ٧٥ ، ١٩٧٦ فى كفر الدوار والمنصورة وطنطـــا ودسوق والاقصر وقنـــا والاسكندرية والقاهرة حيث تتبع الموالد المسيحية والاسلامية .

وقد يسمح فى بعض الاحيان باشتراك المراة فى الذكر كما قد تمنع فى أحيان اخـرى **أما المواكب** فهى تجمعات دينية شائعة بين أهل الطرق الصوفية والقصـد منها لفت الانظـار لبعض الشـعائر الخاصة بهـذه الطرق والاشارة الى قوة العقيـدة ، ورفع لواء الاسلام بين الناس حيث يطوف الموكب بأحيـاء معينة ، وترى الجماعات الصوفية أن هذه المواكب هى احيـاء للسـنة النبـوية واعلان لتماسك الجمـاعة كما تمارس المواكب فى الليلة الكبرى للمولد أو فى موالد الاوليـاء وتتدخل الدولة عادة فى تنظيم الموكب وحفظ النظام ويتم تنظيم الجماعات المشتركة بحسب ترتيب مكانتها الاجتماعية بينما تنشد الجماعات ابان سـيرها اناشيد دينيـة خاصـة بسيطة الكلمـات تعتمد على الايقاع مع حمل الرايات وهم يحاولون أن يحافظوا على الوحدة الكليـة للمشهد ولا يتم ذلك الا من خلال قيـامهم بتأدية أدوارهم كاملة وينفعل الناس عادة بهذا المشـهد بينما تذوب الفروق الثقافية الخاصة بمن يشاركون فيه .

٢ — ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى (١٤) :

لاحظ الباحث العالم سيد عويس ما يكتبه أصـحاب السـيارات واللوريات والعـربات وما يكتبه سائقوها من كلمات وعبارات تحـمل معـانى تتضمن الوقاية وتلح فى تحقيق السلامة فهى أسلوب من اساليب مواجهة المجهول فى مجتمعنا وقد جمع ما كتب باعتبـار أن ما يكتب على المركبات يعكس بدوره المناخ الاجتماعى والثقافى بين والكثير من العناصر الثقافية غير المـادية كما تأكد الباحث انه امام جهـاز شعبى كبـير (المركبات) يتحـرك على امتداد المدن والقرى والمناطق الصـحراوية فجمع نحو الف كلمـة وعبارة مكتوبة واستقصى من اصحابها عن الهدف من كتابتها ، وقد شملت الدراسة أصحاب المركبات فى احدى عشر محافظة هى القـاهرة والجيزة وأسوان والاسكندرية وبنى سويف والدقهليـة والغربية وكفر الشيخ والشرقية والقليوبية ودمياط والاقصر والبحيرة .

واستخدمت الدراسة **الملاحظة وتحليل المضمون** .

(*) قام بهذه الدراسة الاستاذ الدكتور سـيد عويس فى الفترة من ٦٧ حتى ١٩٧٠ وصـدرت هـذه الدراسة فى مؤلف رائد بعنوان هتـاف الصامتين — القاهرة ١٩٧١ .

وكانت العبارات موضوع الدراسة تعبر عن ٣ انماط رئيسية :

الاشكال الشعبية : (٥ر٣٨٪ من مجموع العبارات) ثم الاشكال الدينية (٣ر٣٢٪ من مجموع العبارات) ثم الاشكال « الاخرى » (٢ر٢٩٪ من مجموع العبارات) وكانت الاغانى الشعبية(*) اكثر عبارات النوع الاول ترددا يليها التعبيرات الشعبية(**) فالتحذيرات ثم الامثال الشعبية (***) فالنصائح فالتحيات .

اما بالنسبة للنوع الثانى فكانت الدعوات والابتهالات اكثر ترددا الآيات القرآنية (ب) فالاحاديث النبوية (جـ) ثم آيات الكتاب المقدس (د) .

وفى **النوع الثالث** : احتلت الاقوال المأثورة (١) المكانة الاولى يليها الاسماء الموصوفة (٢) ثم الاسماء فالعبارات الاخرى .

وهكذا افصحت الدراسة عن أن هذه العبارات تغترف من التراث الثقافى للمجتمع وتضرب بجذورها فى أعماقه اذ يحرص كل سائق على أن يجل العبارة المكتوبة معبرة عن فلسفة فى الحياة وان يسمع صوته لمن يقرأ هذه العبارات ، وتعكس هذه الفلسفة بدورها السمات الثقافية لشريحة كبيرة ممن يقودون هذه المركبات فى شوارع ازقة المدن والقرى وتعكس بالتالى نسق القيم وأساليب التفكير ومن هذه المعانى نجد الشكوى من الظلم ، والقسوة ، والفراق ، والتحذير من الحسد ، والغضب ، والدعوة للصبر ، والاستسلام والقرب للأولياء ، ومنها ما يدعو للمحبة والتعاون غير أن هذه العبارات تعكس التدين والتمسك بالفضيلة والاستسلام للقضاء والقدر وتفصح عن الخصائص الثقافية التى تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ المصرى الفرعونى فالقبطى والاسلامى .

(*) مثل « أروح لمين » و « يا ظالمنى » (**) مثل انا « حلوه » و « خليها على الله » . (   ) خلى بالك ولا تغضب .
(   ) مثل ابن الوز عوام ويا ناس يا شر كفاية قر .
(   ) مثل افعل الطيب و « صباح الفل » .
(١) استرها يا رب « وتصحبك السلامة » (ب) مثل الله اكبر (جـ) مثل انما الاعمال بالنيات مثل (د) « الله محبة » (١) مثل الصبر حلو (٢) مثل البطل الرومانى (٣) مثل المارد .

٣ — **المعتقدات والمعارف الشعبية فى غرب أسوان** (١٥) تزخـر قرية غرب أسوان بوجود عدد كبير من الاولياء وعلى الطفل الصغير أن يزور الولى فى الاسبوع الاو لمن عمره كما أن العريس والعروس لابد أن يذهب كل منهما لزيارة ألاولياء وفى المنازعات والمشكلات لابد أن يلجـــأ الناس للأوليـــاء وهناك قصص اسطورية تحكى عن نشـــأتهم وكرامتهم المعجـــزية على شفاء الامراض وقضاء الحـــاجات ، وهنـــاك أولياء اقل شأنا لا يعـــرف أحد عنهم شيئا . وقد تختلط القصص عن أحـــد الاولياء فلا يعرف أن كان وليا أم من الجـــان ومن بين أوليـــاء القـــرية الشـــيخ البسطامى والشيخ نجم وغيرهم .

ويحرص من يزور الولى على أن يجلب من الضريح كميـــة من الرمل لينثرها فى أركان منزله أو فى حقله وتستخدم كذلك للاستحمام . كما انه يلزم فى حالة زيارة الولى أن يدور الشخص بالضريح ٧ مرات .

اما نظرة الناس فى القرية **للكائنات فوق الطبيعية** فتتضمن تصـــــور هذه الكائنات على أنها تعيش تحت الارض وأنها تظهر فى الاماكن المهجورة وفى الافران والمراحيض داخل المنازل .

وهى مخلوقات غير مادية من طبقة غير طبقـــة البشر وغير طبقـــة الملائكة ويطلق عليها « الجن » أو العفاريت ويقصد بالجن الكائنات الخيرة بينما العفاريت هى الكائنات الشريرة ، ويطلق عليها جميعا فى القـــرية اسم « الصـــل » ويظهـــر فى أشكال حيـــوانات (أخصها الحمـــــار) ولابد أن يحفظ الانسان نفسه منها بحفظ القرآن أو حمله أو حمل مطواه أو قطعة حديد لحمايته ومن أبرز الكائنات هنا :

— **الشيطان** : هو ابليس نفسه ويطلق الاسم على من يسعى بالوقيعة بين الناس .

— **الصـــل** : العفريت — روح القتيل ويظهر للانسان ضعيف الايمان .

(*) أجريت الدراسة الحقلية لقـــرية غرب أســـــوان فى مطلع السبعينيات والجزء الذى اوردناه هنا عن المعتقدات وقد قام بها طلاب قسم الاجتماع بجامعة القاهرة تحت اشراف الاستاذ الدكتور محمد الجـــوهرى انظر : محمد الجوهرى — الانثروبولوجيا — دار المعـــارف — ١٩٨٠ — ص ٤٩٦ .

— **العمـــار** : عفاريت تسكن الاماكن المهجورة ويهرب النـــاس من هذه الاماكن خشية الاذى .

— **الغـــول** : وهو اقرب الشبه للبومة ويمكن أن ياكل ا لانسان .
— **المـــارد** : ويظهر فى شكل انسان .

— **القـــرين** : ويلازم الأب والأم وهم يعتقدون أن لكل شخص قرينا يلازمه فاذا مات الطفل اطلق عليه هذا الاسم ايضا .

— **الاســـياد** : ومنهم قسم صالح عبارة عن مشايخ يحمـــدون الله ويهيمون من منطقة لاخرى .

— **الأرواح** : ويطلقون على روح الميت « جـــوهرة » تنطلق للسماء بعد وفاة المرء أما روح الميت فيطلقون عليها عفريت وتهيم حـــول مكان الحادث .

— **المسوسون** : يحدث « المس » للشخص اذا تعـــرض لعفريت ولم يذكر « البسملة » بينما يرى البعض أن الشخص المســـوس يتميز بالولاية .

— **بنـــات البحـــر** : اناث صالحات تسكن البحر .

— **الـــبراق** : جواد له أربعة ارجل ووجه يشبه الانسان .

— **المسيخ الدجال** : رجلا يركب دابة ويفسد فى الارض ويمكن للســـيد المســـيح (عيسى) أن يقتله نظير افساده .

— **الطب الشعبى** : يلاحظ هنا وفرة الحشـــائش الطبية والاحجـــار والرمال ومن هذه الاعشاب تستخدم الدمسيسه لعلاج الكلى والقرنفل والحنضل وشـــجرة السنط والكمون والثـــوم لعـــلاج الامراض ، كما يلجأون احيانا للأعمال السحرية والزار وضرب الرمل .

وللناس خبرة فى علاج الجـــروح والكســـور والآلام الروماتزمية ، غير انهم اصبحوا يهتمون الآن بالعلاج لدى اطباء .

« المصـــــــادر »

١ — Spradley and Mccurdy, conformity and conflict, U.S.A. 1981 pp. 1 : 12.

٢ — حســـين فهيم — قصة الانثروبولوجيا — عالم المعرفة — فبراير ١٩٨٦ — الفصلين ا لثالث والرابع .

٣ — التطور الاجتماعى — ترجمة لطفى فطيم مراجعـــة كمـــال الملاخ — سجل العرب — القاهرة — ١٩٦٦ — الفصـــول الاول والثـــانى والثالث .

٤ — R. Murphy, Cultural and Social Anthropology. U.S.A. 1988. pp. 40, 41.

٥ — Spradley and Mccurdy op. cit. pp. 4 : 10.

٦ — البناء الاجتماعى — ج ١ — ١٩٦٥ — الفصل الرابع .

٧ — القرية المتغيرة — القاهرة — ١٩٦٢ — المقدمة وص ١ : ص ١٨ .

٨ — محمد عبده محجوب — مقدمة فى الاتجاه السوسيوانثروبولوجى — الهيئة المصرية العامة للكتاب — الاسكندرية — ١٩٧٧ — الفصل الثانى .

٩ — A village that chose progress Chicago. 1950. preface.

١٠ — op. cit. p. 222. .

١١ — Applied Anthropology. New York . Evanston, Sanfransisco ; London 1973, ch. 8.

١٢— الانثروبولوجيـــــا — دار المعـــــارف — القـــاهرة — ١٩٨٠ — ص ٣٥٠ : ص ٣٥٣ .

١٣— فاروق مصطفى — الموالد — الهيئة المصرية العـــــامة للكتاب — الاسكندرية — ١٩٨١ .

١٤— سيد عويس — هتاف الصامتين — ا لقاهرة ١٩٧١ .

١٥— محمد الجوهرى . ألانثروبولوجيا — المصدر السابق . ص ٤٦٧ ' ص ٤٩٦ .

التغير الثقافى
للظهير الزراعى فى المدينة
دراسة فى الانثروبولوجيا الثقافية

اولا : الظهير الزراعى موضوع الدراسة :

اجريت هذه الدراسة على احد الظهير الزراعية التابعة **للقاهرة الكبرى** وقد أجريت الدراسة الاولى سنة ١٩٧٨ ثم عاد الباحث بعد مرور ٩ أعوام لدراسة الظهير نفسه (سنة ١٩٨٣) بعد أن تم ادخال التيار الكهربائى الى الجزء الشمالى من الظهير منذ حوالى ٣ سنوات على أن يستكمل مد كابلات الكهرباء للجزء الجنوبى من الظهير فى حقبة لاحقة واستتبعهذا دخول الاجهزة الكهربائية وأهمها التليفزيون والريكوردر فى القطاع الشمالى بينما سارع بعض ا لسكان فى القطاع الجنوبى الى شراء اجهزة تلفزيون وأجهزة تسجيل (تعمل بالبطارية أو بالحجارة ... الخ) .

وقد أستبدلت القوارب الشراعية بلنشات اكبر تعمل بالسولار ضمانا لسرعة الحركة بين الظهير والمدينة من جهة والمحافظة على ارواح الناس أثناء ابحارهم من والى الظهير من جهة أخرى .

أما التغير الثالث الذى يسترعى النظر فهو أقتراب انتهاء العمل من « كازينو سياحى » فى أقصى الطرف الشمالى للظهير وتخصيص عوامة خاصة لنقل الرواد اليه . وهو المشروع الذى ما زال يلاقى مقاومة كبيرة من اهالى المنطقة .

والظهير الزراعى موضوع الدراسة يعد احد المجتمعات المحلية التابع اداريا لمحافظة الجيزة بينما يقع فى المجال الاقليمى للقاهرة الكبرى ويشكل جزيرة مستطيلة تقع فى وسط نهر النيل وتحيطها المياه من جميع جوانبها وهى تمتد بمحاذاة الجزء الجنوبى لمدينة القاهرة والجزء

الجنوبى لمدينـــة الجيزة حيث تنتشر العـــديد من المؤسسات الصـــناعيه فى هذه الاطراف الحضرية ، لا توجد اى مؤسسات صناعية داخل الظهير اذا استثنينا وجود بعض العمال — لا يتعدى مجموعهم أصـــابع اليـــد الواحدة — يقومون بصناعة القوارب بطريقة بدائيـــة ولا توجـــد بالظهير اى مؤسسات اقتصـــادية أو خدميـــة تابعـــة للدولة اذا استثنينا بعض المدرسين — لا يتعدى مجموعهم أصابع اليـــد الواحدة — يقومون بتعليم الأبنـــاء الذين يرغبون فى الحصـــول على شهادة اتمام التعـــليم الالزامى دونما اضطرار للتردد على المدارس الابتدائية فى المدينة حيث يتم التدريس فى حجرة مستقلة أو فى الحجرات الملحقة بالمسجد .

ومعظم البيوت فى الظهير تتكون من طابق واحد ومشيدة من الطوب الاحمر مع استخدام الطين أو الاسمنت . أو الطـــــوب اللبن . والارض الزراعية فى الظهير مخصصة لاغراض ثلاثة :

الزراعة ، والسكن ، واقامة بعض مشاريع **تسمين الماشية** وتربيـــة الدواجن (بمعرفة بعض أصحاب المشاريع الخاصة من خارج المنطقة) كما توجد ٤ أشكال للحياة **الملكية الخاصـــــة ، والارض المملوكة التى يتم تأجيرها للغير** ، وأراضى يتم تأجيرها **من الاصلاح الزراعى أراضى طـــرح النهر** ويتم تأجيرها من المحافظة.

ويستعين الفلاح عادة **بأدوات الانتاج البسيطة** كالفأس والمحـــراث حيث تزرع المحاصيل غير التقليدية وتوجد بنحو ٤ عروات زراعية خـــلال العام وبينما يقوم الظهير بمد العاصمة بحاجتها من الخضر والالبان الطازجة يقوم سكان الظهير بشراء معظم السلع فضلا عن اللحـــــوم والاسماك والاجهـــزة وقطع الاثاث ... الخ من المدينـــة فالظهـــير الزراعى يتصل بالمدينـــة المتروبولتانية اتصـــالا وثيقـــا فهو يعتمد على المدينة اعتمـــادا كاملا فى الحصول على متطلبات السكان فيه واذا كان الظهير بالنســـبة للمدينة هو العمود الفقـــرى للمواد الغذائية) فان المدينة بالنسبة لساكن الظهير هى الجمعيـــــة الزراعية والمتجـــر والمخبز ومتجـــر الاقمشـــة والمستشفى بل ان التجار فى المدينة ممن يقومون بشراء المحاصيل الزراعية يفرضون نفوذهم فى توجيه الانتاج الزراعى ودفعـــــه وتشكيله وتحديد خصائص النمط الانتاجى السائد فى المنطقة فهم يدفعون مقدم الثمن للفلاح ويحددون نوعية المحصـــــول الذى يتسلمه التاجر بجملته دون أن يكون للفلاح نصيب فيه . هذا بينما تتمشى النظم الاجتماعية المختلفة مع نمط الانتـــاج السائد فى الظهير فالعدد الكبـــير من الاطفال ممن تحتـــــاج اليهم زراعة الخضر كما ان غالبية الذكور يعملون داخل الظهير فى زراعة

الارض المخصصة للأسرة دون اجـــر مما يعمل على دعم قيم التماســك الاسرى داخل المجتمع المحلى (١) .

ويسترعى النظر فى الظهير العزلة الايكولوجية النسبية التى فرضتها ظروف المجتمع وطبيعة الحياة فى المنطقة .

ثانيــا : الأسلوب المتبع فى الدراســة الحقليــة :

استخدم الباحث فى الدراسة الأولى والثــانية الملاحظة بالمشاركة وصحيفة الاستبيان (المقابلة الشخصية) وقد تضمنت العينــة التى طبقت عليها استمارة المقابلة فى السبعينيات ١٠٠ أسرة من مجموع أسر الظهير البالغ عددها نحو ٣٠٠ أسرة(*) فى ذلك الوقت بينما تضمنت العينــة التى أجريت عليها الدراســة الحقلية فى الثمانينيات ٣٨٩ أسرة تشكل أكثر من ثلثى الأسر التى تعيش فى الظهير لازراعى فى الوقت اللحاضر .

وتضمنت الاستمارة الاولى عدد ٩٤ ســــؤالا وجهت لأرباب الأسر بينما تضمنت الصحيفة الأخيرة عدد ١٠٢ ســـؤالا وجهت لأرباب الأسر بقصد المقارنة بين مجموعة من المتغيرات الثقافية قبل وبعد دخــول التيار الكهربائى الى المجتمع المحلى الذى ما زال محروما من المياه النقية والصرف الصحى (فضـــلا عما سبق ذكره من مشكلات تتعلق بأوجه القصـــور فى السياسة الاجتماعية تجاه سكان المنطقة) .

٣ ـــ معطيــــات الدراســة الحقليـــة :

وقد أفصحت الدراسة الحقلية عن العديد من المتغيرات الثقافيـــة التى اختلفت فى الثمانينيات عنهــا فى السبعينيات بينما استمر الوضـــع قائم بالنسبة لمجموعة أخرى من المتغيرات الاجتماعية والثقافية فلم ينـــال منها التغيير شيئا وآذا كنا نجـــزم بأن السنوات التســـع التى مرت بين الدراسة الاولى والثانية لا تمثل حقبة زمنية كافيـــة تتغير فيهـــا البنيـــة الاجتماعية او الثقافية التى يفترض أنها تتغير ببطىء شديد فى المجتمعات

(*) هذا فضلا عن دراسة حالة لعدد ٢٠ حالة ثم دراستها بموجب دليل متعمق لدراسة الحالة .

التقليدية والظهر الزراعية الا أننا نزعم أن عجلة التغير الاجتماعى السريع التى تمر بهــا المدن المتروبوليتانية ــ بظهرها واطرافها الحضرية ــ لابد ان تتبادل التأثير والتأثر مع هذه المجتمعات المحلية الصغيرة كما أن دخــول التيار الكهربائى وانتشــار أساليب الاتصال الجمعى فى هذا الظهير (شبه المنعــزل جغرافيا) لابد أن يؤثر بفاعلية على شبكة العلاقات الاجتماعية وأساليب الثقــافة المــادية وغير المــادية فى المجتمع المحلى ويمكن أن نلاحظ الآتى :

(أ) اتضح أن **معدلات الأمية ما تزال كبيرة** اذ ان ٧٧٪ من مجموع ارباب الاسر فى السبعينيات مقابل ٢ر٧٢٪ من مجمـــوع أرباب الاسر فى الثمانينيات أميين ، وغنى عن القــول أن **عدم وجود مؤسسات تعليميــة** فى الظهير وخوف الاسرة وخشيتها على أولادها من التعرض للحــوادث فى حالة ركوب القــارب ذهابا وايابا فضــلا عن اغراء العمل الزراعى وانخراط الذكور من الأولاد به فى سن مبكرة لحساب الاسرة والانصراف من تعليم الانثى تقف جميعا وراء ارتفاع هذه المعدلات .

(ب) انخفض معدل العاملين بالزراعة من ٨٨٪ فى السبعينيات الى ٢ر٧٠٪ فى الثمانينيات والعاملين فى المجال الصناعى خارج الظهير من ٩٪ الى ٢ر٨٪ فى الثمانينيات بينما **ارتفع معدل المشتغلين بالتجــارة من ٣٪** الى ٩٪ وبرزت نسبة العاملين بالاشغال الاخــرى سنة ١٩٨٧ لتصــل الى ٦ر١٢٪ وأبرزها هى مشروعات تسمين الماشية فضلا عن أشــــغال الخدمات التى يستقر معظمها خارج المجتمع المحلى ، وهذا يعنى الانخفاض النسبى لمعدل العاملين بالزراعة وان كان معدل الحائزين لاراضى زراعية قد ظل ثابتا فهو ٦٧٪ فى السبينيات مقابل ٦ر٦٧ فى الثمانينيات بينما ارتفع **معــدل من يملكون رؤوس الماشـــية** (كالأبقار والجاموس) من ٧٣٪ فى السبعينيات الى ٨٠٪ فى الثمانينيات اذ أن الاسرة تنتفـــع عادة من بيع اللبن وتستفيد من روث الماشـــية فى صنع « الجلة » الذى توقد به الافران داخل المنازل . وهكذا أصبح التغير المهنى متمثلا فى الاتجاه لأعمال الخدمات واقتناء الماشية بقصد الاتجار فيها . وهى كلها تغيرات بسيطة تلعب دورا كبيرا فى تغير البناء الاجتماعى والنسق الاقتصادى .

(جـ) تفصح البيانات الخاصة بالمسكن عن حقائق هامة فقد **ازدادت نسبة الاسر التى يصل حجم مسكنها الى ٤ حجرات فاكثــر** من ٤١٪ الى ٨ر٥٤٪ وغنى عن القول أن السنوات الاخــيرة قد شهدت ازديادا فى عدد الأبناء المتزوجين الذين تضمهم العائلات الممتدة ، ومن ثم فان الاسرة تقوم ببنـــاء حجرة اضافية ــ رغم قرار حظر البناء على أراضى زراعيـــة ــ

اذ ان الحجرة الاضافية تستقطع عادة من المساحة المحيطة بالمنزل كما أن بعض العائلات قد أضطرت الى **تحويل حظيرة الماشية الى دورة مياه** مع اخراج الماشية خارج الدار (نظرا لتوفر الامن داخل الظهير) ومصداق ذلك أن عدد الزرائب فى الظهير قد أنخفض من ٨٦٪ فى الدراسة الحقلية الاولى الى ٦٤٪ فى الثمانينيات رغم **تزايد** عدد الحائزين لرؤوس الماشية . كما أن بيوت الظهير التى كانت تضم دورأت ميـاه كانت تصل الى الثلث فى السبعينيات فارتفع معدلها الى ٧ر٧٥٪ فى الثمانينيات « فالصغار قد كبروا » وليس بمعقول أن يقضوا حاجاتهم الطبيعية خارج المنزل .

وقد ارتفع بالمثل معدل من استخدموا **الطوب الاحمر** فى تشييد منازلهم أو استخدموه فى أضافة تعـديلات للمنزل من ٦٨٪ فى الحقبة الاولى الى ٣ر٩٢٪ فى الحقبة الاخيرة ، وغير خاف أن الطوب الاحمر اكثر صلابة من الطوب اللبن مما أدى لتغير الشكل المرفولوجى للظهير .

(د) وقد **ارتفع معدل من قدموا لزوجاتهم مهرا يزيد على ٢٠٠ جنيه** من ٢٨٪ الى ٣٨٪ ، وليس بخـاف أن الزيجات هنـا تتم بين الاقارب مما يجعل قيمة المهر منخفضا فى الحقبتين .

غير أن معظم **القـرارات الاسرية لا زالت من سلطة الزوج** وحـده بل ان بنـاء القـوة المتمركز فى شخصية الزوج قد ارتفع معـدله من ٥٩٪ الى ٣ر٦٤٪فى الدراسة الحقلية الاخيرة بينما أقتنع ٨ر٢٠ ٪ من ارباب الاسر فى الثمانينيات بأن القرارت الاسرية من سلطة الزوجة وحدها فهى تعرف كل صغيرة وكبيرة عن الاسرة ويتم ذلك عادة بالنسبة للزوجات كبار السن حيث ترتفع مكانة الزوجة كأم وجدة لعـدد كبير من الذكور والاناث داخـل المنزل ، وهكذا نجد انه رغم تسلط الرجـل آلا أن نسبة تعـدت خمس أرباب الاسر أصبحت توكل بمهمـة اتخـاذ القرار للزوجة وحدها وهى نسبة ليست بقليلة .

(هـ) **انخفضت نسبة من لديهم وقت فراغ** من ٧٠٪ فى السبعينيات الى ٥٦٪ فى الثمانينيات اذ أن ضغوط الحيـاة المتزايدة قد زادت بدورها من حجم المسئوليات الاجتماعية والاقتصادية والملقـاة على عاتقهم كما انخفضت نسبة من يقضـون وقت فراغهم فى المنزل أو فى زيارة الاقارب من ٩ر٥١٪ الى ٤٢٪ فى الحقبة الاخيرة وهو ما يوضح زيادة اعبـاء أرباب الاسر رغم وجودهم فى مجتمع زراعى بسيط يمارسون فيه الزراعة التقليدية داخل المدينة الكبيرة .

(و) ارتفع **معدل من يستمعون للمذياع** من ٨٨٪ ممن كانوا يستخدمون الراديو « الترانزستور » الى ٩٣٪ ممن يستخدمون الراديو الترانزستور فى الحقل والراديو الذى يعمل بالكهرباء فى المنزل غير أن نسبة من يشاهدون التليفزيون قد ارتفع من ٤٪ كانوا يستعملون التلفزيون الذى يعمل بالبطارية سنة ١٩٧٨ الى ٨٧٪ يستحوذون على أجهزة تلفزيون بعد دخول التيار الكهربائى للظهير — او لديهم اجهزة تعمل بالبطارية لحين دخول التيار الكهربائى للقطاعات المتطرفة فى المجتمع المحلى — وهم يحرصون عادة على مشاهدة المسلسلات يليها البرامج الدينية ثم نشرات الاخبار فالاغانى ثم مباريات كرة القدم وهذه النسبة الكبيرة توضح **الدور الكبير الذى بدأ يلعبه التلفزيون فى حياة الاسرة الريفية** داخل الظهير الزراعى فقد أصبح الصديق الذى لا يسهل الاستغناء عنه ومصداق ذلك ما ذكره السكان من أن الناس لم تعد تنام الآن قبل العاشرة مساء بعد أن كانت تنام مبكرا من قبل .

وقد ذكرت العينة المدروسة أن التغير قد أصاب الجميع وأن أكثر من أصابهم التغير هم صغار الذكور بل وكبارهم أيضا يليهم الاناث الصغار وقد اوجزوا هذا التغير فى أن الظهير الآن اصبح يشهد أفكارا افضل نتيجة لنضج الناس وازدياد وعيهم واتساع ادراكهم للحياة كما ظهرت بعض العلاقات العاطفية بين الجنسين فضلا عن ظهور بعض صور الانحراف كالنفاق والرياء من جهة وازدياد حدة المشاجرات بين الناس من جهة أخرى . وهكذا يبدو أن لاساليب الاتصال الجمعى وأبرزها جهاز التلفزيون اثرها الفعال فى التغير الثقافى داخل الظهير .

(ز) **انخفضت معدلات ممارسة القروض** من ٦٪ فى السبعينيات الى ٦٦٫٧٪ فى الثمانينيات وأداء الزكاة من ١٠٠٪ الى ٨٠٫٧٪ ولا ينبغى أن ينسب هذا التأثير للتلفزيون وأساليب الاتصال الجمعى آذ أن الضغوط الحياتية وتزايد المشغوليات تؤدى دورا لا ينكر فى خفض معدل هذه الممارسات ، هذا بينما ازداد معدل من قاموا بأداء **فريضة الحج** من ٩٪ الى ١٥٫٢٪ ، وقد زادت نسبة من وافقوا على تعليم الانثى تعليما عاليا من ٦٧٪ الى ٧٢٪ كما ارتفع معدل من يرون أن من حق الانثى أن ترتدى **زيا عصريا** (موضة) من ٧٪ الى ٩٫٨٪ كما أرتفع معدل من **ينظمون نسلهم** من ٢٩٪ من مجموع الاسر فى السبعينيات الى ٤١٪ فى الثمانينيات واصبحت الاسرة **اكثر ميلا لاستخدام الاجهزة الحديثة** ، فقد قام ٥٠٪ من مجموع أسر الظهيرة بشراء الغسالة الكهربائية وقام ٣٧٪ من الاسر باستخدام الثلاجة الكهربائية وهو ما يعكس ارتفاع معدل الدخول فى الظهير ، والامر الملفت للنظر برغم أن المجتمع المحلى ما زال محروما من

المياه النقيـــة الا أن الاسرة فى الظهـــير أصبحت أكثر ترحيبا بالتحـــديث والتغير الثقافى — فى جوانبه المـــادية وغير المـــادية — فى الآونة الاخـــيرة بأى صورة من الصور .

وتتفق هذه النتائج مع ما أورده البعض عن التغيير الثقافى فى مجتمعات محلية مماثلة فقد أورد جين دافيجنود J. Duvignaud (٢) فى دراســـة لقرابة تونسية وهى قرية Syebika أن القـــوى التى تصنع التغـــير الثقافى تهدد عزلة المجتمع المحلى التقليـــدى وأن الباحث ينبغى أن يدرب نفسه جيدا لدراسة القوى الاقتصادية والاجتماعية والثقـــافية المسئولة عن ذلك بل ان سيسيل هورانى Cecil Hourani فى تقديم هذه الدراسة تستطرد فى القول بأن مهمة عالم الاجتماع لا أن يدرس فقط بل أن يغـــير ايضا أو على حد تعبيره :

Sociology .. perhaps for the first time .. reveals, its full Capacities not merely to study men, but also to change them».

فقد ظهر أن شبيكا بالفعل كنتيجة للتغير الثقافى قد اكتشف هويتهـــا بينما ازداد توقع التغير — حده — عن ذى قبل .

كما أن روبرت ردفيلد R. Redfield (٣) عاد الى شـــأن كوم سنة ١٩٤٨ — بعـــد زارها فى المرة الاولى فى سنة ١٩٣٠ : سنة ١٩٣٣ — حيث قضى ٦ أسابيع فى القرية — مع زوجته وابنه — قد لاحظ أن القرويين يميلون للتقـــدم والاخـــذ بسبل الحضارة بشدة فقد انتفعت القـــرية من البعثة التى علمتهم حرف النجارة وصناعة الخبز والجـــلود كما ازداد التحول الى الحياة الحضرية حيث تمت عمليات اجتماعية وثقافية ملموسة فى البناء الطبقى وعملية التحضر لخصها ردفيلد بقوله :

«In these seventeen years chankom has become a Community soprovided, in its own inhapitants with artisans and merchants that it now depends little for such services on the towns etc..».

كما اشار ردفيلد كذلك للتغيرات التى حـــدثت فى النظام التعليمى ووسائل الاتصال الجمعى حيث سعت الانثى الى تغيير ملبسها بصـــورة ملموسة تمشيا مع تغير الاوضاع فى هذه القرية المكسيكية .

وما حدث فى الظهير الزراعى موضوع الدراسة الراهنة ســـيؤدى

الى تغير ثقافى ملموس بمرور الوقت ليس فقط نتيجة لدخول التيار الكهربائى ومظاهر التحديث للمجتمع المحلى بل لازدياد حدة الاحتكاك بين سكان هذا المجتمـــع والمدينـــة المتروبولوليتانية وهـــو الامر الذى يلفت رودلف L.L. Rudolph وسوسان رودلف Susanne. H. Rudolph (٤) النظـــر اليه من ان وسائل الاتصال ستحطم عزلة القـــرية حيث يزداد اتصالها بالعالم الخارجى ومظاهر التصنيع الحديث وسبل الحضارة المادية .

كما انه اذا تم اتصال الظهير الزراعى بمجتمع العاصمة — بواسطة طريق برى مأمون فلابد أن يزيد ذلك من حـــدة التفاعل بين المجتمـــع المحلى والمجتمع الاكبر فالتغير الثقافى اذ ذاك سيلحق بأساليب الثقـــافة المـــادية وغير المـــادية بل ان الانساق كلها سيلحقها التغير بصـــــورة مضطردة .

والشاهد هنا فى النهاية انه رغم ضآلة التغيرات التى حدثت فى **النظام المهنى** فان زيادة **الاتصال بالمدينة** اصبح متاحا من خلال وجود القـــوارب البخارية فضلا عن القـــوارب الشراعية التى كانت معروفة من قبل ، وقد لحقت **تغيرات مادية** مسكن الاسرة واستخدام الحجرات ، ونوعيـــة الاثاث والمهر المقـــدم للعروس وازدان حفل الزواج بالطرب واســـتخدام مكبرات الصوت ، بينما تغير بنـــاء القوة داخل الاسرة فى بطء شـــديد فالرجل لا يزال حجر الزاوية فى الحياة الاجتماعية فى الظهير .

ومن المرجح أن تأثير دخـــول التيـــار الكهربائى وأساليب الاتصال الجمعى قد ظهر فى استخدام الادوات التكنولوجية ، كما أن رياح التغيير فى الاتجاهات قد بدأت تعمل بفاعلية فى المجالات المرتبطة بتعليم الانثى وزيادة استخدام وســـائل منع الحمل ، وقد بدأت تظهـــر قيمـــة الوقت كما انخفضت معـــدلات ممارسة الفروض الدينية نتيجة لانشغال السكان فى العمل وفى مشاهدة برامج التلفزيون وكثرة التردد على المدينة لقضـــاء مصالحهم ، ومن المرجح أن تزداد الآثار الاجتماعية والثقافية فى الظهـــير بمرور الوقت نتيجة للتغير الثقافى .

« المصـــــــادر »

١ — ثروت اسحق — أثر التصنيع والتحضر على البناء الاجتماعى فى المجتمعات الصغيرة — رسالة دكتوراه غير منشورة — جامعة عين شمس — القاهرة ١٩٨٠ — الفصل الخامس .

٢ — Change at shebika, Introduction by R. Fernea .. U.S.A. 1977 foreword. pp. vol. 285.

٣ — A village that chose progress. Chicago, 1964. pp. 20 : 46.

٤ — The modernity of tradition. in political Development in India .. Chicago .. 1967 pp. 17 : 29.

مقـــــدمة :

مجـــــالات

« الأنثروبولوجيـــا الاجتمـــاعية »

يذكر محجوب أن **الانثروبولوجيا الاجتماعية** تهتم بدراسة الانســـاق الايكولوجيـــة والاقتصادية ، والقرابية ، والدينية ، والقبلية والسياسية حيث تحظى نظم الزواج والمصاهرة ، وتنظم الانتاج ، والتبادل ، والدين ، والســـحر ، والميراث ، والسلطة ، والزعامة والجـــزاء ، والهجـــرة ، والتكوين السكانى ، والتغـــيرات الديموجرافية على أهتمام علمـــاء الانثروبولوجيا الاجتماعية .

ومن هنا ظهرت فروع عديدة لدراسة هذه الظواهر لعل من أبرزها **الانثروبولوجيا الحضرية والريفية ، والديموجرافية ، والطبية ، والسياسية، والدينية ، والاقتصادية والانثروبولوجيا التطبيقية وانثرولوجيا التنميـــة** ويعنى كل فرع من هذه الفـــروع بدراسة النظم الاجتماعية فى الانمـــاط الاجتماعية المختلفة بحيث تدرس الانثروبولوجيا السياسية على سبيل المثال نظم الزعامة والسلطة والثواب والعقاب فى أنماط نماذج مجتمعية (بدوية — قبلية — ريفيـــة — حضرية) ، وتنتهى بنتائج على درجة معينـــة من التعميم تقارن بين الإنساق السياسية على ضوء علاقتها بالبناء الاجتماعى وبشرط أن تكون هـــذه النماذج المجتمعيـــة متنوعة ومتمايزة ، وقد كان **مالينوفسكى** واعيـــا بالدور الذى يمكن أن تلعبه الانثروبولوجيا فى التحليل وفى تشييد البنـــاء المعـــرفى وبأن لها طموحات تطبيقيـــة وقد قرر هذا منذ عشرينات القرن الحالى .

ويذكر فهيم أنه مع بداية الاربعينيات امتد نطاق **توظيف انثروبولوجيين** واستخدامهم فى أجهزة حكومية وفى مؤسسات صناعية عديدة وانه أمكن الاستفادة من توظيف الانثروبولوجيا وفروعها لخدمة اهداف الحـــرب بل ومساعدة دول العالم الثالث التى بدأت تنال استقلالها السياسى لبلوغ التقـــدم واللحاق بعجلة التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، ومن هنـــا ظهرت انثروبولوجيا التنمية Anthropology of Development .

كما ظهـــرت فى بداية الستينيات الدعــوة لفروع جـــديدة من الانثروبولوجيـــا من أبرزها **الانثروبولوجيا اللغـــوية** Linguistic Anthropology ومجالها هو دراسة اللغة فى اطـــار شبكة العـــلاقات الاجتماعية والبيولوجيـــة الاجتماعية Sociobiology التى تهتم بابراز الاسس البيولوجيـــة للســـلوك الاجتماعى فى المجتمع بالنسبة للانسان وغيره من الكائنات كما ظهر المجال المعـــروف **بانثروبولوجيا ابناء البلد الاصليين** Indigenous Anthropology .

وهناك مجموعة متميزة من الفرنسيين ومعهم ايضـــا نخبة من باحثى العالم الثالث وجهوا اهتمامهم لمجالات أخرى وظواهر أخرى للانثروبولوجيا الاجتماعية كالراسمالية ، والنظام الطبقى ، والتمايز الاجتماعى ، والهجرة الريفية الحضرية ، والامبريالية ، والاستغلال والتبعية وغيرها .

وسنحاول فى هـــذا الباب أن نركز على أبرز مجالات الانثروبولوجيا الاجتماعية وهى المجال الحضرى والصناعى والريفى والسياسى وأن نقدم مع كل مجال دراسة حقلية واحدة على الاقل أو اكثر على اعتبـــار أنه بدون الدراسة الحقلية يصعب أن نتحـــدث عن الانثروبولوجيا اذ انها ستكون آنذاك نظرية الطابع جافة المظهر مجردة من الوقائع الحياتية .

ومعظم الدراسات الحقلية المشار اليها هى دراسات قام بها الباحث بمفرده أو تحت اشراف هيئات بحثية أو جامعات مصرية .

الفصـــــل الرابع

« الانثروبولوجيـــا الريفيـــة »

تردد علماء الانثروبولوجيا قليلا قبل اعادة تعريفهم لعلم الانثروبولوجيا بانه **يتضمن دراسة كل الشعوب فى شتى المواقف الاجتماعية والثقافية** .

والمتتبع لتعريف هذا العلم كما جاء فى أقوال وكتابات **ايفانز برتشارد ورادكليف براون** وغيرهما لا خفى عليه ذلك نما زال الانثروبولوجيـــين — على مالم يذكر **روبرت ردفيلد** — يتحرك فى عالمه المتسع تقوده فكرته الاولى ومفهومه االتقليدى عن المجتمع البدائى فالسعادة الحقيقية هى فى دراســـة القبائل البدائية المنعزلة التى لا نعرف عنها شيئا .

غير ان عالم الانثروبولوجيا قد استرعى اهتمامه أن المجتمعات « غير البدائيـــة » تختلف أختـــلافا كبيرا عن النموذج « البدائى » المنعـــــزل لان المواطن القروى والحضرى يعيشـــــان فى ظل المجتمع (الكلى) مع اختلاف طرق حياتهما بصورة أو بأخرى .

ولان المجتمع القومى يضم هذه المجتمعات فهى تعد بدورها اجـــزاء من كليات اجتماعية وثقافية أكثر تعقيدا ، وقد ظل هذا الاهتمام بالمجتمعات الاكبر ينمو حين درسوا المجتمعات غير الاوربية فى آســـيا وأوربا وأمريكا اللاتينية(١) .

واذا كان **علم الاجتماع الريفى** (الامريكى النشـــأة) قد جاهد عبثا فى فهم مشكلات المجتمع الريفى — فى ضوء السياق المجتمعى الذى توجـــد فيه — فدرسها بصـــورة تجـــزيئية فان **الانثروبولوجيا الريفية** قد نجحت فى دراسة الظواهر الريفية فى اطار البناء الاجتماعى الذى توجد فيـــــه وتتبعت علاقاتها الوظيفية بالظواهر الاخرى (١) .

وقد نجح ولكننج E. Wilkening فى معالجته السسيولوجية **للمهارات الفنيـــة فى المجال الزراعى** وتاثر فى صياغته لفروض دراسته بأعمــــــال وسلر Wissler ومالينوفسكى Malinowski وجون جيلين حيث فهم هؤلاء

الانثروبولوجيون انتشـــــار السمات الثقـــافية فى ضوء المركب الثقافى للمجتمع (٢) .

والواقع أن الاهتمام بالمجتمع القروى لم يك احد الاهتمامات الاساسية للانثروبولوجيا ــ الاجتماعية والثقافية ــ فقد كان هدفها الاساسى التركيز على المجتمعات البدائية المنعــزلة لفهم الانسان البدائى (غير المتحضر) .

ويرجع الفضل **لروبرت ردفيــــلد** فى تعــديل مسار الاتجــاهات الانثروبولوجية التقليدية لتناسب دراســـة المجتمعات القروية الصغيرة من خــلال دراسة **البنــاء الاجتماعى** فى القرية باستخدام الملاحظة مع تحليل المادة الاثنوجرافية التى يحصل عليها الباحث من صحائف الاستبيان (٣) .

والواقع أن كتابات**ماركس** قد شكلت شرارة الانطــلاق فى الاهتمام المتعمق بنمط الانتـــاج الريفى فمع أن ماركس يقرر أن الانسان لن يطول بقاؤه فى المجتمع الريفى التقليدى الا أنه قد لفت انظـــار الباحثين فى حديثه عن نمط الانتاج الاسيوى الى جذب المدينة المتزايد ــ فى الشرق ــ للاعداد الكبيرة من الفقراء ممن هربوا من ظروف التخلف فى القرية فلم يلبثـــوا أن تحولوا الى « حثالة المدن » ، ومن هنـــا استرعى التغير الثقافى انظار البعض ممن تابعوا التغيرات الديموجرافية والاقتصادية والاجتمـــاعية فى المناطق الريفية ــ كنتيجة لنزوح الاعداد الكبيرة من قوتها العـــاملة الى المدن بعــد انحســـار النظام الاقطـــاعى ــ فأبرزوا بدورهم ازدياد الضغط على الموارد والخدمات الحضرية نتيجة لذلك ، والتغير الثقـــافى الذى يلحق القــرية نتيجة للجسور الثقافية بين القرية والمدينة (٤) .

ولا يمكن هنا أن نغفل تأثير تونيز الذى قدم مصطلحه الشـــــهير بالالمانيـــة Gemein schaft من Gemeinds اى **المجتمع المحلى الصغير** The local Community او المجتمـــع المحلى الريفى Dorf Gemein Schaft وهو هنـــا كوحدة ادارية تتضمن الانشطة والعـــلاقات الاجتمـــاعية حيث انصب اهتمامه على « الارادة الطبيعية » وتونيز فى نظر بارسونز قد اعتبر الاقتصاد الزراعى فى الريف مسبوقا باقتصاد الاسرة ويليـــه مبـــاشرة اقتصاد المدينة الصغيرة (٥) ولا شك أن هذا التدرج كان يرضى بصـــورة أو بأخرى عالم الانثروبولوجيا « الكلاســـيكى النزعة » باعتبار أن هـــذه المجتمعات المحلية البســـيطة تختلف عن المجتمعات الحضرية التى نعيش فيها .

كما أن تأثير **مدرسة شيكاغو** لا يمكن اغفـــاله فى هذا السياق فقد استحوذ المجتمع المحلى الريفى وعلاقة الانسان بالبيئة على اهتمام جالبين Galpin وبارك Park وماكينزى Mckenzi (٦) .

ومن الدراسات الرائدة فى هـــذا المجال دراســـة روبرت ردفيلد Redfield التى درس فيها قرية شان كوم Chankom وقرية تيبوزتلان Tepoztlan — مقاطعة يوكاتان — بالمكسيك .

وقد أوصى فى هذه الدراسات بضرورة الرجوع للتاريخ من جهـــة مع مراعاة المؤثرات الخارجية (الحضرية) التى تؤثر فى مجتمع القـــرية من جهة اخرى كما أختار عدة انماط متدرجة من المجتمعات المحلية تبدأ بقرية Tusik التى لا يتعدى سكانها ١٠٦ نسمة ثم شان كوم وهى فى نظـــره (القرية التى تبغى التحضر) ومن المعروف أن قرية تيبوزتلان كانت المصدر الرئيسى لافكاره عن المتصـــل فولك حضرى ففى سنة ١٩٢٦ أكتشف فى خصائص هذه القرية ما طوره بعد ذلك فى نموذج المجتمع الشعبى ، وقد أكد ردفيلد على أهميـــة الفهم البنائى للقـــرية والمدينة حيث يســـتحيل وجود فلاحين دون مدينة ويصعب وجود مدينة دون فلاحيها .

أما دراسة **اوسكار لويس** C. Lewis عن قرية تيبوزتلان نفســـها فقد مارست تأثيرا اكبر على الباحثين فقد حاول لويس ان يجعل من النتائج التى خرج بها ردفيلد فروضا حاول التحقق منها كما قام بدراسة تتبعيـــة للقرية بعد مرور نحو ١٧ سنة لاستجلاء مظاهر التغير ، وقد حدد لويس أهداف دراسته فى دراسة الثقافة والعلاقة المتبادلة بين النظم الاجتماعية وعلاقة المجتمع (كوحدة) بالمجتمـــع القومى ، وقد درس لويس النسق الاقتصادى والقرابى والانماط الثقافية وانساق الضـــبط الاجتماعى وقسم تاريخ المجتمع لثلاث عقب كما أبرز الوان الصراع كما تعرض للمشـــكلات الاجتماعية فى القرية ، وقد ذكر لويس أن ردفيلد فى تغاضى عن تحليـــل الانساق الاجتماعية بما تذخر به النظم من اوجه الصراع كما أغفل أستعراض العلاقة بين القرية والمجتمع القومى وتقاعس عن الاستفادة من المعطيات التاريخية البنائية (٧) .

وقد جذبت **الدراسة الشمولية للمجتمع المحلى** باستخدام الاســـاليب الانثروبولوجية وسوسيولوجيا المجتمـــع المحلى انظـــار هولنجدشيد ، ولنسكى ، والمتون ممن تعمقوا فى دراسة البناء الاجتماعى للمجتمع الريفى وانساقه الاجتماعية .

وقد اكتسب علماء الانثروبولوجيا خبرة طيبة فى مجال تزويد **برامج التنميــــة** ببيانات هامة حينما تحولوا لدراسة المجتمع المحلى وكان الهدف من أول دراســة لمجتمع محلى فى هذا المضمار المساعدة فى تنفيذ برنامج التنمية فى المكسيك بعد الثورة (١٩١٠ — ١٩٢٠) وقام بها جاميو Gamio وسانز بالاشتراك مع فاسكونسيلوسى وتبعتها دراسات اخــرى فى أمريكا الجنوبية وآسيا وافريقيا .

ومن الدراسات الهامة التي مارست تأثيرا كبيراً على الباحثين دراسة وليامز التى تناول فيها مختلف جوانب الحياة الاجتماعية فى قرية انجليزية .

ودراسة هاريس Harris عن اختيــــار القادة فى قرية بوللى بيج Bolly Beg بايرلندا الشمالية فى بداية الخمسينيات (٨) .

ويمكن تصنيف الدراســـات الانثروبولوجية عن المجتمعات القــروية اما فى الاطار الضيق Micro الذى يشمل احد الانساق أو بعض الخصائص الاجتماعية فى ضوء تأثرها على باقى انساق البنـــاء الاجتماعى فى القــرية **او فى الاطار المتسع** Macro الذى يشير الى علاقة القرية بالمجتمع القومى الذى يضمهما ، ويدين الاطار الاخير بالفضل لبعض الكتاب أمثال ردفيـــلد Redfield وهويت Whyte وجانز Gans .

وقد قطعت الابحاث التى تمت فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينيـــة شوطا هائلا فى التحليل نتيجة الابحاث التى تمت فى آسيا وافريقيا للدراسة الحقلية لمجتمات قروية واستخدمت المنـــاهج والادوات المتعارف عليهـــا فى الانثروبولوجيا فقد درس ناش Nash الآثار التى أحدثها مصنع للنسيج اقيم فى مجتمع محلى جواتيمالى .

ودرس هنتر M. Hunter نتائج ادخال برنامج لتربية المواشى فى مجتمع محلى جنوب افريقيا كما درس جيرز Geers اثر ادخال المحصولات التجارية الاستعمارية على النشاط الزراعى فى المجتمع الاندونيسى . وهكذا اســـهم الانثروبولوجيون فى فهم مشكلات تقبل ورفض التغير كما اسهموا فى عمليات التخطيط والتنفيذ والتقويم فى مشروعات التنمية والتى من أمثلتها مشروع « فيكوس » الذى كلف علماء الانثروبولوجيا بتنفيذه فى احـــد المجتمعـــات فى بيرو .

وهناك بعض دراسات تمت فى افريقيا وتبنت هذا الاتجــــاه اهمها **دراسات بانتون** Banton **وليتيـــل** Little (٩) .

وقد ابرزت الدراسة التى قدمها **شانين** Shanin اهمية السوق والدور الذى تلعبه التكنولوجيا فى تغيير حياة الفلاح وتقوم وجهة نظر شانين على اعتبار ان دور الحكومة المركزية فى هذه المحلات الزراعية كان باعثا « على التغيرات البنائية الاساسية حيث فرضت ضغوطا خارجية قوية على اقتصادها الزراعى .

ويذكر فهيم (١٠) أن تحديد كلمة « قروية » Peasantry من أولى الموضوعات التى واجهها واختلف عليها الانثروبولوجيون المهتمون بالدراسات القروية وأن **كروبر** Kroeber — فى كتابه عن الانثروبولوجيا والذى صدر فى نهاية الاربعينيات — قد أوضح أن القرويين لا يستطيعون الحياة دون الاتصال والاعتماد على الاسواق الحضرية ويعنى هذا أن الاختلاف الاساسى بين الحياة الريفية والبدائية يكمن فى اعتيادية المجتمع الريفى على المدينة والمجتمع القومى فى مقابل استقلالية المجتمع البدائى ، واذا كان فيرث يعتقد أن قروى بالمفهوم الغربى لا تطابق واقع المجتمعات الشرقية ، وأن الصيادين فى قرى جنوب شرق آسيا ينتمون الى فئة اجتماعية مماثلة المزارعين فان فوستر وردفيلد ، وولف Wolf يرون من جهة اخرى أن القروية Ruralism تمثل طريقة فى الحياة قوامها العمل بالزراعة وان كانت هناك فئة (مهنية) أخرى تمارس أعمالا غير زراعية القرية .

ويرى فهيم أن ابرز الاطر المقدمة لدراسة التنظيم الاجتماعى وتحليله قد قدمت من فيتش Fitchen وفوستر حيث قدم الاول معيارا بنائيا ذا خمس أبعاد للتمييز بين المجتمعات البدائية والريفية والحضرية(*) تميزت بموجبه المجتمعات القروية بوجود تنظيمات اجتماعية اختيارية ، ووحدات سكنية مكتفية ذاتية ، وبالارتباط بين السكان مع ازدياد التوجيه القيمى ، وبالتساوى بين الوحدات الاجتماعية المكونة للمجتمع كما أن سكان المجتمع القروى يمثلون جزءا من المجتمع الكلى (القومى) فى نهاية المطاف .

هذا بينما ميز الاخير فى دراسته التتبعية لقرية مكسيكية — بدا

(*) علما بأن Redfield قد هاجم فكرة التطور من البدائية الى الحضرية واعتبر ان المجتمعات القروية لم تنشأ اساسا من مجتمات بدائية وانما صاحبت قيام المدن .

بدراستها الحقلية سنة ١٩٤٢ دراسة انثروبولوجية بين **التعــاقد المتماثل** Symmetrical contract **وغـير المتمــاثل** Asymmetrical contract
ويشير التعاقد المتماثل الى التعاقد بين اشخاص ينتمون للمكانة الاجتماعية والاقتصادية نفسها . بينما يشير التعاقد غير المتماثل للتعاقد بين من ينتمون لمكانات اجتماعية واقتصادية مختلفة ويقترح فوستر بصفة عامة استخدام التعاقد الثنائى كوسيلة لتحليل بنية المجتمع القروى .

وقد أدى التحليل الوظيفى البنائى فى ميدان الانثروبولجيا الى نبـــذ العوامل التطورية والتركيز على دراسة الانساق الاجتماعية وتحليل البناء الاجتماعى ، ومن هنا اهتمت الانثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة شـــبكة العلاقات الاجتماعية فى القرية مع دراسة العـــلاقات بينها وبين القرى والعزب والنجوع المتاخمة والمدينة القريبة والخاصة الرئيســية التى تميز الدراسات الانثروبولوجية التى تتبنى الاتجاه البنائى التركيز على جمـاعات محلية صغيرة داخل وخارج القرية بقصد تتبع العلاقات فى تداخلها وتفاعلها معا لتحليل البناء الاجتماعى وشبكة العلاقات الاجتماعية .

والحقيقة التى يؤكد عليها علماء الانثروبولوجيا الريفية انه طالما أن القـرية تستشعر قوى التغير نفســها التى تؤثر فى المجتمــع القــومى فمن المســتحسن أن يدرس مجتمع القـــرية فى ضوء **النظرة الضــيقة** (الداخلية) Internal **والنظرة المتســـعة** (الخارجية) External فى الوقت نفسه .

ويرى معظم الانثروبولوجيا الريفية الآن أنه اذا كانت هناك علاقة مستمرة بين القرية والمدينة بل والمجتمع القومى فان هذه العلاقة التفاعلية لا تقوم على بعد واحـد وانما على عدة أوجه مترابطة تتصـل بالنواحى الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية ، ومع هذا فان تعـــدد الابعـاد لا يسهل عملية التحليل والدراسة بقدر ما تقابله صعوبات كثيرة عند تطبيقه على بعض المجتمعات فهناك مجتمعات زراعية توجـــد داخل مجتمعات صناعية نامية كما هو الحال فى بعض البلاد الاوربية واليــابان حيث لا تفرض الدول وصايتها على القــرية فالســائد عادة فى مثل هــذه المجتمعات هو وجود ثقافة مشتركة أو جماهيرية Mass Culture بالنسبة للمجتمع فالعــلاقة بين المحليات الريفية وبين المجتمع القومى هى فى الحقيقة علاقة تكاملية (١١) .

وهكذا ظهرت الانثروبولوجيا الريفية يغـــذيها **الاتجـاه الوظيفى** فى الانثروبولوجيا من جهة وتقاليـد **المدرسة الامريكية** فى علم الاجتمــاع من جهة أخرى ، وقد انتفع علم الاجتماع الريفى ايما انتفــاع من الدراسات الشـمولية Holistic الطابع بل لقد تبادلا معا « التأثير والتـأثر » ويستشهد البعض لتأكيد هذه الحقيقة بظهور هذا الفرع الذى يعرف الان فى الولايات المتحدة **بسسيولوجيا المجتمع المحلى** Sociology of Community كدليل على ذلك (١٢) .

وعندما انتقل الانثروبولوجيون الامريكيون فى دراسة المجتمعــات البدائية فى شمال أمريكا الى دراسة الحياة القروية جنوب ووسط (أمريكا) اهتم عدد كبير بدراسة أوضــاع الفلاحين تحت تأثير فكرة « التثقف » Acculturation فقاموا بتحليل الثقافات (القروية) ككيانات منفصلة واهتموا بالمقارنة بينها .

غير أن علماء الانثروبولوجيا فى أمريكا عندما اتجهوا صوب أمريكا اللاتينية لفت نظرهم طريقة حياة الهنود والاسبان والبرتغاليين الذين تربطهم بالمناطق الحضرية علاقات متنوعة فاهتموا بمشاركة القرويين فى الانظمــة المجتمعية القومية وبأوجه الخلاف بين سكان الريف والمدن وطبقة النبلاء .

والامر المحورى هنا أن الانثروبولوجى عليه أن يقوم بدراسة المجتمع المحلى كجـــزء من مجتمع أكبر كما يتحتم عليه أن يتعـــرف على أنواع العلاقات بين الشرائح المختلفة مثل العلاقات بين الافراد الذين نالوا حظـا كبـيرا من التعليم والذين نالوا حظا أقل ، وبين رجل المدينة ورجل القرية فضلا عن العلاقات مع النظام القومى ففلاح كوانج تنج Kwangtung الفـلاح البلغارى يقومان ببيع منتجاتها فى الاسواق الحضرية مباشرة .

وهكذا يتفق ردفيلد مع كروبر Kroeber فى أن علمــاء الانثروبولوجيا الريفية قد أيقنوا عن قناعة كاملة بأنهم يدرسون الآن **المجتمعات كاجــزاء من مجتمعات أكبر** (١٣) .

يستشهد ردفيلد على لذلك بقبائل « التيف » وسط نيجيريا حيث تتركز العــلاقات والقوة داخل مجتمع القــرية بينمــا تنقل قبــائل « اللورى » فى افريقيا الوسطى مراكز السلطة خارج القرية .

واذا توقفنا — وقفة هينة — عند ما كتبه ردفيلد عن المجتمع القروى ونظرة الفلاح للحياة سواء من خلال دراساته او الدراسات الحقلية التى قدمها غيره من علماء الانثروبولوجيا لاسترعى نظرنا تاكيده على تأثر القرية بالافراد وفئات السكان ممن ينتمون لمجتمعات محلية أخرى مجاورة اذ أوضحت دراسة بيرسون Fierson عن القرية البرازيلية تأثر سكان القرية بـ « الموظفين الرسميين » وفى ياكتان التى درسها روبرت ردفيلد كان المدرس هو الشخص الوحيد المؤثر والممثل للعالم الخارجى داخل القرية .

وقد استنتج **فوستر** من دراسته لقرى **أمريكا اللاتينية** تأثير النشاط الدينى الوافد للمنطقة فضلا عن الرقصات ومصارعة الثيران كظواهر ثقافية لم تك معروفة للسكان **أما ردفيلد** فقد ناقش الاتجاهات السائدة عادة لدى الفلاحين ويعلق هذه الاتجاهات بالزراعة ,وعما اذا كانت أحد أفضل المهن فاكتشف أن الفلاح فى ياكتا وفى ساكس بانجلترا وفى غيرهما يجب العمل فى الارض واذا كانت هناك شواهد معاكسة كالتى أوردها فرمان وتنتورى عن الفلاح فى جنوب ايطاليا وريفرز عن الفلاح الاندونيسى الذى يهجر الارض متجها للمدينة فان هذا يعكس بدوره بعض الاختلافات الثقافية الاقليمية وازدياد المشاق التى يقابلها الفلاح لزراعة أرضه . والعائد غير المجزى مما ينعكس على اتجاهه السلبى تجاه الزراعة والارض .

أما الاتجاه الثانى فيتضمن التعبير عن العاطفة وقد وضعه ردفيلد بالنسبة لسكان القرى التى درسها بأنه يتسم بالرزانة والورع حيث يأتى الزراع فى ياكتان للتعبير عن « العمل والتقوى فى الحياة والبعد عن المغامرات الجنسية » ، وقد خرج بورن Bourne من دراسته لسكان مقاطعة سرى بنتائج مشابهة .

أما بالنسبة للبندلنج فى جنوب ايطاليا فالتجربة الجنسية لازمة فى هذه القرى لفهم الحياة ويعزى ردفيلد تلك الاختلافات للجذور التاريخية التى تؤدى بدورها لفروق قيمية قروية فى المناطق المختلفة .

ويأتى الاتجاه المرتبط بالاتصال بالخارج ليعكس مجموعة اخرى من القيم فالسوق والزعامة السياسية والرئاسة الدينية والمحكمة تمثل **العالم الخارجى** وقد استشهد ردفيلد بالدراسات الحقلية عن الهند حيث اكتشف الاثر المباشر الذى تعكسه بعض الشخصيات على الحياة

الاخلاقية فى داخل المجتمع القروى كما أوضح أن بعض سكان القرى يقبلون على المدن للعمل غير أنه من جهة أخــرى قد اكتشف كيف يقف الفــلاح فى وجه التغير الاجتماعى ويحاول مقاومته (١٤) .

ويذكر **عــودة** (١٥) أن التيــار الانثروبولوجى كان التيـــار السائد فى **الهنـــد** ويستشهد بدراســة ديوب Dube عن القــرية الهنـــدية بدراسته الحقلية لبرامج التخطيط فى مجموعة من القــرى الهندية ودراســة اشوران لمجتمع قروى فى جنوب الهند .

وفى ســيلان قام باحث أمريكى يدعى برايس رايان B. Ryan بدراسة الاتصالات فى قرية سيلانية وحاول الباحث أن يجمــع بين التكنيكـــات الانثروبولوجية وطرق البحث فى علم الاجتماع الريفى فى دراسته لشـــبكة العلاقات الاجتماعية وشبكة الاتصالات فى القرية .

وفى اليــابان قام جون أمبرى J. Embree بدراسة لقرية سويا مورا ابان مرحلة التحول الاجتماعى لمجتمع القرية .

وفى معرض حديثــه عن الانثروبولوجيا والاستشراق والتبعيـــة فى دراســـات ريف الشرق الاوســـط يذكر **باندلى وكاثى جــلافانيس** Pandeli, katheleen GLAVANIS .

ان هذه الدراسات اتخذت اتجاها وصفيا تقليديا تصــور المجتمع الريفى على أنه مجتمــع ساكن يقــاوم التغير الاجتماعى حيث تشـــكل الانســـاق العائلية والطائفية محــورا للمحافظة على البناء التقليـــدى Traditional وان التغير يحدث اذ ذاك نتيجة للقوى الخارجية External

وتميل هذه الدراسات للتركيز على الهجرة باعتبارها اهم العــوامل فى احــداث التحول فى القرية فى **الشرق الاوسط** وفى مثل هذه الدراســـات يجــرى تصوير الفلاح باعتباره « أميا .. مريضا .. يفتقر للوعى مقيدا بالتقاليد » وان التنمية تتم عادة على أيدى الطبقة المتوسطة الجديدة والتى تعيش فى المدينة .

وقد أدى ذلك الى قصور الاطار النظرى **الوظيفى المحـــافظ** فى فهم البنــاء الاجتماعى فى الشرق الاوسط ، وهو الاطـــار الذى ظهر فى السياق الاستعمارى خلال الحقبة الممتدة سنة ١٨٨٠ : ١٩٥٠ حيث دخل العالم العــربى فى ظل النظام الراسمالى (العـــالمى) كهامش تابع للسيطرة

(الامبريالية) ، وقد جاءت الصحوة مع تصاعد المد القومى والاستقلال وما صاحبه من أزدهار للابحاث والدراسات التى قامت بهـا مدارس وطنية مثل **مدرسة جامعة عين شمس** فى مصر فى الستينيات حيث أعادت توجيه الدراسات البحثية حول مختلف جوانب التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الاوسط مع اهتمام زائد بدراسة العلاقات الزراعية والطبقات كما ظهرت **مدرسة التبعيية** وهى المدرسة صاحبة الاتجاه الفكرى النقدى والتى نشأت فى أمريكا اللاتينية مسترشدة فى ذلك بأعمال لينين ، وقد حاول اتباعها فى مصر والسودان والجزائر دراسة طرق اندماج المجتمع الريفى الشرق الاوسطى فى الاقتصاد الراسمالى العالمى .

فاذا أعدنا الى امثلة محلية للدراسات الانثروبولوجية فان البعض يشير الى دراسة عبد الله لطفية لقرى الضفة الغربية فى الاردن والى دراسة حامد عمار عن التنشئة الاجتماعية فى قرية سلوا بمحافظة أسوان وعاطف غيث فى قرية القيطون بمحافظة الدقهلية كمثال لاستخدام الاتجاه الانثروبولوجى فى الدراسة فى الاردن ومصر حيث استعانت الدراسة الاخيرة بالمنهج الانثروبولوجى المعدل الذى طوره ردفيلد لدراسة هذه القرية واستعان الباحث بالتاريخ فضلا عن الملاحظة والملاحظة بالمشاركة كما استعان بذاكرة كبار السن لابراز التغير الاجتماعى والثقافى فى مجتمع القرية وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية .

ويرى ميرف (١٦) أن دراسة المجتمعات الريفية قد ساعدت الانثروبولوجيا لكى تتصدى لدراسة مشاكل العالم الحديث .

«The study of such peasant societies took anthropology into Confrontation with the problems of modern world».

اذ أن الانفتاح على السوق قد ساعد على كسر العزلة التقليدية للمناطق الريفية كما ادى لاعتمادها على نفسها أو على حد تعبيره :

«The peasant is being torn out of his semi isolation .. ending forever his self sufficiency etc..»

وهكذا أسهمت الانثروبولوجيا اسهاما كبيرا فى دراسة المجتمعات الريفية .

« المصـــــادر »

١ — روبرت ردفيلد — المجتمع القروى وثقافته — ترجمة فاروق العادلى — الهيئة العامة للكتاب — الاسكندرية — ١٩٧٣ — الفصل الاول .

٢ — محمود عودة — الوضع الحالى للدراســـات الاجتماعية الريفية — المركز القومى للبحوث — ١٩٧٣ — ص ٢٥ .

٣ — بيلز وهويجلر — الانثروبولوجيا العامة جـ ٢ — ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى ويوسف أسعد — دار نهضة مصر القـــاهرة — ١٩٧٧ — ص ٨٦٤ .

٤ — أحمد صادق سعد — النمط الآسيوى للانتاج — الطليعة — الســنة العاشرة — فبراير ١٩٧٤ — ص ٦٥ : ص ٧٥ .

٥ — R. Konig .. the Community — London .. 1968 pp. 9-8.

٦ — I.T. Sanders, The Community, N.y. 1968 preface.

٧ — R. Redfield. The little Community. Chicago 1955.

A. Village that chose progress. London — 1962 pp. 113 : 138.

O. Lewis. life in mexican village. Illionis, .. 1963 .. pp. 339.

٨ — محمود عودة — المقال السابق — ص ٣٣ .

٩ — بيلز وهويجلر — المصدر السابق — ص ٨١٩ : ص ٨٥٧ .

١٠— حسين فهيم — بعض الاتجاهات الانثروبولوجية فى الدرأسات القروية

— الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى — المركز القومى للبحوث — ١٩٧٣ — ص ٥٩ ، ص ٦٠ .

١١— المقال نفسه — أجزاء متفرقة .

١٢— محمود عوده — المقال السابق — ص ٢٦ .

١٣— روبرت ردفيلد — المصدر السابق — ص ٥١ : ص ٩١ .

١٤— المصدر نفسه — الفصل الثالث والرابع .

١٥— محمود عوده — المقال السابق — ص ٣٦ : ص ٥٢ .

١٦— Cultural and social Anthropology New Jersey. 1986. p. **211.**

« عمـــــال التراحيـــــل فى مصر »

« دراســــة فى الانثروبولوجيـــا الريفيـــة »

ذكر بوست Post (١) ان أحد العنـــاصر الاساسية **للرأسمالية التى خلقها الاستعمار** هو العمل بأجـــر فى افريقيا عند غير الافارقة أو لدى الافارقة أصحاب الملكيات الكبرى وهو يستشهد بما ذكره ســتافن هاجين R. Stavenhagen من أن الاســتعمار فى ريف افريقيـــا السوداء قد خلق ٣ شرائح اجتماعية جديدة هى شريحة العمال المهاجرين والعمـــال الذين يعملون فى المزارع التجـــارية الكبيرة ثم الفلاحين الذين يزرعون من أجـــل الانتاج للتصـــدير ، بل ان العامل المهاجر من وجهة نظره لا يكاد ينفصـــل عن الاقتصاد المعيشى التقليدى فالشرائح المهاجرة لزراعة القهـــوة وزراع الكاكاو من « الاشانتى » يمثلون جمـــاعات تتنقل وتستخدم قـــوة العمـــل لمقابلة الحـــاجات الجديدة للسوق ، ولعل هذا هو السر الذى يؤكد فيـــه ستافن هاجين أن الشرائح التى تهاجر من قراها تشبه البروليتاريا نظـــرا لانها تبيع قوة عملها كسلعة .

«They selling their labour power as a commodity, like proleterians».

فالهجرة الافريقية تظهر كانعكاس للقـــــوى الرأسمالية والاستعمار لشرائح تقـــوم ببيع قوة عملها (ولا يعنى هذا بحـــال أنهـــا تبيع مهاراتها فحسب) .

ومن هنا فان كين بوست Post فى حديثه عن هذه الشرائح العمالية يقترب من الصـــورة التى نرسمها نحن لشرائح مماثلة نعرفها باسم عمـــال التراحيل ، هى تلك الشرائح الفقيرة التى يكرس انتاجها الاجتمـــاعى من أجل غيرها فهى ليست قوة زراعية تعمل بالزراعة بأى حال من الاحوال والحديث هنا ليس عن « القرية » بل عن عملية تحـــول هذه الشرائح الى شرائح بروليتارية أو على حد تعبير بوست :

Possible to speak of a parallel proces «of proletarianization».

ويعتمد العالم الثالث على **المركز الراسمالى** المتقدم صناعيا الذى يعد التضخم من ابرز سماته وخصائصه وهكذا تنعكس الازمات والتناقضات على **المحبط** الذى لا يعانى من تخلفه الاجتماعى والسياسى فحسب ؛ بل يعانى كذلك من جمود أقتصادياته (٢) ورغم أن ما بين ثلث ونصف القوة العاملة فى دول العالم الثالث لا تملك الا أن تعمل بالزراعة الا أن الزراعة نفسها ما زالت متخلفة فيها نظرا لبساطة الآلات المستخدمة والاعتماد الزائد على البيئة الطبيعية (المناخ والامطار والرياح ... الخ) والقوة البشرية فضلا عن التفتيت المستمر للارض الى مساحات قزمية صغيرة واجهادها الدائم بينما تستنزف المجهودات والنفقات — الناجمة عن مشكلات الرى ومقاومة الآفات الزراعية والسعى لشراء البذور المحسنة وتسويق المحصول — على الكثير من طاقة الفلاح البسيط . ولا شك ان الكثير من الفلاحين فى العالم الثالث يعيشون على اقتصاد « **شبه معيشى** » ولا زال اهتمامهم الاساسى ينصب على توفير ضرورات الحياة لاسرهم (٣) ويؤدى تزايد السكان عادة فى ريف العالم الثالث بمعدلات كبيرة الى خلق جيش كبير من العمال المعدمين والذين لا يجدون عملا منتظما معظم شهور السنة (٤) .

وغير خاف أن هذه القوة العاملة التى تعانى من البطالة المقنعة هى قوة عمل موسمية تعانى من الامية ونقص التدريب المهنى ويؤدى زيادة حجمها — على الطلب — الى **استغلالها من خلال الوسطاء والسماسرة** ، وفى الوقت الذى يتناقض ما يبذله أفرادها من جهد فى العمل مع ما يتلقونه من أجر تخضع هذه القوة العاملة للتقلبات فى سوق العمل مما يؤدى الى تهميش دورها الاقتصادى بينما تفقد لاى ضمانات بالنسبة للمستقبل ، وقد يتمشى هذا وما ذكره ماركس عن الفائض السكانى او « **جيش العمل الاحتياطى** » الذى يؤدى دورا أساسيا فى خفض الاجور فيتم الاستعانة بأفرادهم باستئجارهم عند الحاجة بينما يتم فصلهم فى فترات الكساد فهم يخدمون النظام الاقتصادى القائم ويساهمون فى تراكم راس المال نتيجة لضعف الاجور التى يحصلون عليها .

فاذا تفحصنا هذه القوة العاملة الامية غير الماهرة وغير المدربة التى تشغل **قاع السلم المهنى** وجدنا أنه لا يوجد تحديد لسن الدخول للعمل فيها أو للخروج منه ولعل زيادة حجم الاسرة فيها يفسره أن الحدث الصغير يعد موردا اقتصاديا للاسرة الفقيرة بينما يسهل استغلال هذه

الشرائح بواسطة السماسرة والمقاولين والتجار ، وفى الوقت الذى تقل فيه دخولها يؤدى اهمال رعايتها الى نقص انتاجيتها بصورة ملحوظة الامر الذى يؤدى الى تهميش دورها الانتاجى بصرف النظــر عن طبيعة هــذا الدور الذى تؤديه .

ويؤكد البعض أن انتقال قوة العمل الزراعية للبحث عن عمل خارج القــرية يعد من مصاحبات النظام الرأسمالى وأن العديد من بلدان العالم الغربى قد عرفت هذا النظام فى مراحل معينة من تاريخها (٥) .

وقد ناقشت دراسة رائدة عن أساليب الانتاج والتكوين الاجتمــاعى فى القرية المصرية الاسس النظرية التى قدمها عامر وعبد الملك وطلال أسد وزيجلر وسمير أمين وأوضحت أن علاقات الاعتماد والتبعية يمكن تفسيرها بوصفها محصلة **للتغلغل المتبــادل بين اساليب انتاجية راكدة واساليب راسمالية حديثة** حيث تتعــايش شبكة من أشــكال الانتاج اللارأسمالى أو قبل الرأسمالية فى مصر وغيرها من المجتمعــات المحيطة (العــالم الثالث) .

ومن ناحية أخرى حاول الباحثون الانثروبولوجيون الفرنســيون المهتمون بدراسات غرب افريقيــا أن يبرهنوا على أن البحث الانثروبولوجى الميدانى المحدود النطــاق يمكن أن يســاعد فى الصياغة الاجرائية لاسلوب الانتاج ولمرحلة ما قبل الرأسمالية والتقليــد والاستعمار ثم التحول الى الرأسمالية .

ومن هنا بدأت دراســة **التمفصل والتشابك فى اساليب الانتــاج والتعايش بين هذه الاساليب** وتتبع النماذج التى تسيطر فيها واحــدة من هذه الاساليب على غيرها من الاساليب . ومن هنا فقد حاول عــودة اختبار الاتجاه الفرنسى الوثيق الصلة بالبحــوث الميدانية الامبيريقيــة وتمفصل أساليب الانتاج من خلال دراسة عملية الانتاج الزراعى والتوزيع وعلاقات الانتاج فى ضوء التحليل الاجتماعى الموسع Macro social Analysis **للانتاج الزراعى وسلطة الدولة المركزية** وملكيتها للارض وشكل الاستغلال والاستنزاف الخارجى التى ترتبط بالانتاج الزراعى وتنظيمه الاجتمــاعى وعلاقات التبادل وكيفيــة تدخل الدولة فى اقتصاد القرية (فى مصر) مع استخدام **التحليــل الاجتماعى المصــغر** Micro **الذى يرتكز على التنظيم الداخلى للانتاج الزراعى** وتغير صور أشكال التبادل قبل الرأسمالية نتيجة للتغلغل الرأسمالى وتغيير صور هجرة العمل بوصفها نظاما لاعادة الانتاج الاجتماعى فى المناطق الريفية (عمال التراحيل) والهجرة الموسمية للحضر وطرق التعاقد مع القوى العاملة ومراقبة عملية الانتاج من خلال المقــاول وغيره من الوسطاء .

وبعبارة أخرى فالتحليل الاجتماعى الموسع يرتبط بسلطة الدولة على الارض الزراعيــة بينما يركز التحليل الاجتماعى المصغر على الانتـــاج الزراعى والقــوى العــاملة وعلاقات الانتـــاج فى المجتمعــات المحلية القروية .

اولا : التـــاريخ لعمـــال التراحيل :

١ — من هم عمال التراحيل ؟

تقسيم القوى العاملة الزراعية فى مصر عادة الى :

(أ) **العمال الدائمون** وهم الذين يستأجرهم كبـــار وأغنياء المــلاك للعمل فى أراضيهم « التملبة » (٦) .

(ب) **عمـــال اليومية :** وهم عمال الزرآعة الذين يستعان بهم عادة فى مواسم اعداد الارض الزراعية وجمع المحصول .

(جـ) **عمـــال التراحيل :** وهم فائض العمالة الذين يزيدون فى منطقة معينة عن حاجة العمل فيبحثون عن فرص العمل فى منطقة احرى حيث يتولى مقاول الانفـــار ترحيل بعضهم للعمل فى مشـــاريع بالقرى الاخرى بينمـــا تستوعب المشاريع المقـــامة فى مناطق حضرية شرائح كبيرة منهم ، كذلك نظرا الأن فرص العمل فى المدينة تعد أكثر اتساعا منها فى الريف ويضم هذا الفـــائض من قوة العمل عمال التراحيل الذين يضطرون للاستدانة بصورة مستمرة من المقـــاول ولا يملكون فكاكا من العمل بالترحيلة وصغار العاملين الفلاحين الحـــائزين أو المستأجرين لمســـــاحات قزمية ويحتاجون لمبالغ (مجمـــدة) لزراعة أرضهم فيضطرون للخـــــروج للعمل فى الترحيلة وقد يصطحبون معهم أسرهم (٧) .

وهناك فئة من عمال التراحيل تسمى « **الجيرة** » وهم عمال التراحيل الذين يعملون بصورة موسمية خارج القرية ثم يعودون فى نهاية اليـــوم الى القرية كما أن عمال الزراعة « الفواسة » و « الكراكة » هم كذلك من عمال التراحيل (الدائمين) .

والقاسم المشترك لكل هذه الشرائح أنها تنزع طلبـــا للعمل خارج

القــرية على مدار السنة كما تتعامل عادة من خـــلال وسيط (الســـواق او رئيس أنفـــار) وفى الوقت الذى تختلف فيه معدلات الاجور من محافظة لاخــرى ومن موقع لآخــر فى المحافظة نفسها فان معـــــدل الاجر يقل دون شك عن معدلات أجور باقى عمال ألزراعة فى القرية نفسها ولا يسمح العمل غير المستمر بقيـــام علاقة تعاقدية بين عمال التراحيل واصـــحاب الاعمال مما يحـــــرمهم من الاستفادة من الخـــدمات القائمـــة فى الهيئات والمؤسسات التى يعملون فى ظلها بينما يؤدى وجود وسطاء الى استغلال عمال التراحيل بصورة تقترب من السخرة ودون أن تتوفر لهم معرفة فعلية بمناطق ألتشـــغيل التى سيعملون بها حيث يقيمون فى معسكرات أو خيام فى ظل ظروف معيشية قاسية وخاصة بالنسبة للاحداث الذين يتكدســـون عادة فى أماكن المبيت ويحتشدون فى اللوارى التى تقلهم لمنـــاطق ألعمـــل دون مراعاة الأبسط الاعتبارات الانسانية والسؤال الذى يطرح نفســـــه هنا : **كيف افرزت القرية المصرية عامل التراحيل ؟**

من المستحسن لكى تتضح العلاقة بين مركزية **الدولة ونظام السخرة فى مصر وبين ظهور النظام الرأسمالى** ونظام التراحيـــل يحسن ان نبـــدأ الاطروحة من واقع التاريخ الاجتماعى فى مصر للتعرف على كيفية ظهـــور عامل التراحيل كانعكاس للظلم الفادح للفلاح المصرى على امتداد تاريخه ألطويل .

(أ) **فى مصر الفرعونية** كان فرعون هو مالك الارض وكانت ملكيـــة الأمراء فى بادىء الأمر وقتيـــة لا تورث بينما كان الفلاح وهـــو عمـــــاد الاقتصاد الزراعى يكافح نظير قوته اليومى وتدل الشواهد على أنه حتى قيام الدولة الحديثة فان الفلاحين ظلوا هم ألطبقة المستغلة دون الطبقات الاخرى فى المجتمع .

(ب) **فى ظل الاستعمار الرومانى** ازدادت حـــالة الفلاح المصرى سوءا وقد ضاق الفلاحون ذرعا بالدخيل الرومانى حين أمعنت روما فى أحتـــكار الارض رالسلطة السياسية وكلما احتدم الصراع وازداد البؤس حاول الفلاحين المصريين البحث عن هويتهم ألثقافية والاجتماعية والدينية أزداد المستعمر تنكيلا بهم .

(ج) **بعد دخول الاسلام** كانت الملكية تخضع للحـــاكم المصرى الذى يعد المالك الحقيقى للارض وظل هذا ألنظام متبعـــا حتى بدأ حكم المماليك حين ظهر الاتجاه للاهتمام بالملكية ألفردية لأمراء الاقطاع الذين كانوا يسخرون أسلوب الانتاج لمصلحتهم الخاصة (١٩) .

وقد عاش الفلاحون حتى القرن الثامن عشر عيشة بسيطة متدنيـه فمنازل معظمهم مشيدة من الطـــوب النيىء وكان أكلهم الدائم مكونا من الشعير والجبن القريش فضلا عن البقول والخضر وكانت ملابس الفلاح عادة من صنع يديه (١٠) .

وقد استند **نظام الالتزام** بأن حكم المماليك على تقسيم الارض الى أرض ((**الوسية**)) وأرض ((**الأثر**)) ، وكانت أرض الوسية تحـرث عادة حسب نظام السخرة وظل الصراع بين الملتزم المملوكى والفـلاح المصرى مستمرا حتى نهاية عهـد محمد على ، ورغم أن موقف محمد على قد ازداد صـلابة بوقوف الفلاح المصرى الى جانبه وآشترك الفلاحين فى الصراع الذى قاده الوالى الجـديد ضد المماليك والدولة العثمانية الا أن محمد على لم يتورع بعد ذلك حين اصطنع نظام الرى الدائم عن تسخير الفـلاحين على مدار السنة فى شق الترع وتطهيرها وبناء السدود والقناطر والجسور والسدود وهكذا لم يمض وقت وطويل بعـد أن تولى محمـد على الولاية حتى الغى **نظـام الالتزام** الغـاء تاما وفرض ضرائب متزايدة — دون وساطة الملتزمين وكان الفلاح يجبر على تسـليم هذه الضرائب مباشره للدولة وهكذا تم مصادرة ((**الفـايظ**)) الذى يدخل جيب الملتزم لحسـاب الوالى الجديد (١١) .

٢ — فسر البعض علاقة الدولة بالفـلاح بأن سيطرة الدولة على مصادر المياه والرى وتنظيم وسائله للوصول الى مستوى انتاجى مرتفـع قد اقتضت سيطرة مركزية على الارض الزراعية وان كانت هذه السيطرة قد اعتراها الوهن ابان القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ومن الجلى أنه فى ظل حكم محمـد على كان الفلاح يتمتع بحـق الانتفاع من الارض فحسب ، أما حق الملكية فظل على حاله فى يد الدولة . ومن الملاحظ أنه فى عهد كبار الملاك هى المنتفع الوحيد من حقوق الملكيـة بينما كان صغار الفلاحين ينتفعون فحسب ويعانون من الضرائب الباهظة مما كان يدفعهم فى كثير من الاحيان لهجر أراضيهم والفرار منها بينما صاحب تطور حقوق الملكية فى عصر اسماعيل تماديا فى اثقـال كاهل الفـلاحين باتاوات فادحة لسداد العجز فى ميزانية الدولة وكانوا يلجأون فى كثير من الاحيان الى بيع حاصلاتهم ومواشيهم بأبخس الاثمان فضلا عن هجر كثير من الملاك أراضيهم أو تركها بورا نتيجة للالتزامات المفروضة عليهم ، وقد سمى هؤلاء **بالمتسحبين** لكثرة عـددهم ومن ثم وضعت الحـكومة قانونا لتوزيع أراضيهم (١٢) .

ويذكر عودة أن الاعداد الهائلة من الفلاحين الذين هجروا أراضيهم هربا من الضرائب او الالتحـاق بالجيش أو السخرة قد عاشوا فى الجبال والكهوف حيث كانت السخرة تشمل العمل فى مشروعات الدولة فى ظل أسرة محمد على واصبح الفلاح مضطرا للاستدانة من مراب بضمان ما يملكه كما كان يعجز عن السداد وهكذا شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر انتشارا لحالات الافلاس مما دعا حكومة اسماعيل للاستيلاء على أراضى الفلاحين ورهنها لمصلحتها مقابل تسديد ديونهم (١٣) .

وقد تفاقمت المشكلات الاقتصادية ابان ذلك الوقت نتيجة لانتشـار طاعون الماشية وتذبذب الفيضان مما أدى الى تحول الكثير من الحـائزين الى **معدمين وعمال يومية** (١٤) .

ويقدر باتريك أوبريان حجم عمال التراحيـل فى عصر محمـد على بأربعمائة ألف رجـل من مجمـوع السـكان الذين لم يكن عددهم يتعدى أربعة ملايين نسمة .

وكان العامل يحصل على أجـر لا يتعدى قرشا واحدا عن كل يوم وكانت المشكلة الرئيسية بالنسبة لهم تكمن فى انتقالهم الى المناطق الاخرى البعيـدة — تحت الحراسة المسلحة — بينما يجلد بالسـياط أو يودع فى السـجن من يتقاعس عن الخروج للعمل فى تلك المناطق أما الفـلاحين أصحاب الحيازات القزمية فكانوا يفرون عادة من القـرية نتيجة للضرائب الباهظة وكانت السلطة المركزية تتعقبهم حيثما ذهبوا (١٥) .

ويذكر عبد الفتاح (١٦) انه من المعتقد أن هذه الشريحة المعـدمة من القوة العاملة (عمال التراحيل) قد تبلور وجودها فى نهاية القرن التاسع عشر ثم أتسع حجمها طوال النصف الاول من القرن العشرين نتيجة لتراكم أعداد الفلاحين المعدمين — الذين يحرمون عـادة من حقوق الملكيـة الخـاصة كمـا يعجزون عن الوفاء بالحد الادنى لمستلزمات الحياة المعيشية — وهو يرجع ازدياد عمال هذه الشريحة الى زيادة سكان الريف واستمرار تفتيت الارض الزراعية وتحول كبـار المـلاك للزراعةا لرأسمالية التى تعتمـد بدورها على العمل المأجور .

ويذكر عاطف غيث (١٧) أنه أثنـاء الفيضان كانت الحكومة تلجـأ الى استدعاء عدد معين من القـوة العاملة فى كل قرية للاشتراك فى تقوية جسور النيـل وكان العدد المطلوب يقسم على العائلات فى القرية فى الوقت الذى كان الجنود يضطرون الى اجبار القرويين على ذلك .

وكان أفراد الاسرة الفقيرة ممن لا يملكون يضطرون الى هجـــر الزراعة والقـرية كلها للعمل فى تطهير النرع وحفـر المصارف وانشـاء الطرق أو النزوح للمدن القريبـة او البعيـدة فالذين لم يجدوا فى الارض مصلحة مباشرة لم يكونوا يترددون عادة عن تركها .

ويميز عبد الفتاح بين عمال الزراعة الذين يعملون بالاجر فى أراضى القرية (١٨) والقرى المجـاورة بشكل ثابت أو موسمى وعمال التراحيل وعمال « الخطرية » أو « العـزاوبة » الذين يجمعـون من القرى المختلفة للعمل فى مشـاريع بعيدة حيث تتراوح مدة غربتهم بين شهرا وعام بأكمله ويطلق عبد الفضيل على عمال التراحيل لقب « أفقر فقراء الريف المصرى » اذ أنهم يشكلون الشريحة المعدمة التى تعمل من خـلال مقاول الانفـار الذى يحصـل بدوره على « عمـولة » نظير تشغيلهم كما يضغط عليهم للعمل أياما اضافية دون أجر لحسابه بعد أنتهاء الترحيلة — التى تتراوح كل عملية فيها بين ٤ : ٨ أسابيع نتيجة لعدم وجود عمل ويتم ذلك بالقرية تحت أمره « رئيس العمال » الذى ينصـبه المقـاول ليتولى مهمة توزيع العمل سواء الجماعى أو الفردى والعمل الجماعى يقسم فيه العمال الى مجموعات يشرف (الخولى) على كل مجموعة منها وبامكانه خصم يوميـة عامل التراحيل بحجة اهماله فى العمل أما العمل الفردى فيقسم العمـل فيه على الانفار فى صورة مقطوعيات .

ومنذ بداية الستينيات جرت محاولات لتشغيل عمال التراحيل عن غير طـريق مقـاولى الانفار وذلك من خلال تكوين لجـان حكومية فى بعض المحافظات بيد أن هذه المحاولات قد فشلت فى زعزعة الثقـة فى مقـاول الانفـار ودوره فى سوق العمل الزراعى ، ويرجع ذلك الى أن هـذه المحاولات هى مجرد اصـلاحات جزئية ولم تكن جزءا من عملية اعادة تشكيل نمط العلاقات الزراعية فى الريف المصرى .

ويعتقد عبـد الفضيل (٢١) أن نظـام الترحيلة يوضح ملامح نظـام العمل الاقطاعى فالعامل بالنسبة للمقـاول فى وضع التابع الذى لا يتمكن من بيع قوة عمله الى اى جهة اخـرى حتى لو كان فى هذا يتحقق لوضع أفضل بالنسـبة له مما يزيد من سطوة المقـاول على عمـال التراحيل بصورة تجسد ازمة الانتقـال من الاقطاع للراسمالية ، فعمـال الزراعة هنا لا يجدون لهم مكانا فى القطاع الراسمالى للعمل بأجـر وهم يحـرمون بالتالى من أن أصبحوا بروليتاريا « بالمعنى المعروف ويحرمون من ملكيـة وسائل الانتاج » بينما يشكل هؤلاء المقاولين « **بورجوازية ريفية** » **تمارس**

بجانب توريد الانفار اعمالا اخرى كتجارة المواشى وتجارة المحاصيل الزراعية والمواد الغذائية كما أن **الترابط الوثيق بين سوق العمالة وسوق اقراض المال وسوق السلع الاستهلاكية** هو الذى يؤدى الى تزايد المقدرة الاستغلالية لمقاولى الانفار ازاء جمهرة الفلاحين المعدمين ، وهو يصف بذلك كيف ان عامل التراحيل يخرج عادة فى الترحيلة حوالى اربع مرات فى السنة (لمدة شهر فى المتوسط) وكيف يعمل فى القرية (كعامل زراعى موسمى لمدد قد تصل الى ٣اشهر فى السنة) اما بقية العام فيظل العامل متعطلا او يعانى من الانهاك البدنى المرتبط بالترحيلة نفسها .

٣ — الامر الذى لا شك فيه أن **حجم عمال التراحيل قد استمر فى التزايد فى ظل الغزو الراسمالى** وكنتيجة للزيادة فى معدلات البطالة والبطالة المقنعة فى القرية وظهور راسمالية المقاولات فى مجال الاشغال الانشائية والزراعية التى تمارس تجارة البشر من خلال المقاولة — كشكل تنظيمى يشبه نظام الرق وقد ظهر هذا فى انتشار « البورصات » التى كان مقارها المقاهى التى يملكها الاجانب للاشراف على استيراد وتصدير العمالة فى ظل نظام الاجور المنخفضة والمعاملة غير الانسانية وقد ظل ذلك قائما حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ فاذا ناقشنا موقع عمال التراحيل من هرم القوة العاملة (٢١) فى مصر فان هذه المناقشة تصبح اكثر جدوى اذا ناقشناها خلال حقبة الخمسينيات والستينيات ، والسبعينيات .

٤ — وقد افصحت الاحصاءات الاقتصادية عن تميز مصر بوفرة العمالة فى الخمسينيات والستينيات وحدا هذا بالبعض امثال ارثر لويس الى اعتبار مصر — كالهند وجمايكا — بلد ترهقه اعباء فائض ضخم فى العمالة ومع ذلك فقد أوضحت الاحصاءات الخاصة بالقوة العاملة فى السبعينيات وجود نقص فى العمالة يسود بعض القطاعات الهامة بما فى ذلك الزراعة ولا يتعارض هذا مع وجود فائض فى قطاع العمل الحضرى غير الماهر وفى بعض أنواع العمل فى المستوى العمالى من التنظيم الرسمى ومع ظهور بعض الجيوب الخاصة بالبطالة المقنعة واحتمال تزايد البطالة الريفية الجزئية المحلية والعمالة فى المهن الهامشية التى تتسم بعدم استمرار العمل وبالانتاجية المنخفضة وتتسم كذلك كذلك باقبال العمال على الاشتغال بالقطاعات غير الرسمية فى الريف والحضر (٢٣) .

ويفصح هرم القوة العاملة فى مصر عن ان هناك قاعدة عريضة من العمالة الامية غير الماهرة التى ليس لها خبرة سوى الاشغال

المحلية البسيطة الآليـة التى لا تحتاج للقوة البدنية وتجد هذه الفئـة من العمال فرصا للعمل فى كل قطاعات الانتاج تقريبا بل انها تتحرك بين شتى القطاعات الاقتصادية استجابة لظروف سـوق العمل وتنتمى هذه العمالة غير الماهرة الى شرائح مختلفة تقل دخولها عادة عن الشرائح التى تعمل بأعمال دائمة فى الوقت الذى تفتقـد فيه للامان المتصـل بالمستقبل وفى الوقت الذى تبرز فى المناطق الحضرية البطالة الصريحة بمعدلات مرتفعة تقل هذه المعـدلات فى المناطق الريفيـة التى تتسم بالبطـالة الموسمية كما أن البيانات الموسمية تعجـز عن أن توضح المعـدلات الفعلية وقت ذروة الانتاج الريفى وابان الركود الموسمى (٢٣) .

٥ — يصنف هانسن ورضوان فقراء الريف الى :

١ — العمال الريفيون المعدمون .

٢ — المزارعون دون الهامشيون .

حيث تنقسم المجموعة الاولى الى :

(أ) **عمـال زراعة اجراء** وتضم عمال التراحيل والعمل ذوى الحركة المحدودة .

(ب) **عمال اجـراء غير زراعيين .**

(جـ) **متعطلون صراحة .**

وقد عرفنا المزارعين « دون الهامشيين » بانهم الذين يملكون فدانا أو أقل ، كما انهم فى حالة عودتهم من الخارج يعملون بالمهن غير الزراعية فى القرية (٢٤) .

ثانيـا : عمال التراحيل فى مصر ابان الثمانينيات :

ابراز لبعض معطيات الدراسة الحقلية (**) :

أجريت هذه الدراسة فى محافظتى البحيرة والشرقية خلال المـدة من ٨٢ — ١٩٨٦ وقد تمت الدراسة الميدانية بشقيها الاستطلاعى والوصفى

على فترات زمنية زمنية متقاطعة خلال المدة من منتصف عام ١٩٨٣ حتى منتصف عام ١٩٨٥ .

ولسنا هنا فى معرض الحديث عن خطة العمل الميدانى والنتائج التفصيلية للدراسة الحقلية اذ أننا سنعرض فحسب لأبرز النتائج التى افرزتها الدراسة الميدانية :

(أ) اتضح من الدراسة الميدانية ان نحو ثلث القوة العاملة فى عينة الدراسة لعمال التراحيل تقع فى فئة السن من ١٠ — ٢٠ سنة ويليها مباشرة فئة السن من ٢٠ — ٤٠ وتصل بدورها الى ربع مفردات العينة ويعنى هذا أن **الترحيلة تجذب شريحة كبيرة فى مرحلتى الفتوة والشباب** سواء من الاحداث الذين يرافقون أسرهم أو الشباب الذين تؤدى حاجتهم المادية لمقدم الاجر الذين يحصلون عليه فى الترحيلة الى ربط مصائرهم بهذا النوع من العمل الموسمى .

(ب) ان الغالبية الساحقة من عمال التراحيل فى عينة الدراسة هم من **الأميين** (٩١٪) ومن المؤسف حقيقة أن يفصح تحليل نتائج الدراسة عن ارتفاع معدل الأمية كذلك فى فئة السن من ١٠ — ٣٠ سنة وهى الفئة الشابة التى تقع فى سن التعليم حيث يصل معدل الامية فيها الى ٩٠٪ (من مجموع هذه الشريحة العمرية) وهذا يعنى استمرار أمية الجيل الاصغر والاكثر شبابا وهكذا تستكمل حلقة الامية ليعاد افراز **العامل الامى .. الصغير السن .. غير المدرب .. ضعيف البنية** الذى يعمل فى الترحيلة برفقة أسرته ثم يستمر فى العمل بالترحيلة بعد أداء الخدمة العسكرية اذا لم تتح له فرصة الهجرة الخارجية او العمل بالقسرية ، وبعبارة أخرى فان **عامل الترحيلة يعكس المواصفات الاجتماعية للفلاح الفقير الذى يتجسد فقره فى تدنى خصائصه الاجتماعية .**

(جـ) من الملاحظ ان نحو ثلاث اخماس العينة المدروسة من **العمال المتزوجين ويليهم العزاب** ثم المطلقين والارامل .

(د) تشكل هذه الشرائح الفقيرة فئات تعانى من الفقر وهم عادة يقنعون بالكفاف ويتقبلون بدورهم الغبن الواقع عليهم كأمر لا مفر منه (٢٥) .

(هـ) ذكر نحو ثلثى افراد العينة المدروسة أن **العمل السابق على**

الترحيلة كان عملا غير دائم ولعــل هذا هو المبرر الحقيقى الذى يكمن خلف العمــل فى الترحيلة التى برغم عدم تواصلها الا أن العــامل كان يظل عادة ولعــدة شهور على ذمة المقــاول الذى يعمل معـــه ، ويؤكد هؤلاء أن المشكلة الرئيسية تكمن فى عدم توفر العمل فى القــرية وقت العمل بالترحيلة وانهم **كانوا يفضلون العمل فى قراهم الاصلية** .

(و) من الملفت للنظر ان نحو ثلثى مجموع أفراد العينة قد **رفضــوا فكرة الهجرة الخارجية للبلدان النفطية** ويبدو أن ظروف هؤلاء العمــال — سواء ظروفهم الصحية أو ارتباطاتهم ومسئولياتهم العائلية — وعجزهم عن توفير نفقات السفر للخارج فضــلا عن انخفاض مستوى طموحهم ، واتجاهاتهم الغيبية — التى ترتكز على ضرورة التسليم بالواقع وتســتبعد احتمال تحسن الاوضاع المعيشية من الاسباب الدافعة لرفض الهجــرة للخارج .

(ز) استطلعت الدراسة راى عامل التراحيل فى امكانة الوصــول الى رئيس أنفــار أو مقــاول فأفاد أقل من ثلث أفراد العينــة المدروسة بصعوبة ذلك اذ ان الحــراك يحتــاج الى الخبرة وتوفر راس المــال (ليتسنى القيام بجمع القوة العاملة والتعــامل مع المؤسسات التى يعمل فى ظلها عمال التراحيل) وبينما بلغ متوسط ساعات العمل ٧ أو ٨ ساعات فى المتوسط فان نسبة ليست قليلة من أفراد العينـــة تعمل ما بين ٩ : ١٢ ساعة يوميــا فى المتوسط دون أن تتنــاول المقابل المــادى نظير هــذا الجهــد وغير خاف أن بذل هــذا الجهد مع ضآلة السعرات الحــرارية التى ينالها العامل تؤدى عادة الى آصابته بالعــديد من الامراض كفقر الدم وسوء التغذية وغيرها ، ومع أن آشتغال رب الاسرة وزوجته بعض أولاده الصغار يؤدى عادة الى وجود مبلغ (مجمــد) كبير نســبيا الا أن الظروف السيئة التى تعيش فى كنفهــا الاسرة والاحباطات العديدة التى يتعرض لها كل يوم تســوقه أحيانا الى تعاطى المكيفات والمخــدرات التى تستنزف مبالغ كبيرة وتحرمه بالتالى من الاستفادة من هذه المبالغ فى تحسين أوضاع أسرته .

(ح) ذكر أكثر من ربع مجموع أفراد العينة أنه سبق مجــازاتهم فى الترحيلة بسبب التأخر فى الوصــول لمحال العمل أو الانقطاع عنـــه ، وغير خاف أن هذا يتم نتيجة لمعاناة الشخص فى الوصول للعمل بسبب ندرة المواصلات أو لمرضه المفاجىء أو لاضطراره الى قضــاء بعض مصالحه الضرورية والحياتية خلال أيام العمل ، غير أن العديد من عمال التراحيل

قد ذكروا بأن الجزاء كان يوقع عليهم نتيجة للخلاف الشخصى مع رئيس الانفار أو نتيجة لتعسف الرؤساء من وجهة نظر العامل ، فهم يحاولون عادة استغلاله بشتى الطرق لأداء بعض الخدمات الشخصية ويتم توقيع الجزاء عليه فى حالة رفضه لهذه السخرة ويذكرنا هذا بما سبق أن ذكره عبد الفضيل من أن قوة مقاولى الانفار تستمد أهميتها من البنية الاقتصادية والاجتماعية للريف المصرى كتجار او ملاك أراضى — فهم من الشرائح البورجوازية فى الريف كما أنهم يقومون باعطاء عمال التراحيل سلفيات على الترحيلة القادمة ولا يوجد وسيلة لسداد هذه الديون الا بالخروج فى ترحيلات مستمرة وهذا يؤدى لزيادة المقدرة الاستغلالية لمقاولى الانفار .

كما أن لمقاولى الانفار شبكات متسعة من العصبيات فى قراهم يستخدمونها عادة لضمان استمرار توريد الانفار فى الترحيلة بصورة مستمرة .

(ط) ذكر نحو نصف مجموع أفراد العينة ان المقاول يتولى عادة تحصيل مبالغ نقدية نظير تشغيلهم مستغلا فى ذلك حاجتهم الماسة للمبلغ الذى يعطى « كمقدم أجر » وحاجتهم الماسة للعمل للقيام بالتزاماتهم الاسرية وعدم وعيهم بحقوقهم نتيجة لأميتهم فهم على سبيل المثال نادرا ما يحصلون على « بدل الغذاء » المقرر لهم من المؤسسة التى يعملون بها كما أن المقاول يقوم عادة بخصم مبالغ أخرى من أجورهم تحت اسم الانتقال لمحال العمل كما أن رؤساء العمال الذين يتولون تنظيم العمال ومراقبتهم وهم قوة عمل تتكون عادة من أقارب المقاول الذين لا يؤدى أى أعمال تذكر بينما يحصلون على اجورهم غير منقوصة مثلهم كمثل باقى عمال الترحيلة .

وفى بعض الاحيان يقوم المقاول بقيد العامل على ذمة المؤسسة ويتولى تشغيله بالفعل فى عملية أخرى ويحصل على أجره فى العملية الاخيرة ، ومن الغريب أن المحافظات التى تتولى فى الوقت الحاضر تشغيل عمال التراحيل قد أسهمت فى زيادة الاستغلال المفروض عليهم من قبل الاجهزة الادارية الاخيرة فيها اذ مارست هذه الاجهزة الطرق والاساليب نفسها التى يتبعها المقاول التقليدى فألبستها رداء الشرعية وقننتها فباتت هذه السخرة تمارس بصورة أشد قسوة وأكثر تنظيما (٢٧).

+++

ثالثـا : السياسة الاجتماعية تجاه عمال التراحيل :

ليس هناك شك فى أن نظام الترحيلة يعـد امتدادا لنظام السخرة الامر الذى دعا أوبريان الى القول بأن عمال الزراعة (عمال التراحيـل) ظلوا طيلة القرن العشرين غير احرار فى اختيار نوع العمل أو حتى الاماكن التى يعملون بها وقد أفصحت نتائج الدراسة الميدانية عن أن معسـكرات الترحيلة تكـاد تخلو من أبسط المرافق التى تشبع الاحتياجات الاسـاسية لعمال التراحيل ، فقد اتضح من هذه النتائج على سبيل المثال أن ١٨٪ من العمال يقضون حاجتهم الطبيعية خارج المعسكرات السكنية نظرا للازدحام الملحوظ على دورات المياه الموجودة بينما اتضح أن الزوج والزوجة وأولادهما نادرا ما يحظيان بحجـرة مستقلة غير أنهم قد يناموا فى عنابر متسـعة لا يفصل بين الاسرة الواحـدة وغيرها من الاسر سوى ساتر بسـيط من القماش ولنـا أن نتصور مدى الحـرج والحساسية والخطورة المترتبـة على حشد الازواج والزوجات وأولادهم وبناتهم معـا فضلا عن التصـاق أجساد الذكور والاناث الذين حضروا بمفردهم للعمـل فى الترحيلة دون مصاحبة أسرهم مما يؤدى لمشاكل وعلاقات شاذة ، وقد أبدى العمـال تذمرهم لغيـاب الرعاية الصحية اذ يضـطر العمال عادة الى اللجـوء للمستشفيات العـامة القريبة منهم فى حالة تعرضهم للمرض أو للحوادث وفى الوقت الذى **تنعدم فيه الرعاية التعليمية والترفيهيـة وتسـوء المرافق الخاصة بالمواصلات والتغذية** يحصل العمال بالكاد على الحـد الادنى من المساعدة فى حالة تعرضهم للازمات والكوارث ، وعادة ما تأتى هـذه المساعدات من جيوب الاهل والبلديات وفى حالة التعـرض لحوادث العمل أو الوفاة يأتى القـدر الاكبر من المساعدة نتيجة لتكاتف العمال ووقوفهم الى جـانب الضـحية ومساعدتهم المتبـادلة أكثر منها لقيـام المقاول أو المؤسسـات التى يعملون بها بتقديم المعـونة المـادية كنتيجة لغيـاب النشاط النقابى بمعنـاه الفعلى *** بالنسبة لهذه الشرائح العـاملة مما يفقدها فاعلية الدفاع الشرعى عن حقوقها .

وقد قرر ٨٧٪ من مجموع أفراد العينة **غياب خدمة التامينات والمعاشات** التى يمكن الانتفاع منها فى حالة الوفاة والعجز والشيخوخة وهـذا يعنى بدوره أن العامل حين يعجـز عن بيع قوة عمله يضحى عاجزا عن كفاية نفسه واشباع حاجاته الشخصية وحاجات أسرته ، وقد القى العمـال باللائمة على الدولة وعلى المقـاول والشركات والمؤسسات التى يعملون فى ظلها وذكروا بأن على هذه الهيئات يقع عبء تحسين الاوضاع .

ويعتقد البعض أن عام ١٩٦٤ قد شـــهد المرحلة الثورية الجـــديدة بالنسبة لعمال التراحيل بصـــدور قانون النقابات رقم ٦٢ الذى شـــجع على نشر اللجان النقابية فى القرى المصرية .

قد اكتسبت هذه الثورة دفعـــة قوية بفضل اهتمام الرئيس الراحل عبد الناصر بقضية عمـــال التراحيل عام ١٩٦٥ وانعكس ذلك فى اهتمام الاتحـــاد الاشتراكى بهم من خـــلال المؤتمر التعـــاونى الاول للفـــلاحين سنة ١٩٦٦ (٢٨) .

وفى عام ١٩٧٦ أنشأت الدولة جهـــازا يسمى « **جهاز رعاية وتشغيل العمال الموسميين** » يتبع وزير الدولة للحكم المحلى لوضع الســـياسة العـــامة لرعاية هؤلاء العمال وتنظيم ساعات عملهم وأجورهم وأجازاتهم وحمايتهم من الاستغلال من خلال تكوين لجنة استشارية عليا على ان تتولى اللجـــان الفرعية الموفدة والمستقلة للعمال الموسميين بالمحافظات تنفيـــذ قراراتها فى المراكز والقرى التابعة لكل محافظة .

وفى عام ١٩٨١ صـــدر القرار الجمهورى رقم ٢٦٥ الذى قام بالغاء جهـــاز تشغيل العمال الموسميين وعمل اللجنة الاستشارية ، وقد تولى وزير القـــوى العاملة والتدريب بمقتضى هـــذا القانون مع وكلاء الوزارات حل مشكلات ومخالفات تشـــغيل العمـــالة الموسمية وعمـــال التراحيل ، وقد ثار الصراع بين وزارات الحكم المحلى والقـــوى العـــاملة على رسم الســـياسة الاجتماعية فى مجـــال عمال التراحيل بينما أسفرت التجارب المختلفة لاشراف المحـــافظات على تشـــــغيل عمال التراحيل عن زيادة استغلال مكاتب رعايه عمال الزراعة والتراحيل فى المحافظات بل والى دعم الاســـتغلال وتقنينـــه اذ حصلت المحافظات بموجب هذه المهمـــة على عمولات كبيرة نظير تشغيل عمـــال التراحيل واستخدمت هذه العمولات فى شراء العربات الفاخرة واجهزة التكييف لكبار (الموظفين) فضـــلا عن المبالغ الكبيرة التى كانت تدخل بصورة غير رسمية جيوب الاشـــخاص الذين يتولون تشغيلهم *** * .

وقد صدر القرار الوزارى رقم ١٠٥ لسنة ١٩٨٥ الذى رخص لنقابة عمال الزراعة بانشاء مكاتب تشغيل لعمال التراحيل تتبع النقـــابة العامة واذا كان أجر عمال التراحيل قد ارتفع فى الآونة الاخيـــرة وازداد الاهتمام بالبرامج الخاصة بمحو أمية العمال وتدريبهم المهنى كنتيجة لنقص اليـــد العاملة فى مجال التراحيل لازدياد تيـــار الهجرة الخارجية للبلدان النفطية ، وانضمام الشباب المتعـــلم الى قطيع عمال التراحيل بصحبة أسرهم خلال شـــهور الصيف والعطلات الدراسية (وازدياد وعى هؤلاء بالاســـتغلال

الذى يقع على العمال من جانب الشرائح العليا والطفيلية والمؤسسات الاستشارية فى الريف) والامر الذى لا شك فيه كذلك ان عمال التراحيل ما زالوا يمثلون **التجسيد الحقيقى للاستغلال والظلم** الذى تتعرض له هذه الشرائح بصورة مستمرة حتى الآن .

وقد قام الانثروبولوجى توث باجراء دراسة حديثة عن عمال التراحيل فى منطقة **مريوط** سنة ١٩٨١ وأوصى فيها بضرورة زيادة أجور عمال التراحيل ، والتركيز على اقامة المشروعات فى القرية التى يأتى منها العمال ، والاهتمام بالتعليم الالزامى ، وتدريب القوة العاملة الريفية ابان تجنيدهم لتحسين قدراتهم المهنية فضلا عن ضرورة القيام بدراسات حقلية لتوضيح الجوانب المختلفة للظاهرة .

« المصـــــــادر »

١ — K. post. peasantization in west Africa (In) P.C.W. Gutkind, p. waterman (Eds) African social studies. London. 1981. pp. 241 : 250.

٢ — د.ه تاونى — المجتمع المستغل — ترجمة أمين أبراهيم . مراجعـــة د.محمد أنيس — اللقاهرة ١٩٦٢ — ص ٤٧ : ٥٧ .

٣ — ديفيـــد جيرى — الثورة الريفية — فى محمد الجوهرى وآخرون — الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث — ١٩٨٢— ص١٩١ : ص ٢٠٠ .

٤ — المصدر نفسه — المكان نفسه .

٥ — عطية الصيرفى — عمال التراحيل — القاهرة — ١٩٧٥ — الفصل الاول .

٦ — محمود عوده — الفلاحون والدولة — القاهرة — ١٩٧٩ — اللفصل الخامس والسادس .

٧ — رقيـــة مرشدى — مجتمع عمال التراحيل — الاسكندرية ١٩٨٠ — ص ٧ : ص ١٥ .

٨ — المصدر نفسه ص ١٥ : ص ٢٠ .

٩ — عبد الباسط عبد المعطى — الصراع الطبقى فى القرية المصرية — القاهرة ١٩٧٧ — ص ٢٨ : ٥٥ .

١٠— عبد الرحيم عبد الرحمن — الريف المصرى فى القرن الثامن عشر — القاهرة ١٩٧٤ — ص ٢٧ — ص ١٤٨ .

١١— محمود عوده — المصدر السابق ذكره ص ١١٥ .

١٢— محمود عوده — المصدر السابق ذكره ص ١٠١ : ص ١١١ .

١٣— الاب عيروط — الفلاحون — القاهرة — ١٩٦٨ — ص ٦٠ : ٦٦ .

١٤— محمود عوده — المصدر السابق — ص ٤٨ : ص ١٥٨ .

١٥— باتريك أوبريان — ثورة النظـام الاقتصـادى فى مصر — تعريب خيرى حماد — القاهرة ١٩٦٨ — ص ٥٨ ، ص ٥٦ .

١٦— فتحى عبد الفتــاح — القرية المعاصرة — القاهرة — ١٩٧٥ — ص ٢٤٥ : ص ٢٤٧ .

١٧— محمد عاطف غيث — دراسـات فى علم الاجتمــاع القــروى — دار المعارف ١٩٦٨ — ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٣٩ .

١٨— فتحى عبد الفتاح — المصدر السابق — المكان نفسه .

١٩— محمود عبد الفضيل — التحولات ألاقتصادية والاجتماعية فى الريف المصرى — القاهرة ١٩٧٨ — ص ٨٠ : ص ٩٠ .

٢٠— المصدر نفسه — المكان نفسه .

٢١— عطية الصيرفى — مصدر سابق — ص ٣٦ : ص ٧٩ .

٢٢— بنت هانسن وسمير رضوأن — العمل والعدل الاجتماعى — القاهرة ١٩٨٣ — ص ٦٧ : ص ٧٤ .

٢٣— المصدر السابق — ص ٢١١ : ص ٢١٩ .

٢٤— المصدر نفسه — المكان السابق .

٢٥— محمد الجوهرى — المدخل الى علم الاجتماع — القاهرة ١٩٨٤ — ص ٤٨٥ : ٢٩٥ .

٢٦— محمود عبد الفضيل — المصدر السابق — المكان نفسه .

٢٧ــ محمود عوده ــ الفلاحون والدولة ــ المصدر السابق ــ ص ١٨٤ :
ص ١٨٥ ص ١٦٥ .

٢٨ــ درأسات فى علم الاجتماع الريفى ــ ص ١٦٥ .

٢٩ــ حسن معاذ رميح ــ عمال التراحيل ــ المشكلة والحل ــ مجلة الطليعة ــ يناير ١٩٧٢ .

٣٠ــ Tooth. J. Tarahil workers in the Egyptian Delta. Amer. Center, in Egypt. 1981.

(*) عن ورقة قدمها الباحث فى ندوة « الفلاحون والتغير الاجتماعى فى العالم العربى التى نظمها مركز بحوث الشرق الاوسط التابع لجامعة عين شمس عن عمال التراحيل سنة ١٩٨٦ » .

(**) يتقدم الباحث بالشكر للاستاذ الدكتور عادل عازر رئيس وحدة السياسة الاجتماعية والقانون بالمركز القومى للبحوث حيث اسند سيادته له مهمة قيادة فريق العمل الميدانى وكتابة التقرير النهائى .

(***) حتى سنة ١٩٥٩ لم تضم نقابة عمال التراحيل سوى مجموعة قرى محدودة .

(****) اذا أصبح المحافظ وحاشيته يشكلون الجهاز الرسمى لاستغلال هذه الشريحة .

الفصـــل الخامس

((الانثروبولوجيـا الحضرية))

يمكننا أن نعرف الانثروبولوجيا الحضرية بأنها استخدام المنـاهج والادوات الانثروبولوجية فى دراسة المدينـة مع الاستفادة هنا من معطيات الدراسة الحقلية وباسـتطاعتنا ان نرجع الكتابات الاولى عن الحيـاة الحضرية والتنظيم الاجتماعى الحضرى **للعلماء والرحالة العرب امثـال ابن حوقل وابن خردزابة وياقوت الحموى** بينما قدم **ابن خلدون** وصـفا مستفيضا للحيـاة فى المدن غير ان التاريخ الفعلى للدراسات الانثروبولوجية الحضـارية يعود فى واقع الامر الى تسعينيات القرن الماضى حين شاركت الجمعية الانثروبولوجية للمرأة فى واشنطن فى دراسة عن الاسكان المحلى فى المدينة (١) ويؤرخ **كمبر** Kemper و **فوستر** Foster (٢) للانثروبولوجيا الحضرية بظهور **مدرسة شيكاغو** خلال الحرب العـالمية الاولى حيث يدين **الاتجاه ((الايكولوجى))** Ecology برمته الى جهـود العالم الامريكى **بارك** R. Park بمقالة عن المدينـة سنة ١٩١٥ والذى تاثر فيه بنظرية دارون وفى ضـوء هذا الاتجاه اعتبرت البيئـة بمثابة الوحدة الضوية او الطبيعية الملائمة لحياة الانسـان اذ يشير مفهـوم **السيطرة** Dominance من وجهة النظر الايكولوجية الى نمط النشـاط السائد فى المنطقـة فالصناعة على سبيل المثال تؤثر فى البيئة المحيطة ، وفى نمط استخدام الارض ، وفى تحديد نوعية الطبقات التى تتولى جذبها الى المنطقة ، وقد تعددت النظـريات التى تصدت لدراسة المدينة فى ضوء هذا الاتجاه فقـدم اولمـان Ulman و هاريس Harris نظرية تعدد النوايات Multiple Nuclear حيث اعتبرت المدينة منقسمة الى عدة مناطق وتعد كل منطقة نواة للنشاط السائد .

وقدم هويت Hoyt **نظرية القطـاع** sector على اعتبار أن المدينة تتكون من عدة قطاعات ولكل قطاع خصائصه الايكولوجية ، كما تعـددت الاسهامات التى قدمها مكينزى Mckenzi ، و زورباخ Zorbaugh ، **بويرمان** Bowerman ، وغيرهم من علماء الاجتماع الامريكى الذين ساهموا فى ارساء هذا الرائد المرتبط بالمدرسة الايكولوجية (٣) (*) .

وقد تعرضت هذه المدرسة للعديد من أوجه النقد التى تتلخص فى تجاهلها للعوامل الثقافية كما ينسلخ عليها ما يوجه للنظريات « **الحتمية** » من أوجه النقد .

وقد اهتم بارك Park وويرث Wirth على وجهة الخصوص بظاهرة تقسيم العمل ، وتشتت الادوار الاجتماعية فى المدينة باعتبارها من الظواهر الحضرية الهامة التى تهيمن على شكل العلاقات الاقتصادية الحضرية وتتحكم فى توزيع المهن وفى النسق السياسى الحضرى (٤) .

كما أبرز ويرث — داخل المدينة — الفصل الواضح بين محل السكن والعمل (٥) ويذكر جوبرج Sjoberg فى معرض حديثه عن الموجهات النظرية التى تصدت لتفسير الظاهرة الحضرية أن ويرث Wirth ، وردفيلد Redfield يتفقان فى شمول الظاهرة الحضرية للعلمانية والعلاقة بالجماعات الثانوية ، والعضوية بالجمعيات الاختيارية ، وتزايد انقسام الادوار ، وغموض المعايير الاجتماعية (٦) .

ويذكر بيلز Beals وهويجر Hoiger (٧) أن أقدم الدراسات الحضرية التى قدمها علماء الانثروبولوجيا قد تمت فى افريقيا ومنها الدراسة التى قدمها البعض لاختيار نظرية ردفيلد المتضمنة ثنائية المجتمع الحضرى — الشعبى .

وقد أبدى بعض علماء الانثروبولوجيا اهتماما بالمشكلات الحضرية فى مدن غرب وشرق أفريقيا وأنصب اهتمامهم على آثار الهجرة الى المناجم والمدن . أماا لدراسات الحضرية التى أجراها علماء الانثروبولوجيا فى أمريكا االاتينية فهى حديثة العهد نسبيا وتركز الاهتمام فيها على دراسة الاحياء الفقيرةأو احياء « الجيتو » ، كما أنصب اهتمام هؤلاء الباحثين على الاتحادات والهيئات الى جانب الاهتمامكذلك ببعض عناصر عملية التحضر وتكيف المهاجرين لظروف الحياة فى المدينة ، وقد حاول بعض علماء الانثروبولوجيا الحضرية استخدام فكرة (النموذج) وهى فكرة ترجع بأصولها للمناخ « الثقافى » الذى ساد خلال القرن التاسع عشر ويرى البعض امثال **مكجى** Mcgee (٨) أنه برغم أوجه النقد العديدة التى وجهت لفكرة النموذج الا انه لا زال يمثل اطارا لا غنى عنه لدراسة الحركة من المجال الريفى للحضرى كما يساعد على تتبع الآثار الحضرية فى المناطق الريفية . وقد حاول البعض تلافى أوجه النقد التى وجهت

للثنائيات بوضع فكرة **المتصـــل** Continuum ومن هؤلاء روبرت ردفيلد الذى صاغ نموذج **المجتمع الشعبى** « الفولك » فى مقـــابل **المجتمـــع الحضرى** كما حاول أثبات فرضيته بدراسة ٤ مجتمعات محلية تتدرج من « القبلية » للحضرية (٩) .

غير أن الكثير من الدراسات الحضرية قد اخفقت فى النظر للمدينة — وعلى الاخص المدينة الكبيرة — **كوحدة بنائية أو ثقافية « كليـــة »** فقاموا بدراسة مشاكل معينة داخل المدينة كالقرابة (بحسب ما فطروا على ذلك فى المجتمعات التقليدية التى كانوا يدرسونها) وهكذا طرحوا قضـــية اداء نظام القرابة — أو اى ظاهرة اخرى — لوظيفته فى المدينة بدلا من التساؤل عن **أثر الحياة الحضرية** على القرابة (١٠) بعبـــارة اخـــرى فان دراستهم كانت للقرابة لا للحياة الحضرية بينما تكمن مساهمة الانثروبولوجيا الحضرية فى تسليمها بأن السمات الاساسية لأى وحدة او بنـــاء آجتماعيا ليست وليدة العوامل الداخلية وحدها بل ان العوامل الاساسية لأى وحدة تتمثل فى الظروف الخارجية ايضا التى تنمو فى ظلها تلك الوحدة أو هـــذا البناء ولا يجـــوز فى هذه الحالة أن ندرس المجتمعات المحلية الصـــــغيرة كما لو كانت وحدات مستقلة أو قائمة بذاتها بل كأجـــزاء من مجتمعات اكبر .

وتستخدم الانثروبولوجيا الحضرية **الدراسة المقارنة** وبخاصـــة بين العـــديد من النماذج الريفية والحضرية ، ومن المحاولات الاولى فى هـــذا المجال دراسة المدن فى منطقة الاوقيانوسية التى اشرف عليهـــا الكسندر شبور وخلص منها الى أن هذه المدن تمثل نوعا من « الحضرية » التابعـــة « للادارة الاستعمارية والاغراض التجارية » (١١) .

كما يستلزم استخدام **النظرة الكلية** Holistic فى ميدان الانثروبولوجيا الحضرية كذلك تطبيق العـــديد من الاساليب وادوات جمع البيـــانات كالمقابلات بالمشاركة مع الاستفادة بالبعـــد المجتمعى **الضـــيق** Micro **والواســـــع** Macro ويتسم البعـــد الاول بدراسة الظواهر الاجتماعية فى منطقة حضرية بعينها والثانى بالتركيز على العـــلاقة بين المنطقـــة الحضرية والمجتمع القومى الذى يضمها ، ومن أبرز ممثلى الاتجـــاه الاول سوثال ، ميتشيل ، ووتس ، اما الثانى فيعد ليدز Leeds من أتباعه (١١).

ويذكر جلوك Gluick ان هنـــــاك ثلاث استراتيجيات للدراســـة الانثروبولوجية الحضرية :

(أ) الاستعانة **بالطرق الانثروبولوجية التقليدية** مع مراعاة العلاقة بين المنطقة الحضرية والبيئة الكلية .

(ب) الدراسة **النظامية** للمدينة .

(جـ) المنظور « **العالمى** » المتسع بقصد « التحليل المقارن » مع اخذ العلاقات الريفية الحضرية فى الاعتبار (١٢) .

كما يؤكد اولين Olien ان هناك اربعة ابعاد لدراسة البيئة الحضرية وهى العلاقات الداخلية فى المجتمع المحلى ، والعلاقات الريفية الحضرية ثم العلاقات الحضرية القومية واخيرا العلاقات الحضرية الدولية (١٢) .

وحقيقة الامر ان مجال الدراسات المقارنة قد ازداد اتساعا فى ميدان الانثروبولوجيا الحضرية مع ازدياد آلاختلاف بين البنيات فى مجتمعات مختلفة وقد برع فى هذا المجال ليدز Leeds و ايكين ,Aiken وغيرهما من علماء الانثروبولوجيا (١٤) .

وقد استحوذت الدراسات الانثروبولوجية الحضرية اخيرآ على اهتمام الباحثين الذين ينتمون الى الولايات المتحدة وغيرها من بلدان العالم الغربى والكتلة الشرقية فضلا عمن ينتمون الى بلدان العالم الثالث ايضا .

ويرجع الفضل حقيقة الى وارنر Warner عالم الانثروبولوجيا الامريكى — الذى تتلمذ على كل من روبرت لوى ورادكليف براون — فى فى استخدام المدخل الانثروبولوجى لدراسة مدينة امريكية Yankee City حيث استخدم الباحث الملاحظة بالمشاركة والمقابلات المتعمقة استخداما فعالا كما حاول تفسير الحياة الاجتماعية بالرجوع الى البناء الاجتماعى وانتهى الى تحديد ثلاث طبقات رئيسية تتالف كل منها من شريحة عليا واخرى دنيا لتفسير الاوضاع الاجتماعية فى المجتمع المحلى . **

ولقد أصاب رزمان Reissman (١٥) حقيقة حين قرر انه (حتى نهاية الستينيات) لا توجد نظرية واحدة تصلح لتفسير التحضر او تقديم نظرية حضرية فنحن لا نعرف بعد الديناميات التى تصاحب حراك المجتمع من حالة الى اخرى ، وحين يلفت رزمان (١٦) النظر لاهمية دراسة المدينة الصناعية فانه يقرر بأن التحضر لا يعنى التحول الذى يتعرض له المجتمع

الريفى أو الشعبىفحسب بل يتضمن كذلك التغير المستمر للمدينة الصناعية نفسها فالتحضر لا يقف عند مرحلة بعينها بل ان المدينة نفسها تتغير بصورة مضطردة ، ولعل ابسط الاسباب التى ادت الى القصور فى تحليل المجتمعات الصناعية يرجع الى اعتقاد البعض بأن **النموذج الغربى** هو النموذج (الوحيد) أو هو اكثر الانماط ملاءمة وعلى البلدان المتخلفة أن تجاهد للوصول اليه ، فقد تأثر ويرث وردفيلد بنمط المدينة الامريكية فبالغوا فى التركيز على الانقسام فى الحياة الحضرية واختلال التنظيم فيها (*) أما الذن اهتموا بتفسير التنظيم الاجتماعى الحضرى فى ضوء نسق القيم أو استعانوا بالمتغير التكنولوجى فى تفسير التحضر فقد فاتهم أن المحليات تختلف فى درجة تأثرها بالتصنيع والحضرية (١٧) بل ان بلدان العالم الثالث تحتاج الى وقفة خاصة فى ضوء ظروفها المرتبطة بالتصنيع والتحضر (١٨) فالتحضر ليس مجرد كثافة سكانية مرتبطة بالموقع الجغرافى فحسب بل هو **ظاهرة متعددة الابعاد ايكولوجية وسكانية واقتصادية** (فهو ظاهرة اجتماعية فى المحل الاول) وهو يتصل بالتغير فى العلاقات الريفية الحضرية التى لا تتخذ صورة العلاقة القطبية (قطبين فى متصل واحد) بل تأخذ صورة العلاقة البنائية (قطاعين فى وحدة بنائية واحدة) حيث يعسر علينا أن ندرك ما يحدث فى أحدهما دون أن ندرس ما يلازمه من مظاهر الاتفاق والصراع فى الآخر فالتحضر يعنى فى واقع الامر **التحولات** فى المجتمعات المحلية والتى تحدث فى مجال العلاقات الحضرية الريفية والتى تحدث فى الانساق البنائية للمجتمع ككل ونعنى به التحول المستمر فى شبكة العلاقات الاجتماعية والنظم الاجتماعية التى نعيش فى ظلها فى المناطق الحضرية .

وتهتم الانثروبولوجيا الحضرية بخلق نظرية تصلح لتحليل البناء الحضرى مع الانتفاع بالاتجاه المقارن والنظرية الشمولية انتفاعا كاملا ، فقد أدان علماء الانثروبولوجيا علماء الاجتماع الحضرى على أساس انهم وقعوا فى خطأ مشترك وهو دراسة المدن فى عزلة كاملة دون أن يدركوا بما فيه الكفاية أنها تمثل أجزاء داخل أنساق أكبر ، والواقع انه لا وجود للفلاحين دون مدن . بل ان هناك شرطا اساسيا للحضرية يتمثل فى تطور أساليب انتاج الطعام وعلى ذلك فان المجتمعات المحلية الزراعية تعد الشرط الاساسى لقيام واستمرار الحياة الحضرية ، ويعتقد هويجروبيلز (١٩) أن الثقافة الحضرية الصناعية ستنتشر على نحو حتمى فى المناطق الريفية اذ يستعين المجتمع الريفى بأعضاء من خارج المجتمع المحلى لادارة شئونه ، ولذا تعد الكثير من نظمه شواهد محلية على النظم القومية غير ان المجتمعات المحلية فى خضوعها لمقتضيات التصنيع والتحضر

تتفـــاوت فى اســـتجابتها بين الترحيب والرفض لهـــذه المتغـــيرات « المجتمعية » .

وهكذا يتضمن التحضر **الظواهر المصاحبة لنشأة المحليات الجـــديدة او نموها من ناحية والتى تواكب حراك السكان للمناطق القائمة بالفعـــل وتركزهم بها من ناحية اخرى** ، الامر الذى يؤدى الى ازدياد الاهتمـــام بتوفير مصادر العمل غير الزراعى .

كما أن ثمة تغـــيرات تلحق الشبكة الكلية للعـــلاقات الاجتماعية Total Network of social relations نتيجة لذلك اذ تزداد مشاركة الانســـاق المحلية فى الانســـاق الكبرى (خارج المجتمع المحلى) وبدلا من سيطرة العصبية والعـــلاقات آلقرابية يزداد الاهتمام بالتعـــامل داخـــل **منظمات كبرى** خارج حدود الجماعات القـــرابية ويزداد التنوع فى أوجه النشـاط الاقتصادى مع الاهتمام بالمشاركة فى المنظمات والجمعيات والهيئات الرسمية وازدياد مشاركة ألنســـاء فى قوة العمـــــل (غير آلزراعيـــة) كما تزداد أهمية النواحى المكتسبة ـــ كالتعليم ـــ فى المجتمع المحلى .

ويؤكد مكجى (٢٠) أن مدن العالم الثالث تعكس مشكلات العـــــالم الثالث نفسه بصفة عامة .

ويعتقد جوبرج (٢١) أن النمـــو المستمر للمدينـــة يمتص الكثـــير من سكان القرية آلقريبة التى تدخل بدورها فى « زمام آلمدينـــة » وبزيادة التصنيع يزداد الاعتماد المتبادل بين المدينة والقـــرية مما يؤدى الى تغيير النمط التقليدى للســـوق ، والبناء الاجتماعى التقليدى برمته وبخاصـــــة **بنـــاء القـــوة** Power structure ويبرز جوبرج الدور الذى تلبـــــه وسائل آلنقل والمواصلات فى التوحيـــد بين القروى والبنـــــاء السياسى والقومى فى هذه المحتمعات ، والى الدور الايجابى للمتعلمين والصـــفوة المحلية (التى قد تتمسك بالانماط الحضرية الصناعية الجـــديدة أكثر من تبنيها للانماط التقليدية لضمان استمرار وجودها) ومن بين الملامح الهامة التى واكبت ازدياد كثافة سكان المدن فى العالم الثالث وبخاصة بعد الحرب الثانية ، **نقص معدل الوفيات** (خاصة وفيات الاطفال الرضع) **وازدياد معدل المواليـــد** والزيادة الطبيعية ، **واتساع حجم المناطق (الحضرية) وغلبة النمـــو الحضرى** نتيجة لازدياد معدلات الهجرة الريفية ودخـــــول الصناعة الى المدن ، وزيادة معدل الدخل غير أن هناك بعض الملامح النوعية التى تميز بعض هذه البلدان بصفة خاصة ، ففى بعضها كما فى الفلبـــين وكمبوديا تزداد هجرة الاناث للتعليم والعمل فى المدن . بل ان **عوامل الطرد**

تعمــل بفاعلية — اكبر — فى جنــوب شرق آسيا نتيجة لضغط السكان (فى تلك المناطق) الامر الذى يدفع السكان بدورهم للهجــره للمدن (٢٢) وهكذا تشارك الطبقات الدنيا فى الريف والحضر عادة بما يمكن أن يسمى **بثقافة الفقر** .

ويذكر Hauser (٢٣) أن آسيا تتولى كذلك جذب السكان من المناطق الريفية وان السكان ينتقلون بدورهم من الاقتصاد الزراعى الى الانتــاج الصناعى الحديث حيث يزداد الاتصــال بالسوق (العــالمى) فالتحضر فى الدول النامية قد أصبح الآن اكثر قوة عن مثيله فى الغــرب (المبــكر) بل ان هناك الكثير من التحولات فى العــــلاقة الريفية والحضرية فى هذه البلدان نتيجة للتقدم التكنولوجى ، كما أن التحــول من الاقتصاد الريفى الى الاقتصاد الحضرى بها يعنى بدوره التحــول من اقتصاد (الاعاشــة) الى الاقتصاد (النقــدى) الامر الذى يسهل عملية توجيه المدخرات وتغيير انماط الاستهلاك ، بيد أن أبرز نتائج التضخم الحضرى فى العالم الثالث يكمن فى ظهور المناطق « المختلفة » وازدياد الكثافة السكانية بها .

ويتبر ليتل Little من **اهتموا بالجمعيات الاختيارية** — لاختيــــار بعض الفــروض عن التحضر فى افريقيــا — بينما تركز اهتمام البعض امثــــال Mitchell بشبكة **العلاقات الاجتمـاعية** وبينما حاول جتكاند Gutkind أن يدرس المناطق الحضرية فى ضوء بعض المحددات كوضع القــوة العاملة والآثار الاقتصادية والسياسية لوجودها (كالحراك المهنى، والتخصص وفرص العمــل المتوافرة والجمعيــــات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية وتيار الهجرة الريفية الحضرية واقتصاد الســـوق) فان Mcgee قد توصل الى أن معظم نتائج الدراسات تتفق مع فكرة **التحضر الزائد** Over urbanization اذ أن بعض بلدان العــالم الثالث قد خلقت بدورها ظروفا بالغة الصــعوبة فى وجه التحضر ولا تقتصر هذه الظروف على مجــرد التكالب على فرص العمل الموجودة فى المناطق الحضرية ، بل فى قصور الخدمات تماما عن اشباع حاجات الســـكان مما يؤدى الى استنزافها وهى الحقيقة نفسها التى يؤكدها يورودى V. Urouidi حين يذكر أن نمــو المدن فى العالم الثالث (وعلى الاخص فى أمريكا اللاتينيــــة) يصاحبه عادة **عدم كفاية الانتاج الزراعى والخدمات** من ناحيــة بينما يزداد الاهتمام **بالانتاج الصناعى** (لهذه البلدان) من ناحية أخرى غير أن هــذه العوامل مجتمعة لا تؤدى الى ازدياد المشاكل الاقتصادية ، وازدياد الضغط على النسق المهنى الموجود ونقص الاجــور فحسب ، بل تؤدى كذلك الى استمرار تخلف هذه المجتمعات بصفة عامة عن مثيلتها فى العالم الغــربى المتقدم صناعيا (٢٤) .

ويتفق بريز G. Breese مع شيشو Chesheaux (٢٥) فى أن المدن الآسيوية كانت مرتبطة بالامبراطوريات الزراعية الكبيرة ولكنهـا ما لبثت أن اكتسبت تدريجيا المزيد من سمات المدن الغربية ، وبينما أقتصر التحضر فى غرب افريقيا على المناطق الساحلية وحدها فان أمريكا اللاتينية قد حرصت على أن تخطو خطوات سريعة من المرحلة الزراعية القـروية (الكثيفة السكان) الى مرحلة التصنيع الحديث ، وفى بعض البلاد الافريقية كانت المدن بمثابة مراكز وقواعد للاستعمار الغـربى وبانتهاء مرحـلة الاستمار تحولت هذه المدن الى مراكز هامة تتركز فيها القـوى السياسية واقتصادية التى تدير دفة الدولة ، ومن ثمة صارت هذه المدن اداة أساسية للتغير الاجتماعى (٢٦) .

ومن بين التصنيفات الهامة للمناطق الحضرية ما قام به بيرين Pirenne لتصنيف المناطق الحضرية فى العالم الثالث الى مجموعتين رئيسيتين :

(أ) المراكز السياسية والحضارية (مثل دلهى وكيتو) .

(ب) المراكز الاقتصادية (مثل بومباى) .

بينما انصب اهتمـام هزليتز على ما أطلق عليـه **المدن المنتجـة** Generative **والطفيلية** ووضع ردفيـلد وسنجر تصنيفا آخـر للمدن فى هذه البلدان (الاقل تقـدما من الناحية الصناعية) على أساس انهـا اما «**محافظة**» أو «**مجـددة**» والاولى هى التى (تحافظ على الحضارة التقليدية وتنقلها بطريقة منظمة) ، أما الاخرى فانها (تخلق) أسـاليب فكرية أصلية جديدة غير ان المدينة قد تضطلع بالمحافظة والتجـديد معا ، كما قدم هاوسر Hauser تصنيفا للمدن الى **قبل صـناعية وصـناعية ومتروبوليتانية** ، ويرى بريز (٢٧) أنه يصعب تنميط وتصنيف مجتمعـات العالم الثالث بحسب تحضرها نظرا لتباين واختلاف الظوآهر الموجـودة فى هذه المجتمعات * واختلاف بنياتها الاجتماعية .

وقد اتضح من الدراسـات الانثروبولوجية التى أجريت حديثـا وتناولت التصنيع والتحضر فى آسـيا أنه حيثما دخـل التصنيع تغيرت الخصائص ألفيزيقية للمجتمعات المحلية الصغيرة وبالرغم من هـذا فان قارة آسيا تستحوذ على أكبر مجموعة من المدن الكبيرة (ألتى يزيد عدد سكانها عن مجموع مدن أوربا وأمريكا الشمالية مجتمعـة) غير أنهـا تعد أقل القارات تحضرا اذا استثنينا قارة افريقيا (٢٨) .

وقد قام سوفانى Sovani باختبـــار نظرية دافيز L. Davis (٢٩) عن **التحضر والتحضر الزائد** واكتشف عدم دقة الفروض التى شـــيد عليها دافيز نظريته ، واستنتج أن العـــلاقة بين التصنيع والتحضر فى دول العالم الثالث ليست وثيقـــة كما هو الحال فى الدول الاكثر تقدما (صـــــناعيا) ولكن دافيز وسوفانى فشـــلا فى أن يأخذا فى الاعتبار مدى أنتشار الصناعة وطبيعتها وعلاقتها بالزراعة فى بلدان العالم الثالث .

ويختلف نمط **التصنيع والتحضر** فى العـــــالم الثالث عنه فى البلدان الغربية التى سبقتها فى هذا المضمار نتيجة للظروف ألاجتماعية والاقتصادية والسياسية — التى تعيش فى ظلها هذه المجتمعات فقد عانت كثـــيرا من تبعيتها للدول الاستعمارية وما زالت تعانى من هذه التبعية الاقتصـــادية والثقافية والتى تأخذ صورة الاتفاقات والقروض والتبعية ألمالية والخضوع لراس المال الاجنبى مما يؤدى الى جمود النمو الاقتصادى بها (ويشـــــذ عن ذلك بالضرورة الدول المصدرة للبترول) .

كما أن ارتباط بلدان العالم الثالث **بالسوق العالمى** يجعـــل هـــذه البلدان تتأثر بدورها بالاختناقات التى تتعرض لها البلدآن المتقدمة والتقلبات الاقتصادية والتذبذب الذى يرتبط بدوره بتغير الاحوال الاقتصـــــــادية والسياسية بصورة مطردة (كما حدث ابان الازمة الاقتصادية عام ١٩٣٠). ويعطل بالتالى من تنمية هذه البلدان .

ويؤدى ارتفاع معدل المواليد (فى العالم الثالث) مع انخفـــــاض معدل ألوفيات لمشاكل بالغة الصعوبة فى الاكتفاء (الزراعى) مما يضطر هذه البلدان الى استيراد آلمنتجات الزراعية بينما ينعكس ركود الزراعة فى العجـــز عن تمويل المشروعات الصناعية — التى تعجـــز بدورها عن امتصاص الايدى العاملة — مما يؤدى فى النهاية ألى زيادة معدلات البطالة فيها .

ويؤكد علماء الاقتصاد فى العالم الثـــالث عادة أن آلجزء الاكبر من القوة العاملة تشتغل فى القطاع الثالث (الذى يشتمل على النقل والتجارة والاعمال الادأرية والخدمات) ، وليس فى « القطاع الثانى » الانتـــاجى (الذى يدور حول ألصناعة والبناء) * . (٣١)

وبعبـــارة أخرى فان التضخم المفرط فى النشاط الادارى والخدمات قد أصبح العلامة المميزة لمعظم بلدان العالم الثالث ، وتضم هذه الخدمات

(الخدمات الشخصية) ، الامر الذى يعبر عن البطالة المقنعـــة بمختلف صورها ويزيد من المهن الهامشية (٣٢) .

وتعد دراسات لندز ووارنر محاولات رائدة لتطبيق أساليب الدراسة الانثروبولوجية على المجتمعات الحضرية .

ومن الدراسات الهـامة كذلك تلك الدراسة التى تمت فى أحـــد المجتمعـــات المحلية الكندية الفرنســـية وهو مجتمع Canton ville وكذلك دراسة فيديش Vidich وبنزمان Benasman لمدينة Springdale وهى مدينة صغيرة كانت محكومة تماما بواسطة قوى كبرى خارج حدودها (الدولة ومؤسساتها الرسمية) ، والامر الذى لا شك فيـه أن التصنيع يؤدى الى اشاعة الكثير من ضروب التغير فى الانساق الاجتماعية للمجتمعات المحلية التقليدية وفى المجتمعات المحلية الصغيرة حيث يظهر فى هـــذه المجتمعات المحلية العديد من المنظمات المتخصصة كالنـوادى والاتحادات وما اليها وقد أدى التحليل الوظيفى البنائى فى ميدان الانثروبولوجيا الى نبذ العـــوامل التطورية والتاريخية والتركيز على تحليـــل البنـــاء الاجتمـــاعى فى مجتمع محلى تحليلا وظيفيـــا وان كان فى الامكان الاستعانة بالدراسة الانثروبولوجية التى تتبنى الاتجاه البنائى التركيز على جمـــاعات محلية صغيرة بقصد **تتبع العلاقات والانساق فى تداخلها وتفاعلها معا** (٣٢) .

وبعبارة أخرى فانه طالما كان المجتمع المحلى الحضرى يستشعر قوى التغير نفسها التى تؤثر فى المجتمع القـومى ، فمن المستحسن أن يدرس فى ضوء **النظرة الضيقة والمتسعة** فى نفس الوقت ويعتبر الاطار التصورى الذى صاغه عالم الاجتماع الامريكى رولاندوارين R. Warren (٣٣) **عن الانماط « الافقية والرأســـية »** أفضـــل الصياغات النظرية التى يمكن الاسترشاد بها حيث يحدد الاول بأنه العلاقة الوظيفية البنائية للوحدات والانساق الفرعية داخل المجتمع المحلى بينما يحدد الثانى بأنه العـــلاقة البنائية الوظيفية التى تحكم العلاقة بين هذه الانســـاق المحلية والانساق (الكبرى) خارجها . ونستطيع أن نستعير من وارين مفهومه عن التغـــير المظيم فى المجتمـــع المحلى لنلقى المزيد من الضـــوء على التغـــيرات الاجتماعية التى تصاحب التحضر فى المجتمع المحلى فهو يلمح الى تقســـيم العمل ، وتزايد « البيروقراطية » وازدياد الاتصال بين المجتمع المحـــلى والمجتمع الكبير وهذه بدورها تعد من الملامح المميزة للتحضر — الذى يواكبه أيضا ازدياد الحراك الاجتماعى المهنى .

ويذكر مورجان Morgan أن هناك علاقة تفاعلية بين التصـــنيع

والمجتمع المحلى فالتصنيع من صنع الناس ويعتمـــد نجاحه على احساس الناس فى المجتمع المحلى بوجوده واستجابتهم لآثاره (٣٤) .

ويذكر عالم الانثروبولوجيـــا الحضرية جتكنـــد Gutkind (٣٥) أن التصنيع والتحضر يؤديان الى حدوث تأثيرات عديدة على المجتمعات المحلية الصغيرة والنظم الاجتماعية ، وقد اتضـــح من واقع دراسة المجتمعات المحلية الصغيرة فى جواتمالا Guatemala أهميـــة الآثار التى يعكســها التحضر والتنمية على هذه المجتمعات المحلية الصغيرة كما ترجع أهميـــة التركييز على دراسة هذا النمط الانسانى الهام الى ان دراسات المجتمـــع المحلى برغم كثرتها قد أظهرت فقدان التوجيه النظرى الذى يتمثل فى جمع **المادة دون محاولة تفسيرها ، كما تفتقد بدورها للنظرة التاريخية والتحليل الاجتماعى للأحداث** (٣٦) .

وليس ادل على ذلك من ان بعض الكتاب فى السنوات الاخـــيرة قد بالغوا فى النظر للمجتمع المحلى نظرية تشـــاؤمية ، ومن أمثلة هـــؤلاء ســـتاين Stein الذى راى أن المجتمع المحلى الحضرى أصبح يموج بالغـــرباء مما يهدد تماسكه وهو ما افصح عنه فى كتابه بعنوان « خسوف المجتمع المحلى » (٣٧) .

طرق دراســـة المجتمعات المحلية الحضرية :

يذكر وارن R. Warren (٣٨) أن هنـــاك عدة طرق لدراسة المجتمع المحلى اهمها :

١ ــ الدراسة الديموجرافية للمجتمع المحلى :

يهتم اصحاب هذا الاتجاه بدراســـة **توزيع سكان المجتمع المحلى** من حيث قوته العاملة فى المجتمع ونسبة من يعتمدون فى معاشهم على غيرهم، وتوزيع السكان بحسب فئات السن والنوع ، ومن انصار هـــذا الاتجـــاه ثورنديك Thorndike وســـيلى Seely وفوجت Vogt وغيرهم .

٢ ــ دراسة المجتمع المحلى كبؤرة للتفاعل :

ويهتم اصحاب هذا الاتجاه بدراسة **السلوك الانسانى فى المجتمع المحلى داخل المؤسسات** الموجودة كالمدرسة والكنيسة من خلال العمليـــات

الاجتماعية كالصراع والتنافس ، ومن أصحاب هذا الاتجاه مايو Mayo وجرين Green .

٣ — دراسة المجتمع المحلى كأداة لتوزيع القوة :

ويعنى هذا الاتجاه بدراسة من **يملكون التاثير والسلطة فيــه** ، ومن أمثلة الدراسات ألتى اهتمت بهذا الاتجاه دراسة هنتر Hunter التىأبرزت اهمية العامل ألاقتصادى فى تشكيل بناء القوة .

٤ — **المجتمع المحلى (كمرادف) للنسق الاجتماعى :** وتقــوم الفكرة الموجهة لهذا الاتجاه على اعتبار أن النسق يعبر عن التفــاعل البنائى بين الوحدات (وهذا علاوة على الاعتبارآت الفيزيقية والايكولوجية الاخــرى اللازمة لتكوين البناء) وعلى هذا الاســاس **فالمجتمع المحلى يعبر عن فكرة النسق الاجتماعى لاشتماله على العديد من التنظيمات والجماعات** الرسمية وغير الرسمية وفى هده الحالة ينبغى على الباحث ان يأخذ فى اعتبـــــاره علاقة الانساق الفرعية للمجتمع المحلى مع ألانســـــاق الاخرى خارج هذا المجتمع .

وقد استحوذت فكرة المجتمعات المجاورة للمـــدن على اهتمام بعض علماء الانثروبولوجيا ايضا أمثال هاريس Harris ، وولف Wolf الذين قاموا بدراسة ألمجتمعات المحلية فى مجتمعات العالم الثالث وبصفة خاصة فى أفريقيا وأمريكا ألالاتينية . وفى هذه الدرآسـات روعيت علاقات (الجوار) بين المجتمع المحلى وبين المدن الاخرى وبعبارة اخرى فالباحث هنا يدرس « ثقافة جزئية » فى اطـــار ثقافة أكبر ليدرك مدى التأثير والتأثر بينهمــا ، فقد تصدر المدينة للمجتمع المحلى المجــاور السلع والخدمات وتأخــذ منه المحاصيل الزراعية ومنتجات ألالبان .

كما ينصرف مفهـــوم المجتمعات ألصـــــغيرة على **أطـــراف المدن** Urban fringes **والظهـــر الزراعيـــة** Hinter lands **والضـــــواحي** Suburbs التى لا يمكن أن تدرس الا فى ضوء أتصالها بالمدينة الكبيرة Town أو المتروبوليتانية وغير خاف أن تحـــديد المجتمعـــات المحلية لا يرتكز على الحجم أو الكثافة أو النشـــاط الاقتصـــادى السائد أو غيرها من المحكات الجزئية الى ثبت فشلها جميعا فى التمييز بين انواع المجتمعات المحليـــــة التى تتولى درآســـــتها اذ أن هـــذه الخصائص تختلف من مجتمع لمجتمع وفى المجتمع الواحد من منطقة لاخرى .

« أمثـــلة لبعض الدراسات الحضرية »

لويس ويرث : « الحضرية كطريقة للحياة » :

كان الهدف من هذا المقال ابراز **العلاقة بين التنظيم الاجتماعى فى المدينة وبعض التغيرات** التابعة كتزايد السكان وكثافتهم وعدم تجانسهم ويمكن أن نلخص افكار ويرث والمناقشات التى دارت حولها على النحو التالى :

(أ) يعتقـــد Wirth أن نمط التنظيم الاجتماعى فى المدينة ويؤدى الى « **لا شخصية** » **العلاقة الاجتماعية** والى **التخصص وتقسيم العمل** الذى يؤدى بدوره الى اتساع نطاق السوق والامتداد العمرانى للمدينة ، وزيادة كفاية وسائل الاتصال بها .

(ب) تقوم نظرية ويرث على وجود **بعض الخصائص الاســـــاسية للمدينة** تتمثل فى **زيادة الحجم والكثافة وعدم التجانس** وأن هذه تؤثر كذلك على أنماط العلاقات الاجتماعية (وقد تأثر فى هذه المقولة بسيمل كما تؤثر هذه الخصائص بدورها على « الطبيعة الانسانية » وعلى نمو الشخصية).

(جـ) تؤدى حياة المدينة بصفة عامة الى **زيادة العقـــــلانية وحرية الاختيار** .

(د) ان الحياة الحضرية تتضمن **الفصل الواضح بين محل العمـــل ومكان السكن** .

(هـ) قابل ويرث بين المراكز الحضرية والمحليـــات الريفية فالحضر لديه يخالف الريف .

(و) ترتبط الحياة الحضرية بنمط استخدام الارض ، ونمط الاتصال والنقل والمواصلات كما تؤثر (الحضرية) فى البناء الفيزيقى (المـــادى) والتنظيم الاجتماعى القائم والاتجاهات والافكار غير أن ويرث يشير الى **استقلال آثارا لنمو الحضرى** عن التصنيع اذ أن النمو الحضرى يواكبه نمو المدينة فى الحجم والكثافة بينما يؤدى التصنيع الى لا شخصية العـــلاقات

والى التغير فى القيم الثقافية كما يؤكد ويرث فى الوقت نفسه الى أن كل المدن (التاريخية والمعاصرة) تفصح عن هذه الخصائص عينها .

ومع أن المفهـــوم « **الجشطالتى** » الذى يمثله ويرث من شـــأنه أن يساعدنا على فهم العلاقة بين عناصر البناء الاجتماعى (الانساق الاجتماعية المتضمنة) والتنظيم الايكولوجى السائد الا أن البعض أمثال شنور Schnore وهاوسر Hauser يعتقدون أن ويرث قد فشل بصفة عامة فى استيعاب الاطار التاريخى والمجتمع الذى توجد فيه المدينة ، فلكل مجتمع تاريخه وبنيته الاجتماعية والثقافية .

ويذكر جانز Gans أن من اخطـــاء ويرث التعميمـــات ألتى أطلقها على طريقة الحياة الحضرية عامة بينما تركزت اهتماماته على وصف « المدينة الداخلية فقط » (أى وسط المدينة) ، كما أنه وضع ظاهرة التحضر فى اطار المدينـــة (بينما ينتشر التحضر كذلك للاطراف والقرى) ، ويذكر جانز أن هذا قد دفع ويرث لان يفترض شيوع عدم التجانس بما يصاحبه من **زيادة فى معدلات الجناح والمرض العقلى والانتحار** — أو ما يعرف « باللامعيارية » الذى ينعكس فى اختلال التكامل الاجتماعى فى المدينة ، وقد حاول بيكفانس Pickvance (٤٠) أن يدافع عن ويرث على اعتبار أن نظرته للمدينة كانت تشخيصا لنماذج تصورية أكثر منها لمحلات حضرية قائمة بالفعل بينما يذكر موريس Morris أن اختيار الاطار التصورى لويرث يتم بثلاث طرق :

(أ) المدينة قبل الصناعة كما وصفها جوبرج Joberg .

(ب) المجتمع الحضرى الصناعى بصفة عامة .

(جـ) البيروقراطية .

أما مكجى Mcgee (٤١) فيعيب على ويرث عدم دقتـــه فى اختيــــار **التغيرات المستقلة والتابعـــة** التى قام بابرازها فالحجم والكثافة ليســا شروطا للحيـــاة الحضرية ، وقد وقع ويرث فى هذا الخطـــأ بسبب الافراط فى اصدار الاحكام القيمية ، بالاضافة الى عجـــزه عن أدراك التأثير الذى يعكسه المجتمع الاكبر على المدينة ، كما أنه تأثر فى كتاباته ببعض الكتاب أمثال بيرين Pirenne (الذى حاول أن يرسم صورة للاستقلال الاجتماعى والسياسى للمدينة الاوربية فى العصور الوسطى) (٤٢) .

تعقيب :

قدم ويرث اطـــاره الشهير عن الحضرية الذى أدى دون جدأل الى تعميق فهمنا للعلاقات السائدة بين عناصر النسق الاجتماعى والحضارى السائد والتنظيم الايكولوجى للمدينة غير اننا نتفق مع Mcgee فى أن ويرث قد فشـــل فى أختيار المتغيرات المستقلة والتابعة بسبب نقص دراساته الميدانية فى هذا المجـــــال كما أنه قد تأثر بالصورة الكلاسيكية للمدينة الامريكية ، الامر الذى لا يمكن تطبيقـــه على المدينـــة فى مجتمعات العالم الثالث التى ينبغى الآن الاهتمام بدراستها .

٢ — **روبرت ردفيلد :** « المجتمع الصغير » (الفولك) :

أما الدراسة الثانية ألتى يمكن الاستشهاد بها فى هذا الصدد فهى تلك التى قدمها روبرت ردفيلد Redfield واستعرض فيها خصائص المجتمـــع الصغير (فى مقابل مجتمع المدينة الاكثر تعقيدا) (٤٣) .

وخرج ردفيلد من المقارنة التى عقدها بين المجتمعات المحلية البسيطة والاكثر تعقيدا (المدن) بنتيجة مؤداها أن الاخيرة تعتبر :

١ — **اقل عزلة** .

٢ — **اقل تجانسا** .

٣ — **اكثر تقسيما للعمل** .

٤ — أكثر تعقيدا فى (**اقتصادها النقدى**) .

٥ — **اكثر علمانية** فى التخصص المهنى .

٦ — أقل فاعلية فى **الضبط الاجتماعى** (غير الرسمى) .

٧ — ازدياد الاعتماد على **النظم** « **غير الشـــخصية** » فى الضـــبط الاجتماعى .

٨ — اقل حرصا على **العقيدة الدينية** .

٩ — اقل ميلا لارجال **المرض** « للاحكام الاخلاقية » .

١٠— حرية اكبر فى العمل والاختيار الشخصى .

وهذه المتغيرات تصف وتقيس تحضر مجتمع « الفولك » فى الوقت نفسه .

ذهب ردفيلد الى أن التحضر يؤدى **لاختلال التنظيم وزيادة العلمانية وزيادة الفردية** ، وقد رأى بدوره ان التحضر على هذا الاساس يهدم المجتمع الشعبى (الفولك) فلا يستمر تجانس المجتمع طويلا كما تقل أهمية العائلة الممتدة وهكذا تتحول نظـــرية ردفيلد الى نظرية فى « **التغير التطورى** » ولا يخفى على المتتبع لآرأء ردفيلد أن « تيبوزتلان » كانت المصدر الرئيسى لأفكاره عن **المتصل فولك — حضرى** ففى ١٩٢٦ اكتشف فى خصائص هذه القـــرية ما طوره بعد ذلك فى نموذج المجتمع الشعبى (الفولك) .

كما اكد أهمية الفهم البنائى للقرية والمدينة حيث يستحيل وجـــود فلاحين دون مدينة ويصعب وجود مدينة دون فلاحيها . وقد وجه أوسكار لويس انتقـــاده له على اساس انه أعتبر **المدينة المصدر الوحيد** للتغـــير وهكذا اغفل أثر العوامل الاخرى (داخلية وخارجية) كما انه لم يحـــاول التركيز على **جوهر المجتمع الحضرى** ثم انه **اغفل الخصائص الســـكانية** وأبرز بعض الاحكام القيمية فى التصنيف « ســـعادة سكان الفولك وسوء أحوال سكان الحضر » (٤٤) .

وينتقده لويس كذلك لانه اعتبر أن التحضر يعنى دائما عدم التنظيم والعلمانية والفردية فقد حاول ردفيلد أن يقـــارن الفولك (المغلق) بالمنطقة الحضرية (التى تمثل نسقا جزئيا) كما تناسى أن العلاقة بين الريف والحضر والفروق بينهما لا تكاد تلحظ فى بعض المجتمعات المتقدمة كالمجتمع الامريكى ويضيف لويس الى ذلك أن التغير ليس (**أحادى الاتجاه**) أو من الفـــولك الى الحضر على الدوام .

ويتفق ارنسبرج Arensberg وكمبـــال Kimball (٤٥) فى أن النقد الاساسى الذى يوجد لردفيلد تجاهله للسوق المركزى واهتمامه بالفـــولك (البسيط) وهو النقد نفسه الذى يوجهه رزمان Reissman لردفيلد (٤٦)

على اعتبار أنه يتجـاهل الاهداف الرئيســية لنظريته ولم يركز كثيرا على الخصائص **الاساسية للمجتمع الحضرى** ، وقد استشهد ريزمان بدراسة ماينر Miner الذى قام بمقارنة أحد المجتمعات المحلية الكندية الفرنسية المنعزلة بآخر نقيضه (غير منعزل — غير متجانس — متزايد الحجم) واستنتج من هذا صعوبة اثبات فروض ردفيلد .

ويذكر جوبرج Sjoberg أن المدينة بصفة عامة كانت تمثل **المتغـير** المستقل **(الاساسى)** فى تفسير الفروق الريفية — الحضرية بالنسبة لردفيلد وويرث حيث يرى الاول أن عزلة المجتمع وتجانســه تعد **متغيرات مستقلة** بينما تعد « العلمانية » والفردية وتكامل أو عدم تكامل الثقافة **متغـيرات تابعـة** فى المدينة وينظر الثانى الى المدينة من ناحية ازدياد حجمها وشـدة كثافتها السكانية وسيادة العلمانية واللاتجانس والعلاقات الثانوية والضبط الاجتماعى الرسمى الطابع أى أنهما بصفة عامة :

١ — يقارنان بين المجتمع المكتفى ذاتيا والمجتمع الحضرى **(الجـزء المتصل بالكل)** .

٢ — يفترضان **التجانس والاستقرار** فى المجتمع القروى ، بينمـا قد يمر المجتمع القروى بفترات طويلة من عدم الاستقرار .

٣ — المبالغة فى درجة انقسام الحياة الحضرية .

٤ — انهما فشلا — كما فشل اتبـاع سوروكن Sorokin وزمرمان Zimmerman فى تحليل المجتمعات الريفية والحضرية باعتبارها **مجرد أجزاء** فى السياق الاكبر الذى يضمها .

ومهما قيل من أوجه النقـد التى وجهت لاعمال ردفيلد وويرث فانهما قدما **اطـارا جشطالتيا** (ويرث) **وبنائيا** (ردفيلد) نهج على هديه البعض أمثال سميث Smith فى دراسته لمدينة طوكيو (حيث تبع اطار ويرث) وغيره من الباحثين الذين تبعوا اطار ردفيلد .

دراســة ميدلتون : (٤٧)

قام لند ، هـ . لند بدراسة لمدينة ميدلتون فى سنة ١٩٢٠ وهى تعتبر مثلا طيبا لدراسة **التغـير والنمـو** فى أحـد المجتمعات المحلية الامريكية

وقد عاد لدراسة المدينة بعد عدة سنوات بهدف المقارنة بين الوضع فى الحالة الاولى والاخيرة لكشف **انماط التغير** فى الظروف الاجتماعية والاتجـــاهات فى الدراسة الثانية .

وقد افترضا أن **المدينــة الصــغيرة تعكس ملامح المجتمع الامريكى الاكبر** ، كما افترضا أن درجة واتجاه التغيير يعتمدان بدورهما على القرب الجغرافى من المراكز القــوية للانتشـــار الثقافى (الحضارى) واستعانا لتحقيق هذه الفروض **بالاتجاه الانثروبولوجى عن طريق استخدام عدة وسائل لجمع البيـــانات** كالملاحظة والمقابلات الشخصية والجماعية والزيارات للمدارس والكنائس وحضـــور المحاضرات والوثائق المكتوبة عن المدينـــة كما استخدما البعـــد « التنظيمى » لوصف المجتمع المحلى (كأســـاليب المعيشة ومحل المسكن وقضـــاء وقت الفـــراغ الممارسة العقيدة ومختلف الانشطة الاخرى وبخاصة ما يتعلق بالاسرة) وقد عادا بعـــد **اقل من ١٠ سنوات** لاستجلاء صور التغير التى حدثت فى المدينة واستخدما ذات الاتجـــاه وطرق جمع البيانات فى دراسة المدينة وقد افصحت الدراســـة عن بعض الحقائق يمكن ايجازها فيما يلى :

(أ) ان **البنـــاء الاجتماعى** فى الحقبة الاولى كان يتسم (بالتقليدية) وقد تمثلت دور الفعل لاحداث التغير فى الجـــانب المـــادى المتمثل بدوره فى الادوات التكنولوجية كالسيارة والراديو وآلة الطباعة (اللينـــوتيب) اذ أن هـــذه الادوات قد أدت الى العـــديد من الآثار على الاسرة والنسق السياسى بل والحياة الاجتماعية فى المجتمع المحلى بصفة عامة .

(ب) ان هناك بعض **الظروف القومية والعمالية** (كالأزمة الاقتصادية) قد عكست آثارها المباشرة على المجتمع المحلى موضوع الدراسة .

(جـ) ان هناك **مقاومة للتغير** حيث تبدو ثمة **جماعات ضاغطة** لهـــا اهتمامات تقليـــدية لا تفضل أن تحيـــد عنها كثيراً بينما ادت **التكنولوجيـــا (المتقـــدمة)** الى احداث التغيير اذ أن التصنيع والتحضر فى ميدلتون كانا من الركائز الهامة للتغير الاجتماعى فى المدينة الى جانب التحديث .

(د) بدأت ميكانزيمات التغيير فى **العمـــل** من خلال بعض النـــواحى المرتبطة **بمكانة المرأة ودورها** فى المشاركة الاقتصادية مما أدى الى تغيرات تابعـــة فى **سلطة الرجل وفى الادوار الاسرية** والزواجية بصفة عامة .

تعقيب :

الواقع أن دراسة لبندز ، تقوم على الاهتمام بالجوانب المادية فى احداث التغير اكثر من الجوانب غير المادية ويظهـــر هذا الاهتمام فى التركيز على العلاقة (الانتشارية) بين المدينـــة والمجتمع المحلى (المدروس) والاهتمام بأثر الادوات التكنولوجية حيث تأتى هـــذه الوسائل المادية بمثابة « المتغير المســتقل » المؤدية لاحـــداث التغير وكنا بحـــاجة للتركيز على الجوانب غير المادية) .

« المصـــــــادر »

١ — بيلز وهويجر — مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة — ج ٢ ص ٨٦٠ ، ص ٨٦٦ .

٢ — Anthropologists in Cities op. cit. p. 2.

٣ — L. Reissman, op. cit. pp. 94 : 114.

وانظر أيضـــا :
W. Michelson, Man and his urban Environment U. S. A. 1976, pp. 3 : 16.

* وتهتم بدراسة العلاقة بين البيئة والانسان .

٤ — Simpson, Sociology of the Community, In Rural sociology. vol. 30. N. 2 Jun. 1955. pp. 136.

٥ — Urbanism as away of life, In R. Sennett. pp. 155 : 159.

٦ — G. Sgoberg, Theory and research in urban sociology (in) Hauser and Schnore (Eds(op. city. pp. 157 : 172.

٧ — مقـــــدمة فى الانثروبولوجيا العـــامة — ج ٢ ، المصدر السابق — ص ٨٦٠ : ٨٦٦ .

٨ — The urbanization process op. cit. pp. 36 : 51.

٩ — The cultural role of cities In. R. Sennett. op. Cit.

١٠— محمد الجوهرى — الانثروبولوجيا — دار المعـــــارف — ١٩٨٠ .

* استحوذ التغير الاجتماعى على اهتمام العـــديد من علماء الاجتمـــاع والانثروبولوجيا وقد تعـــددت الاتجاهات والمذاهب التى حاولت ان

تفسر هذه القضايا من خلال الحوار الذى قاده على وجه الخصوص الرواد الاوائل أمثـــال كونت وسبنسر وفيـــبر وماركس واصحاب الاتجاهات الدارونية والتطورية والوضعية والايكولوجية واصـــحاب فى علم الاجتماع ومن نحى نحوهم من علماء الانثروبولوجيـــا التطورية والانتشارية ويمكن الرجوع الى :

نيقولاتيماشيف — نظرية علم الاجتماع — طبيعتها وتطورها — ترجمة محمد الجوهرى وآخرون فى الباب السادس .

وبوتومور تمهيـــد فى علم الاجتماع — ترجمة محمد الجوهرى وآخرون الباب الخامس .

١١— بيلز وهويجر — المصدر السابق — ص ٨٦٤ .

Gutkind, urban anthropology. pp. 160 : 173.

١٢— Ibid. pp. 208 : 221.

١٣— Ibid. pp. 182 : 205.

١٥— بيلز وهويجر الانثروبولوجيا العامة ج ٢ ص ٨٦٤ .

** أثارت دراسة Warner العديد من الانتقادات حيث اعتبرت تعريفاته للطبقة (غير مرضية) وتخاصة لدى أنصار الاتجاه الماركسى كما اتهم بالخلط بين الطبقـــة والمكانة . غير أنها شجعت غيره من العلمـــاء على الحذو حذوه .

روبرت ردفيلد — المجتمع القروى وثقافته — ترجمة فاروق العادلى — الهامش ص ٦٦ .

١٤— L. Reissman, op. cit. p. 147.

١٦— The urban process, op. cit. pp. 147 : 149.

١٧— L. Reissman, op. cit. p. 147.

* اذ أن بعض علماء الغـــرب يهتمون بالانساق المغلقة لتأكيد المتطلبـــات

الوظيفية Functional prerequisites . للنظـــام الصناعى

الحضرى وبالتالى فانهم يتجاهلون عادة صراع هذه المتطلبات من جهة ودور القـــوى التى تعمل للتأثير فيها على الصعيد العالمى من جهة اخرى .

١٨— Hardog, urbanization in latin America, N.y. 1975, pp. 110 : 120.

٢٠— مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة — جـ ١ — ص ٣٦٥ : ص ٤٠٧ .

٢١— المصدر نفسه — المكان نفسه .

٢٢— الفـــروق الريفيـــة الحضرية (فى) ميادين علم الاجتماع — المصدر السابق — ص ٦٩ ، ٧٠ ، ص ٨٧ ، ص ٩١ .

٢٣— McGee, Op. cit. pp. 198 : 115.

٢٤— Ph. Hauser, urbanization in Asia op. cit. pp. 258, 259.

٢٥— Op. cit. pp. 211 : 221.

٢٦— جيرالد بريز — المصدر السابق — ص ٦٤ .

٢٧— P. W. Gutkind, op. cit. p. 30.

٢٨— جيرالد بيريز — المصدر السابق — ص ٩٩ : ١١٠ .

* يصاحب التصنيع فى دول العالم الثالث عادة مشاركة كبيرة من الدولة ولا يصاحبها عادة — كما ظهر فى الغرب — ظهور طبقـــة وسطى متميزة .

انظر فى ذلك :

M. Berger, Social groups. In B. Lutifyya & Churchil (Eds) Readings in Arab middle Eastern societies.

٢٩— Hauser, Urbanisation in Asia op. cit. pp. 4 : 9 173.

٣٠— Sovani the nature of City (In) R. Sennet (Ed) Classic essays on the Culture of cities op. cit. ch. 2.

٣١— سمير امين — المصدر السابق — ص ١٥٥ : ص ٤٢٥ .

٣٢— The American community op. cit. pp. 22 : 64.

٣٣— احمد ابو زيد — البناء الاجتماعى — جـ ١ — مصدر سابق ص ٣٠٠ ، ص ٣٠٣ .

٣٤— The American Community, op. cit. p. 77.

٣٥— P.H. Hauser. urbanization in Asia .. op. cit. pp. 37 : 85. Moore. The impact of industry op. cit. pp. 59 : 63.

٣٦— Urban Anthropology. The netherlands, 1974 op. cit. pp. 161 : 171.

٣٧— R. Warren, op. cit. p. 339.

٣٨— M. Nottridge, The sociology of urban living, Boston. 1972. pp. 79, 80.

٣٩— Op. cit. pp. 22 : 50.

٤٠— L. wirth, urbanism as a way of life (in) R. sennett (Ed) classic essays on the Culture of cities.

٤١— On a materialist critique of urban sociology, the soc. Review. Vol. 22 N.Z. May. 1974 p. 208.

٤٢— Op. Cit. pp. 38 : 45.

٤٣— Gutkind, Urban Anthropology, op. cit. pp. 161 : 174.

٤٤— The little Community, Chicago. 1955.

٤٥— R. Redfield, Avillage that chose progress, Chicagc, London .. 1962, pp. 113 : 138.

٤٦— Culture and Community. op. cit. p. 47.

٤٧— The urban process. op. cit. pp. 133 : 137.

٤٨ R.S. lynde, H. lynde, middle town, foreword by Clark Wissler. N.y. 1929.

وانظـــر أيضـــا :

Middle town in transition. N.y. 1937.

« الدراســـة الانثروبولوجية للتحضر »

١ — الخصائص الاجتماعية لسكان الاطراف الحضرية :

« دراســـــة مقـــــارنة »

مقـــــــدمة :

ينهض المبحث الراهن على عدة محاور اساسية يتناول أولها بعض المعطيات التى تناقش آثار التحضر والنمو الحضرى للمدن المتروبوليتانية ، ويعرض المحور الثانى فى ايجاز لأهم النتائج التى تمخضت عن دراستين حقليتين لبولاق الدكرور وشبرا الخيمـــة تولى الباحث القيام بهما خـــلال عامى ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، أما المحـــرر الثالث فيناقش الوظيفة الاجتماعية للاطراف من واقع المعطيات النظرية والميدانية التى بين أيدينا ، ويتضمن المحـــور الاخير مناقشـــة بعض النتائج المتعلقة بالاطراف المتروبوليتانية فى مصر .

وغير خاف انه بالرغم مما أولاه العديد من المهتمين بالتحضر بالمدينة ككل الا أن **الاطراف** لم تحظى باهتمام هؤلاء العلماء بصورة مماثلة .

والاطراف هى الامتداد الحضرى للمدينة الذى يعكس بنية فرعية لها انساقها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الخاصة بها .

اولا : آثار التحضر والنمو الحضرى للمدن المتروبوليتانية :

١ — على امتداد الحقبة المترامية منذ الحـــرب الاولى وحتى الآن حاول انصـــار **المدرسة « الايكولوجية »** من جهة ، وانصار اتجاه دراسة المجتمع المحلى من جهة أخرى ، وانصار الاتجاه التفاعلى من جهة ثالثـــة

سبرغور الحيـــاة الحضرية بقصد دراسة ميكانزمات التحضر وابراز آثاره ويبدو أنه لا مناص من الاعتراف بالحاجة الماسة لاجراء المزيد من الدراسات الحقلية لاسيما فى مدن العالم الثالث مع المقارنة بين نتائج هذه الدراســـات وبين الدراسات التى أجريت عن المدن الغربية قبل أن نصدر أى أحـــكام مسبقة .

٢ — منذ أكثر من نصف قرن كذلك بدأ الاهتمام باجراء دراســـات حقلية عن **المدن المتروبوليتانية** فقد قدمت كارولين وير Caroline Ware دراســـتها الرائدة عن احدى أحيـــاء مدينـــة نيويورك التى كان للامتداد المتروبوليتانى التدريجى — أثره فى نشأته وتكوينه فقد كان هذا المجتمـــع المحلى فى الاصل عبـــارة عن قرية صغيرة تقع خارج مدينة نيويورك اسمها Green Wich Village وهو ذات عنوان المؤلف الذى حررته وير عنوانا لدراستها الحقلية ، وأصبحت القرية بعد ذلك جزءا من وسط المدينة بالرغم من النمط المتميز لشوارعها وخصائصها السكانية المميزة .

وقد ظهرت الصعوبات فى جمع المـــادة سواء المتعلقة بالبيـــانات السكانية والاحصاءات الحيوية الخاصـــة بالمجتمع المحلى أو فى اختيـــار عينة من بين أفراده لدراستها حيث كان السكان يضيقون ذرعا بالدراسة ويأنفون من اعتبارهم عينة تعـــامل « كفئران التجـــارب » وكان البعض الآخر — من المتعلمين تعليمـــا عاليا — يترفعون عن أن يكونوا موضـــوعا للبحث وحتى هؤلاء الذين لم يترفعـــوا لم يكن لديهم الوقت الكافى الذى يسمح باستنبارهم ، وبعد أن فشلت فى جمع الاستمارات وصحائف الاستبيان الذى تم توزيعـــــه على السكان لاستيفائه استعانت وير بمجمـــوعة من الدارسين من داخل المجتمع المحلى وقامت بتدريبهم لملء استمارات الاستبيان من خلال المقابلة الشخصية غير أن وير فى نهاية الامر لم تفلح فى الاستفادة من نتائج دراستها أو عرضها بصورة مرضية .

٣ — تعد الدراسة التى قدمها وليـــــام فوت هويت W.F. Whyte لأحدا **لأحيـــاء المتخلفة** فى مدينة كبيرة هى Cornerville من بين الدراسات البارزة فى المجال الحضرى ، وكانت بداية مشكلة البحث حين تساءل هويت كيف يمكن لباحث من خارج المجتمع أن يبـــدأ فى دراســـة أحـــد الاحيـــاء الايطالية المتخلفة بينما لم يبد أستاذه المشرف على الدراسة فى الوقت نفسه أدنى اهتمام بالظاهرة موضوع الدراسة أو يثير لديه أى حماس للعمـــل

بل ان هويت الذى ينتمى بحكم ظروف نشأته للطبقـــة الوسطى ـــ العليـــا لم يك على درجة من الوعى بالحيـــاة فى الاحيـــاء المتخلفـــة ، وتوقع فون هويت أن تستلزم منه الدراسة الحقلية الاستعانة بفريق عمل لجمع المـــادة الميدانية كما بدأ الاتصال ببعض الافراد كان ابرزهم دوك Doc الاخصائى الاجتماعى وعضو أحد « **الشلل** » فى المجتمع المحلى ، وقد عرض عليه هويت رغبتـــه فى دراسة المدينة ومشكلاتها بينما عرض دوك عليـــه أن يرافقه الى الشل المنحـــرفة التى يعرفها والى نواصى وزوايا الشوارع للتعـــرف على بعض هذه الشلل ، ومن ثم بدأ هويت فى استئجار حجرة من احدى الاسر الايطالية التى تعيش فى الولايات المتحـــدة ليعيش معهم كملاحظ مشـــارك كما بدأ فى تصميم « سوسيوجرام » a sociogram للتعرف على طبيعة العلاقات بين أعضاء المجتمع ، وليس بخاف أن دراسة هويت عن مجتمع الناصـــية قد أضحت واحـــدة من الدراســـات الحقلية الاثنوجرافية الرائدة فى المجال الحضرى وقد افلحت هذه الدراسة فى ابراز ميكانزمات الشلة وأعراض **الاختلال فى التنظيم الاجتماعى** للمنطقة المتخلفة كما أن ملاحظات هويت وبصـــيرته النافذة قد نجحت فى سبرغور مجتمع الناصية من جهـــة وعرض أوجه الحياة الاجتماعية فى المناطق المتخلفـــة من جهة أخرى .

٤ ـــ حرص علماء الانثروبولوجيا الحضرية على اعطـــاء دفعـــة للدراسات الحضرية حين تركز اهتمام روادها **بالفهم الشمولى للمنـــاطق الحضرية** واعتبارها كذلك أجزاء من مجتمعات أكبر منها مع أستخدام الملاحظة بالمعايشة كأداة اساسية للدراسة ، كما حـــددت هذه الاداة مجال عملهم فى قطـــاعات بعينها من المدينة وتركزت انظارهم كذلك على دراسة انساقا معينة أو ظواهر بعينها وأدى هذا الى ظهور بعض الدراسات المتـــازة مثل دراسة اليوت ليبو Elliot libebow عن شلة الناصـــية فى واشنطن بعنـــوان «Tally's Corner» وغيرها .

٥ ـــ تعـــد دراســـة أوســـكار لويس Urbanization without Breakdown واحـــدة من الدراسات الهامة عن تأثير الهجرة الريفية الحضرية على الاسرة والثقافة التقليدية ففى الوقت الذى ظل علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الحضرية يؤكدون ـــ دون النزول الى الميدان ـــ التـــأثير السلبى للحيـــاة الحضرية على الشخصية والاسرة والعقيـــدة حيث بدأ وكان التحضر يؤدى بالضرورة الى الاسراع بالانحراف وبالصور الاخـــرى

لسوء التنظيم الاجتماعى ، جاءت دراسة أوسكار لويس Lewis لتيبوزتلان — المكسيك — Tepoztelan-mexico city لتوضح أن **التماسك الاسرى كان قويا فى المدينة عنها فى القرية** وان الشخصية الحضرية لا تعيش فى عزلة كما يعتقد البعض وليس التحضر مرادفا بحال من الاحوال للعلمانية وخسوف النزعة الدينية بل ان التحضر يختلف باختلاف المناخ الاقتصادى والثقافى الذى يوجد فيه .

٦ — يربط رتشرد باشام R. Basham بين الفقر (كمشكلة اجتماعية) وبين الازدحام السكانى (بالنسبة للعديد من الشعوب) حيث تتجسد هذه الازدواجية فى الاحياء المختلفة التى يقصدها الفقراء طمعا فى الحصول على السكن ، وفى الاحياء المتخلفة ونتيجة للازدحام والضوضاء تقل ساعات النوم ، ففى دراسة لمستوطنى أحد الاحياء المتخلفة من الزنوج فى نهاية الحرب الثانية اتضح أن السكان ينامون أقل من خمس ساعات يوميا ابان الليل ، وفى دراسات لأحياء متخلفة فى شيكاغو وواشنطن ونيويورك ومدن أمريكية كبرى شمال الولايات المتحدة اتضح أن الاطفال يعودون من المدرسة ليلعبوا فى الشوارع ثم يعودون للمنزل لتناول الطعام فقط ومنها للشارع مرة أخرى حيث يعودون منها فى النهاية الى المنزل للنوم أو مشاهدة التلفزيون .

أما البالغون فانهم يعانون من التوتر والقلق الذى يتبدى عادة فى الادمان على الخمور التى تفصح عنها الاضطرابات الاسرية كذلك ، وفى هذه الاحياء المتخلفة حيثالازدحام الرهيب تتعدد المشكلات ، ويلقى بريز تبعة المشكلات الحضرية على الطوفان المستمر للبشر بغض النظر عن قدرة المدينة على استيعابه ، وقد أوضحت الدراسات التى تمت فى عدة أحياء متخلفة فى احدى المدن الاندنوسية أنه نظرالضيق المسكن وكبرحجم الاسرة يضطجع عادة كل ثلاثة أو أربعة أشخاص فى فراش واحد .

وقد افصحت دراسة الاحياء المتخلفة فى كوالا لمبور Kuala Lumpur عن نتائج متشابهة تجسد اثر **الازدحام** الرهيب داخل المسكن الذى يكاد يخلو من النوافذ تماما .

أما الاحياء المتخلفة فى مدن الصين فتعد بدورها مراكز **للأمراض**

الاجتماعية المصاحبة للكثافة السكانية الكبيرة كالانتحار ، ومن المدهش حقا أن معدلات الجريمة والمرض العقلى تعد أقل بالمقارنة بغيرها من المدن الغربية ، ففى الصين يزداد الاهتمام بالانساق القيمية والاخلاقية والدينية الطابع التى تدعم التنظيم الاجتماعى وتسانده .

٧ — يلخص باشام Basham حقيقة الوضع القائم فى عالم اليوم بأن **نمو السكان يتم الآن فى مدن** ، وأن ½ العدد الاجمالى لسكان هذه المدن يتحركون ليس تجاه المساكن المجهزة والاحياء آلتى كانوا يحلمون بالانتقال اليها بل الى مناطق متخلفة مكتظة بالسكان حيث يستأجرون مساكن ضيقة لا تكاد تستوعب أفراد الاسرة الواحدة بينما يتجه آخرون الى المناطق « الحكر » حيث يضعون أيديهم بصورة غير مشروعة على الارض الفضاء ويشيدون بيوت دون أن يسددوا الضرائب غير أن هذه المساكن تكون معرضة للازالة فى أى وقت وهؤلاء وأولئك قد جاءوا للمدينة فى الغالب لنقص فرص الحياة فى الريف يحدوهم الامل فى أن تقدم المدينة لهم حياة أيسر وفرصا حياتية **أفضل والملفت للنظر** فى الدراسات الحقلية التى أجريت فى ليما أن الانحراف فى الأحياء المتخلفة أعلى وأكثر تنوعا منها فى مناطق الحكر ، ومن المفيد أن نذكر أن مشاكل التخلف ونقص المساكن تتصلان معا فى حلقة دائرية فالتخلف يبدو أنه يعجل بنمط التحضر الذى يؤدى بدوره الى زيادة التخلف الامر الذى دفع هاجمللر Hagmullber للقول بأن **التحضر فى العالم الثالث هو سببا ونتيجة للتخلف المستمر والفقر المتزايد** .

٨ — يشير مكجى McGee الى الصورة المعاصرة للامتداد الحضرى والازدياد السكانى فى العالم الثالث حيث يبدو النمو الحضرى على اتصال غير وثيق بسوق العمل فى المدينة ، وهنا يكون التحضر التابع نتيجة للخبرة الاستعمارية التى اجتازها العالم الثالث ، كما أن هذا **التحضر التابع يصبغ** النظم والسكان والعلاقات الخارجية للبلدان النامية بصبغة التبعية ، وتبرز هذه الدراسات أنه بقدر **هامشية الناس** فى الاحياء المتخلفة فى هذه الاحياء البعيدة وضآلة أجورهم — التى تكفى بالكاد لشراء الطعام — بقدر ما يلجأون الى بيع قوة عملهم بأقل أجر ممكن فهم لا يملكون سواها .

والكثير من بلدان العالم الثالث كأمريكا اللاتينية تعانى من **تضخم أحياء واضعى اليد** التى تضم أعدادا كبيرة من المهاجرين الريفيين

وحثالة البروليتاريا حيث يجسد الحسينى (٨) كيفية ظهور هـــذه الاحياء بالقول انه عندما يبدأ بعض الذين يعيشـــون فى أحد الاحياء المتخلفـــة فى المدينة الرئيســـية فى تنظيم صفوفهم ويتحـــركون كجماعة ألى قطعة من الارض الفضاء التى قد تكون مملوكة للدولة ففى لمح البصر يظهر واضعوا اليد على تلك الارض ويبنون فوقها المساكن من مواد مؤقتـــة ، وفى الوقت الذى تفتقـــر فيه هذه الاحياء للخدمات يبذل السكان جهودا شاقة للحصول على اعتراف الدولة بالامر الواقع وهو ما يحدث عادة بمرور الوقت .

٩ — ينجذب المتخصصين فى الانثروبولوجيا الحضرية عادة لدراسة سكان الاحياء المتخلفة ومدن الصفيح وأحيـــاء « الجيتو » حيث تتسم هذه الاحيـــاء **بعزلتها الاجتماعية النسبية** التى تملى بدورها خصائص سكانية — سلالية أو اقتصادية — محددة وتمنح تلك الخصائص لهذه المنـــاطق هوية واضحة المعالم .

وقد ميز البعض امثال ليفين J. Levin وفريد M. Fried بين احيـــاء « الجيتو » المغلقة حيث تعيش بعض الاقليات كاليهود وآلزنوج وبين الاحياء المتخلفة التى تضم عادة سكانا قدموا للمدن (الصناعية) من مناطق ريفية ويتمسكون بثقافاتهم الفرعية .

وهذه الاحياء المتخلفة تمثل مجتمعات تحولية يعبر من خلالها السكان الريفيون من مرحلة ما قبل الصناعة الى الحياة الحضرية — الصـــناعية المعقـــدة ، ويرى ليفين وفريد أن مشكلات **التفكك الاسرى** والبطـــالة والمشكلات الاجتماعية والنفسية ومشكلات الاقليات والازدحام السكانى وغيرها تعد من الخصائص المميزة لهذه الاحياء .

١٠ — تكشف الدراسات التى أجريت عن الاطراف المزدحمة والاحياء المتخلفة فى آلمدن الكبرى عن غياب ألتخطيط الموجه لتحســـين أحوال سكان هذه المنـــاطق ، فقد درس هاندن Handin الاحياء المتخلفة الســـكنية السيئة فى بوسطن وأبرز أنه فى الوقت الذى تكاد تغيب فيـــه الســـياسة الاجتماعية تماما **تتدهور الاحوال** الاجتماعية والاقتصادية فى هذه المنـــاطق بصورة ملفتة للنظر .

ويعتقد ليفـين Levin وفريد Fried أن لهذه الاحيـاء المتخلفة المزدحمة بالسكان **وظـائف اجتمـاعية** من بينهـا أنها تعـد سوقا محليا للعمال **ذو المكانة المنخفضة** وغير المؤهلين للمدينة كما أن هذه الاحياء تعـد **بوابة الدخول الى المدن ذى التنظيم الحضرى ـ الصناعى المعقـد** حيث يتفشى الفقر ـ فى هذه الاحياء ـ الا انهـا تتسم بالاستقرار النسبى حيث تبذل محاولات للتوافق الاسرى كنتيجة لضيق ذات اليد وتتاح الفرصة للحـراك ألاجتماعى التدريجى للقوة العاملة من الريف الى المدينة الصناعية غير أن العـديد من سكان هذه الاحياء المتخلفة سيعجزون عن دفع ايجار السكن ويداومون على الانتقال من حى متخلف لآخـر نتيجـة لضـيق ذات ألبد .

وتينما يرى جانز Gans فى الاحياء المتخلفة « **قرى حضارية** » يرى البعض الآخـر انها تعد بمثابة « **جزرا حضرية** » تتيح فرصـا **للعـلاقات الاجتماعية الوثيقـة** بين افراد الطبقة ألعاملة فى المجتمع المحلى المتخلف حيث يتاح لهم ـ فيها ـ أن يالفـوا الحياة فى المحيط الحضرى الصـناعى بينما يرى ألفريق الثالث فى هذه الاحيـاء المتخلفة « **خلجـانا للامراض الاجتماعية** » « تضم المهاجرين للمدينة من مستويات طبقية دينا ولا ينبغى أن يغيب عن اذهاننا أن الاوضاع الاقتصادية والبنـاء ألطبقى يلعب الدور الاساسى فى تشـكيل بنية هذه المناطق . وتعـد حالة مصر حالة فريدة حقا ، فسكان (اقليم القاهرة الكبرى) الى جانب مدينة الاسكندرية يقدران بأكثر من ربع سكان الجمهورية فى الوقت الحاضر حيث يطلق بعض الثقاة على ألاقاليم الحضرية التى تمثل التحام عدة مدن ومدن كبرى معـا كاقليم القاهرة الكبرى « **مجتمعات حضرية** » ويرجع هذا التضخم الحضرى الى ارتفاع معدلات الهجرة الريفية وتحذر جانيت أبو لغـد من دراسـة **المتروبوليتانيات الفرعية** (ألتى تعطى مثالا لها بامبابة والجيزة) كمحـاولات مستقلة اذ أن هذه المحلات قد ظهرت نتيجة للامتداد المتروبوليتانى فى القاهرة ولا يمكن بحال من الاحوال فهمها الا فى ضوء هذا السياق .

ويتفق كوستللو Gostello مع ابو لغـد وبوترسن Potersen

(*) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ـ سكان الجمهـورية فى ٢٢ يناير ١٩٨٥ .

فى أن المهاجرين الريفيين للقاهرة يستقرون عادة فى أطراف المدينة فى الاماكن التى تتمتع بتجانس دينى وعرقى ومعدلات خصوبة عالية وهى مناطق تشبه مناطق الطرد الريفية التى وفدوا منها حيث يساعد المهاجرون الســابقون المهاجرون الجدد على التأقلم مع الحياة الحضرية .

ويلفت النظر الى الفـــروق الحضرية بين الدول فى الشرق الاوسط بقوله أن بعض الدول مثل ليبيــا تحارب بالفعل تجمعـــات المهاجرين على أطراف المدن نتيجة لمـــا يثار عن فاعلية الانتماء الاجتماعى (لهم) فى المناطق الحضرية .

بينما يرى انه منذ بداية الستينيات شهدت مصر تغيرات هامة لمست المجتمع الريفى والحضرى على حد سواء فى الوقت الذى اتجهت فيـــه كل التحـــركات الاجتماعية من مركز المدينة للاطراف حيث يصـــبح السكان فى الاطراف الحضرية أكثر تجانسا بعكس ما هو الحال فى لبنان (نتيجـــة لتعدد الايديولوجيات والصراعات) والطريف حقـــا أن التاريخ الاجتماعى للقهارة يشهد أن الاطراف كانت تضم المراكز الاقتصادية النشطة كالمدابغ وفابريقات الخل ومعاصر الزيوت والمغازل والمناسج تحيط بهـــا مناطق سكنية تعيش فيها الشرائح الفقيرة المجهدة .

ثانيــا : الدراســة الحقلية :

ينهض هذا الجزء من المقال الراهن على بعض نتائج خرج بهـــا الباحث من دراستين حقليتين طبقت فيهما الادوات ذاتها وهى صـــحيفة المقابلة (الاستبيان) فضلا عن المقابلات الحرة والملاحظة على مجتمعـين محليين من مجتمعات الاطراف المزدحمة التى يضمها اقليم « القـــاهرة الكبرى » وأول هذه المجتمعات المحلية منطقة شبرا الخيمـــة ويقع شمال العاصمة كامتداد لحى شبرا الآهل بالسكان وقد اختيرت (عزبة عثمان) فى شبرا الخيمـــة مسرحا للدراسة الحقلية وهذه العزبة هى منطقة سكنية تتصـــل بمدينة القاهرة بواسطة كوبرى علوى (أحمد عرابى) بينما تمتد العـــزبة (عرضا) حتى تتصل بغيرها من قرى محافظة القليوبية .

هذا بينما يقع ثانى هـــذه المجتمعـــات المحلية المدروســـة وهو حى

« بولاق الدكرور » غرب العاصمة كمنطقة وسيطة تربط امبابة بمدينة الجيزة وبغيرها من القرى القريبة التابعة لمحافظة الجيزة .

ولا يخفى على الدارس للمنطقتين أن المجتمعين المحليين استقرا بمساكنهما ومؤسساتهما ومرافقهما على الرقعة الخضراء التى كانت مخصصة قبلا للزراعة قبل أن تزحف العاصمة على هذه الاجزاء وتضمها نتيجة للزيادة السكانية التى تفوق المعدل المتوقع ونتيجة للهجرة الريفية الى الحضر وبخاصة من المحافظات القريبة .

وقد تمت دراسة عزبة عثمان بشبرا الخيمة فى الفترة من يناير حتى مارس ١٩٨٤ بينما تمت الدراسة الحقلية الثانية فى الفترة من يناير حتى ١٩٨٥ (*) وكان مجموع أسر عزبة عثمان ٣٥٠٠ أسرة أختيرت عينة منها على أبعاد منتظمة بنسبة قدرها ٢٠٪ من المجموع الكلى حيث بلغ عدد الاسر ٧٠٠ أسرة تم دراسة ٦٧٦ أسرة منها بنسبة تقدر بـ ٩٦ر٦٪ من حجم العينة المراد دراستها بينما بلغ عدد الاسر فى بولاق الدكرور حدا من الضخامة اضطر الباحث معه الى تحديد قطاعا كبيرا يتوسط المجتمع المحلى تماما بين شارع على اسماعيل وشارع ترعة زينين حيث بلغ عدد الاسر فى هذه المنطقة ٦٣٢٥ أسرة تم تحديد الاسر المدروسة منها على أساس ٢٠٪ من مجموع الاسر أو ١٢٦٥ أسرة تم دراسة ١٢٣٩ أسرة منها بنسبة تصل الى ٩٧ر٩٪ من العينة المطلوب دراستها ، وقد استخدمت صحيفة مقابلة (استبيان) موحدة مكونة من ٦٠ سؤالا لتسهيل المقارنة بين المجتمعات المحلية موضوع الدراسة بينما كانت المقابلة الشخصية تتم عادة فى مثل المبحوث حيث كانت الوحدة السكنية تختار على أبعاد متساوية (١ ، ٥ ، ١٠ ، ... الخ) فى منطقة شبرا الخيمة بينما درست كل أسر المنطقة المختارة والتى تمثل قلب حى بولاق .

وقد اكتفينا فى السطور التالية بطرح النتائج العامة لتأكيد بعض المعطيات النظرية أو المقارنة بين المجتمعين المحليين ، بينما أرجأنا الدراسة التفصيلية الى مؤلف لاحق بعون الله . ومن شأن العرض الذى بين ايدينا فى الورقة الراهنة اثراء الحوار حول الاطراف الحضرية ووظائفها الاجتماعية فى أحد المجتمعات الحضرية فى العالم الثالث هو اقليم القاهرة الكبرى .

(أ) **الخصائص الديموجرافية :**

ان أول ما يسترعى نظرنا هنا أن معظم أرباب الاسر فى المجتمع المحلى الاول (عزبة عثمــان) والثانى (بولاق الدكرور) من **الشباب الذين تقل اعمارهم عن ٥٠ عاما** (٩ر٧٠ فى عزبة عثمــان و ٦٤٪ فى بولاق) ويعنى هذا أنهم فى عنفوان قوتهم الانتاجية وانهم فى حالة الهجرة للعاصمة ينزحون اليها عادة فى سن صغير نسبيا حيث يستقرون فى الاطراف ، وقد أوضحت الدراسة الحقلية للمجتمعين المحليين ان معظم افراد العينتين **لا يتعــدى تحصيلهم الدراسى المرحلة الابتدائية** ، وبعبــارة اخرى فان نسبة أميــة أرباب الاسر المدروسة بلغت ٧ر٢٧٪ فى عزبة عثمان بالمقارنة بــ ٩ر٤٠٪ فى بولاق ويعنى هذا ان ثمة تفوقا ملحوظا فى الفرص التعليمية ــ التى تزيد عن مرحلة التعليم الالزامى ــ فى بولاق أكثر منها بالنسبة لعــزبة عثمان بينما يزيد معــدل الامية فى بولاق عنــه فى شبرا الخيمة . كما أن معظم افراد العينة **يدينون بالاسلام** (٥ر٩٠٪ من عينــة عزبة عثمان و ٨ر٩٤٪ من عينة بولاق ، وهى نتيجة تكاد تتمشى مع التناسب العددى بين المسلمين والمسيحيين فى الاحصاءات المختلفة على مستوى الجمهورية .

وقد أوضحت دراسة المجتمعين المحليين أن أكثر من نصف مجمــوع العينتين المختارتين قد **هاجروا من محافظات اخرى** وان الغالبية الساحقة تنتمى الى اصول ريفية .

ومع أنه كان من المفترض أن يتجه المهاجرون من « الوجه القبلى » الى بولاق ويتجه المهاجرين من الوجهالبحرى الى شبرا الخيمة فان النتائج التى بين أيدينا قد أوضحت أن معــدلات المهاجرين من الوجه البحــرى والقبلى تكاد تتساوى فضلا عن أن أزمة الاسكان فى القاهرة قد دفعت بالكثيرين ممن ضاقت بهم سبل العثور على مسكن الى اللجــوء للاطراف مبتعدين ــ رغما عنهم ــ عن الاحيــاء التى شهدت طفولتهم وشــبابهم المبكر ، ويعنى هذا ــ من بين أشياء أخرى ــ أن الوضع الراهن الذى أسهم فى تكوين هذه الاطراف ــ التى تكاد تضيق ذرعا بسكانها ــ لا يرجع فقط للهجــرة المستمرة اليها من المحافظات الاخرى بقدر ما يرجع كذلك الى الامتداد الحضرى للمدينة المتروبوليتانية نفسها لضم هذه المنــاطق حيث تتحول بدورها الى محلات مزدحمة كما أن **هجــرة « القــاهريين » انفسهم للسكنى فى الاطراف** نتيجة لتخمــة الاحيــاء الاصلية وازدحامها

بالسكان يؤدى الى سرعة تحضر هذه الاطراف ويزيد من سبل الاتصال بينها وبين الاحياء الاخرى فى المدينة المتروبوليتانية . وقد اتضح أن ابرز مبررات الهجرة للعاصمة تتمثل فى البحث عن عمل ووجود فرص طيبة وهذا يعنى من ناحية اخرى أن الاماكن الطاردة للقوى العاملة كانت تفتقر بدورها لهذه المميزات كما أن من الدوافع الاساسية للاستقرار فى هذه الاطراف **تشجيع الاهل والبلديات** ممن يسكنون بها منذ وقت طويل فضلا عن سهولة العثور على مسكن والقرب من محل العمل وقد بلغت نسبة هذه المتغيرات (مجتمعة) ٨٤ر٥٪ فى عزبة عثمان و ٨١ر٥٪ فى بولاق الدكرور .

(ب) المسكن فى الاطراف :

اذا كانت الحضرية تعنى عند ويرث Wirth — من بين اشياء اخرى — البعد الجغرافى بين محل السكن ومحل العمل فان نتائج الدراسة قد أوضحت أنه من بين كل خمسة أشخاص يعيشون فى عزبة عثمان يعمل نحو ثلاثة منهم **خارج المنطقة** بينما يعمل منهم نحو اربعة أشخاص من سكان حى بولاق كذلك خارج المجتمع المحلى ، ولا يشكل ذلك صعوبة تذكر اذ أن وفرة المواصلات فى المدينة ورخصها تقلل عادة من مشاكل البعد الجغرافى بين محل السكن ومكان العمل ،والجدير بالذكر أن الشوارع والحوارى الجانبية فى كلا المجتمعين المحليين ضيقة — نتيجة لغياب التخطيط فى الكثير من الاحيان — بينما تبدو المساكن القديمة غير متآلفة أو منسجمة مع باقى المنازل التى نصطف معها على الجانب نفسه ويبدو أن معظم المساكن القديمة فى الاطراف قد وجدت قبل التفكير فى دخول هذه المناطق ليحتويها « كردون المدينة » فتتحول بدورها فى النشاط الزراعى وتصبح مناطق حضرية **مكدسة بالسكان** تجسد التحضر السريع الذى يفتقر للمؤسسات الانتاجية والخدمية ويشوه المدن المتروبوليتانية بأكثر مما يعمل لصالحها . غير أنه من المفيد أن نذكر أن الغالبية الساحقة من العينتين المدروستين فى المجتمعين المحليين تقطن فى **مساكن مشيدة بالطوب الاحمر** ومسقوفة « بالمسلح » حيث يختلف هنا وضع مناطق الاطراف عن مناطق « الحكر » التى تتكون عادة من بيوت تبنى على أراضى للدولة أو مؤسساتها — من الطين أو الخشب أو الصفيح فى الكثير من الاحيان — حيث تتناثر هذه المناطق « الحكر » فى مداخل وخارج تخوم المدينة .

وقد افصحت الدراسة الحقلية عن انه من بين كل اربعة أشخاص تضيق (صدور) ثلاثة منهم بمشاكل الحي **ويتطلعــون الى الحياة فى مناطق اخرى** (معظمها من الاحياء غير الطرفية *) وهى من وجهـــة نظرهم « احسن كثير من هنا » فقد أفاد ٧٣٪ فى عزبة عثمان ، و٠٢ر٧٢٪ فى بولاق بأنهم يفضلون الاقامة فى أحيـــاء أخرى ومصدر الشكوى من الحى الذى يستقرون فيه حاليا يتبدى فى **نقص الخدمات والمرافق** (التعليمية — الصحية — الترفيهية — المواصلات ... الخ) ، وتصـــل نسبة من صرحوا بذلك الى ٨٦٪ فى عزبة عثمان فضلا عن ســوء الخدمة فى المرافق وسوء حالة المساكن **وانتشار الجــرائم** (التى تشـــكل ٧ر٨٤٪ فى عينـــة بولاق) ، والملفت للنظر أن نسبة لا بأس بها من مساكن الاطراف محرومة من ابسط الضرورات اذ أن ٨ر٤٪ من مساكن عينة العــزبة و ٤ر٥٪ من مســـاكن بولاق محرومة تماما من توفر دورات المياه ولك أن تتصــور كيف يقضى الرجال والنساء والاطفال حاجتهم الطبيعية كما أن ٤ر٦٪ من مســـاكن العــزبة و ٢ر٦٪ من سكان عينة بولاق لا توجــد بها مجارى مما يؤدى الى طفح المياه بصورة سيئة داخل المنـــازل ويؤدى ذلك لانتشار الامراض، فى الوقت الذى تفتقــر فيه ٢١٪ من مساكن العــــزبة ، و ٢ر١٠٪ من مساكن بولاق للمياه النقية .

ومن الملفت للنظر كذلك أن نسبة لا يســـتهان بها من عينة البحث تصـــل الى ٢ر١٣٪ فى عزبة عثمان و ٣ر٩٪ فى بولاق تقطن فى شـــقق مشتركة مع آخرين كما أن ٢٧ر٢٤٪ من مساكن العـــزبة مقابل ٧ر٣٥٪ فى بولاق مملوكة للسكان وهى نسبة لا بأس بها تدل على أن هؤلاء المـــلاك عادة من بين ابناء المنطقة « الاصليين » ولا تزيد هذه المساكن من أن تكون مساكن صغيرة الحجم وقديمة . ومع هذا فمن اليســـير ان نتتبع السمات الحضرية فى الاطراف اذ أن معظم المساكن تتوفر بها الاجهـــزة الكهـــربائية الحديثة كالثلاجات والغسالات وأجهزة التســـجيل ، فلدى ٤ر٥٤٪ من مســـاكن شـــبرا ، ٩ر٨٠ ٪ من مساكن بولاق توجـــد الغســـالات كما أنه لدى ٧ر٨١٪ من مساكن العـــزبة فى مقـــابل ٩٠٪ من مساكن عينـــــة بولاق تتوافر أجهزة البوتاجاز ، وفى ٢ر٦١٪ من مساكن العـــزبة فى مقابل ٧١٪ من مساكن بولاق توجد اجهـــزة تسجيل ، ولدى ٤ر٩١ من عينـــــة عزبة عثمان فى مقـــابل ٣ر٨٥٪ من مساكن بولاق تتوفر اجهزة التلفزيون .

(*) أى الاطراف .

وقد ذكر ٦ر٨٨٪ من أرباب الاسر فى العزبة ، و ٦٨٪ من أرباب الاسر فى بولاق بأن لديهم أقارب يقطنون فى الحى نفسه أو فى الاحياء المجاورة وهو ما يعطى انطباعا بأن المهاجرين للمدينة يكونون حلقة جاذبة لأقربائهم حيث يسكن الآخرون عادة فى المنطقة نفسها وأحيانا الحارة نفسها والمنزل نفسه ويشكلون معا « **نوايات فرعية** » تقترب فى طبيعتها وهويتها الثقافية من « النوايات الاساسية » الطاردة لهم ، الامر الذى يعد معطلا لعملية الذوبان فى المدينة وهم يتزاورون مع الاهل والاقارب والبلديات بصفة مستمرة ولا تتعدى فترة الانقطاع عن التزاور عادة شهرا بأكمله (٢ر٤٩٪ لسكان العزبة ، و ٨ر٦٦٪ لسكان بولاق) (١٧) .

٣ — الاسرة فى الاطراف :

اتضح أن معظم أرباب الاسرة فى المجتمعين المحليين من **المتزوجين** (٩ر٩٦٪ فى عزبة عثمان و ٥ر٨٩٪ فى بولاق) والاسرة سواء فى المجتمع المحلى الاول أو الثانى أسرة زواجية كما أن معظم المتزوجين فى المجتمع الاول من المقترنين **بزوجة واحدة** ، وتبلغ النسبة ٩ر٩٥٪ من مجموع المتزوجين فى المجتمع المحلى الثانى ٢ر٨٥٪ ، وليس هناك شك أن النمط الزواجى (النووى) الذى يعيش فيه الزوج مع زوجة واحدة وأولادهما يعد اكثر مسايرة للظروف الاقتصادية فى المجتمع الصناعى والحضرى (١٨) بينما يزداد الاحساس بوطأة الزواج الثانى وانجاب أطفال آخرين غير أنه من المفيد أن نذكر فى هذا المجال أن الاسرة فى المجتمعين المحليين هى أسرة يقل عدد أولادها عادة عن خمسة أطفال ، ومع هذا فان ٦ر٣٧٪ من أسر عزبة عثمان ، ٧ر٣٢٪ من أسر بولاق يبلغ أطفالها ٥ أطفال فأكثر فاذا تصورنا أنه من بين كل ثلاث أسر تنجب اسرة منها على الاقل خمسة أطفال فأكثر فى مجتمعات الاطراف لوضحت لنا حقيقة الوضع القائم ، والجدير بالذكر كذلك أن الكثير من مساكن الاطراف التى يقطن فيها أفراد المجتمع المحلى الاول تتكون عادة من حجرة أو حجرتين حيث تصل هذه النسبة الى ٦ر٥٩٪ بينما تصل الى ٧ر٥٤٪ فى بولاق . ومع هذا فان كثرة الاولاد مع صغر سن الزوجين واحتمال الحمل (المتكرر) للزوجة قد دفع ٢ر٧٢٪ من مجموع الاسر فى العزبة ١ر٧٠٪ من أسر بولاق الى **استخدام الوسائل المختلفة لتنظيم الاسرة** ، (وهى نسبة كبيرة الحجم نسبيا تزيد عن النسبة التى تنظم الاسرة على مستوى الجمهورية وان كنا نبدى تحفظا على زيادة معدلها هنا فالواقع أن الاسر تبالغ عادة

فى الادعاء باستخدام هذه الموانع) ولا يمكن تفسير ذلك ألا فى ضوء الاسباب التى أبدتها الاسرة نفسها ، فقد برزت الاسباب الاقتصادية والصحية كدوافع للتنظيم ويعنى أولهما أن الاسرة تقدر التكلفة الاقتصادية للضيف القادم كما تعلن صراحة عجزها عن الوفاء بهذه الالتزامات ، أما المتغير الثانى فيعنى أن حمل الزوجة يشكل تهديدا لصحتها وقد بلغت نسبة هذين المتغيرين معا فى عزبة عثمان ٤ر٥٥٪ بالمقارنة بـ ١ر٦٦٪ فى حى بولاق ، والملفت للنظر أن نسبة لا بأس بها تصل الى ثلث مجموع الزوجات فى المجتمع المحلى الاول هن من الاقارب .

ويميل معظم ارباب الاسر فى الاطراف الى **قضاء وقت الفراغ مع اسرهم** ومع ان هذا يعنى أن الاسرة متماسكة نتيجة للانسجام والمودة (١٥) مما يعنى مزيدا من الاهتمام بالتنشئة الاجتماعية للابناء فهو يعنى كذلك أن الاسرة تقنع بالجلوس فى المنزل لمشاهدة التلفزيون أو تخرج للنزهة او لزيارة الاقارب توفيرا للنفقات التى يمكن أن يتكبدها رب الاسرة فى حالة الجلوس على المقهى أو الخروج بصحبة الاصدقاء والزملاء ، وتصل نسبة هؤلاء فى عزبة عثمان ٦ر٧٧٪ وفى بولاق ٤ر٨١٪ وقد أفاد ٢ر١٤٪ من أرباب الاسر فى بولاق بأن هناك مشاكل أسرية بينهم وبين الزوجة أو الابناء أو الوالدين ، وأتضح انهم يلجأون عادة للاصدقاء والاقارب للمساعدة فى التغلب على هذه المشكلات ، وفى عزبة عثمان يستشير الشخص عادة الاصدقاء والمعارف والجيران لمواجهة المشكلات الاسرية أو المشكلات الشخصية التى تواجهه .

٤ — الحالة المهنية والدخل :

اذا تتبعنا الحالة المهنية التى يعمل المبحوثون بها فى المجتمعين المحليين موضوع الدراسة لاتضح لنا أن غالبية أفراد القوة العاملة فى الاطراف يعملون بالمهن اليدوية والفنية (البسيطة) والمهن الكتابية والتجارة ونسبتها معا ٩ر٨٠٪ فى عزبة عثمان (شبرا الخيمة) بالمقارنة بـ ٦ر٧٧٪ فى بولاق ، وتفصيل هذا التصنيف المهنى كالآتى :

نوع المهنـــة	عزبة عثمان	بولاق
المهن اليدوية البسيطة	٢٣ر١	٢٧ر٨
المهن الفنيـــــــة	٢٧ر٤	٢٢ر٤
التجـــــــارة	١٢ر٢	١٣ر٣

وغنى عن القول أن معظم افــراد العينتين ممن يعملون **بالمؤسسات الصناعية والخدمية** (بالقطاع العام والخاص) حيث يعملون بهـــا **كعتالين أو عمالا غير مهرة** كما أنه من الشـــائع ــ لظروف الهجرة العمالية للقـــوة العاملة المدربة الى الدول النفطيـــة أن تعطى هذه المؤسسات للعمـــال الذين يشـــغلون مكانات دنيـــا فرصة الحـــراك المهنى ــ اذا أحست بجدية العامل وسرعة استيعابه ــ الى المهن الفنية (البسيطة) ، وقد لاحظ الباحث أن مصانع النسيج والزجاج بشـــبرا الخيمـــة ومصانع تعبئـــة الميـــاه الغازية بالدقى والدخان بالجيزة تستوعب الكثير من العمـــال ، حيث اتضح أن نحو ٢٥ ٪ من عينة بولاق ممن يعملون بهذه المؤسســات الصناعية بالفعل .

وقد أوضحت نتائج الدراسة أن نسبة تصل الى ٥ر٧ من عينـــة عزبة عثمان ، و ٣ر١٢ ٪ من عينة بولاق من المشتغلين بمهن « اضافية » بعد مواعيـــد العمل الرسمية ، ويعنى هذا من جهة أن الدخل الاصـــلى قاصر على ســـداد الالتزامات الحياتية غير أنه يعنى من جهـــة اخرى أن التطلعات فى المدينـــة لا تقف عند حـــد ، ومع هذا فنحن نبدى شكوكنا فيما يتعلق بضآلة هذه النسب التى يفترض أن تزيد عن ذلك .

وغير خاف أن سكان هذه الاطراف المزدحمة ينتمون كذلك لآباء يعملون عادة بالحرف البسيطة التى تضم الزراعة والتجارة الصـــــغيرة المحدودة

والاعمال اليدوية والفنية البسيطة اذ يبلغ مجموع هذه النسب مجتمعة٥ر٧٨٪ فى عزبة عثمان و ٦ر٧١٪ فى بولاق وهذا يعنى بدوره أن الابنـــاء قد ورثوا من الآباء المهن نفسها (باستثناء الزراعة) ومما يساعد على ذلك انخفاض مستوى الابناء التعليمى ونقص كفاءتهم وتدريبهم المهنى ، ومن الشواهد على ذلك أن ٧ر٣٨٪ من الآباء فى عزبة عثمان كانوا ممن يعملون بالزراعة ولا يدع هذا مجـــالا للشك أن الزراعة كانت من بين الانشطة الرئيسية فى الاطراف الى المدينة (ويزداد معدل تحضرها) كما يعنى ذلك ايضـــا أن الذين هاجروا للمنطقة من مناطق ريفيـــة كانوا ينتمون لآباء يشتغلون بالزراعة ويعانون بدورهم من البطـــالة والبطالة المقنعة (٢٠) .

ويفصح توزيع دخل الاسرة على بنود الانفـــاق المختلفة من مسكن ومزاج وتعليم ومواصلات وغيرها عن أن **الطعام يستنزف القدر الاكبر من دخل الاسرة** اذ أن ٧٠٪ من عينـــة عزبة عثمان ينفقون نصف دخولهم فأكثر على الطعام وحده اى أن الطعام يستهلك الجزء الاكبر من دخولهم كما أن ٢ر٩٠٪ من عينـــة بولاق تعـــانى من المشـــكلة نفســـها ، وغير خاف أن الاجور فى المؤسسات الصناعية بشبرا الخيمة تعد افضل (قليلا) من مثيلتها التى يحصل عليها ارباب الاسر فى بولاق غير أن هذه النسب الكبيرة من أرباب الاسر فى الاطراف التى تكاد تنفق معظمدخولها على لقمـــة العيش فحسب ، تجسد مأساة حقيقية ، ومن الطبيى أن ينخفض ما تتكبـــده الاسرة من نفقات على المسكن والمواصلات العامة فى الاطراف بصـــورة لا تتعـــدى عادة ربع الدخل الشـــهرى (٢ر٨٨ ٪ فى عزبة عثمـــان ، ٨ر٧٦ ٪ فى بولاق) غير انه ليس بخاف أن ما تنفقـــه الاسرة على التعليم وحده (المصروفات والادوات المدرسية والدروس الخصوصية والمجموعات الدراسية) يكاد يلتهم جزءا كبيرا من دخل الاسرة فى الاطراف ناهيـــك عن النفقـــات المخصصة لاستهلاك الميـــاه والكهرباء والكيروسين والبوتاجاز وغيرها فضلا عن تكاليف الملبس والمزاج ونفقات العلاج والترفيه وغيرهما ، ومع ذلك فقد أجاب ٨ر٢٢٪ من أسر عزبة عثمان و ٨ر٢٠٪ من أسر بولاق بأنهم يتمكنون عادة من الادخار من دخـــولهم ومن أن الادخار هنا « نسبى » ويتفاوت من أسرة لاخرى ومن شهر لآخر كما يخضع للعديد من الاعتبارات الا انه مما لا شك فيه أن هذه الاسر لا تستدين — على أقل تقـــدير — من الآخرين ، بينما يمكن أن تهدد الفاقة غيرها من الاسر التى ليس لديهـــا أدنى رصيد مادى أو مدخرات .

٥ — الضبط الاجتمــــاعى :

الحياة فى الاطراف ليست بالقطع حياة بسيطة فالاقتراب من المدينـــة يصبح عادة مصدرا للمتاعب وبخاصة لأولئك الذين الفــوا حياة القــرية بل ان المتواتر أن المدينة تصــدر عادة للاطراف المزدحمة والاحياء المتخلفة العـــديد من **المشكلات والامراض الاجتماعية** ، ونظرة خاطفـــة الى قائمة الجرائم المنتشرة فى هذه الاطراف توضح هذه الحقيقة حيث تتصدر قائمـــة الجرائم المنتشرة فى شبرا الخيمـــة **المشــاجرات** حيث تتلاصـــق المساكن ويزداد هرج الاطفال مما يؤدى للاحتكاك المستمر ويتم التشـــابك بالعصى واستخدام الآلات الحـــادة وبخاصة اذا كان سبب المشاجرة يتصـــــل بما يمس الشرف أو يخدش الحيـــاء ، وتأتى السرقة فى المرتبــــة الثانية ثم النشل ثم ادمان المخـــدرات فالقتـــل **والاغتصـــاب** ، وفى بولاق تحتـــل المشاجرات المرتبة ألاولى ينها السرقة ثم المخدرات ومن بعـــدها النشـــل فالقتل ثم **الاغتصاب** •

اما عن أساليب الضبط الاجتماعى المتبعـــــة فى المجتمعين المحليين **فان اللجوء للشرطة (الضبط الاجتماعى الرسمى) يحتل المركز الاول** ، ومن بعده اللجوء للناس (الجيران — ألاصدقاء) ، ومن بعـــد ذلك كبـــار السن ممن يستدعون للتدخل فى هذه الحالة ويحتلون المركز ألاول ، ومن بعدهما رجال الدين ، وقد ظهر الى جانب ذلك اللجـــوء لاعضاء الاحـــزاب فى بولاق كوسيلة من الوسائل التى يلجـــأ اليهـــا أفراد مجتمع الاطراف فى حالة حدوث ألجرائم والرغبة فى مواجهة ألانحرافات داخل الحى المزاوجة بين الحـــلول الرسمية وغير الرسمية ، وقد يرجع سبب اللجـــوء للشرطة الى أن هذه الاطراف تضم العـــديد من البشر الذين ينتمون لثقافات مختلفة أو نزحوا من مناطق شتى •

٦ — القيم والاتجـــــاهات :

حين ســــأل الباحث المبحوثين عن اتجاهاتهم نحو بعض القضـــايا الحياتية للتعرف على أبعـــاد نسق القيم السائد فى الاطراف (من خـــلال استمارة الاستبيان والمقابلات الحرة) توفرت بعض الاستخلاصات التى يمكن الاسترشاد بها فى هذا ألشـــــأن حول السلوك الانجـــابى وجاءت استجابتهم اللفظية تؤكد عدم تفضيلهم لأحد ألنوعين (الذكور والاناث) قبل ولادة الزوجة على الآخـــر ، ومع ان هذه الاستجابة تحمل فى طياتها

قدرا متوقعا من (القدرية) حيث يعجز الانسان عن التحكم فى نوع الجنين كما تحمل قناعة تكشف عن التساوى بين النوعين فى شتى مجالات الحياة الاجتماعية ألا أن هذه الاستجابة اللفظية تبدو مخالفة لتوقعاتنا اذ أن نسق القيم التقليدى لا يزال وراء **تشجيع انجاب الذكور** ، وهناك نسبة ضئيلة فى الاطراف لا تكاد تتعدى ١٠٪ من مجموع أفراد العينة فى المجتمعين المحليين **تعارض بشدة الاستمرار فى تعليم الفتاة بعد مرحلة التعليم الالزامى** غير أن اثنين من كل خمسة أشخاص قد عارضوا اشتغال الفتاة أو وضعوا شروطا تقيد حراكها المهنى، ولعل ابرز هذه الشروط ان على المرأة أن تعمل فى مجالات بعينها تتمشى مع طبيعتها الانثوية كالتدريس والتمريض وترفض الميادين الاخرى تماما .

هذا بينما ابدى ٤٧ر٥٪ فى عزبة عثمان و ٤٩ر٢٪ فى بولاق اعتراضهم على اشتغال المرأة بالسياسة وترشيحها فى الانتخابات العامة ، ويعنى هذا ببساطة شديدة أن العمل السياسى من شأن الرجال وحدهم أما المرأة فانهم ينكرون عليها الانشغال به فهى والحال كذلك اقل كفاءة من الذكر ولا ينبغى أن توضع القضايا المصيرية للمجتمع فى أيديهم .

وغير خاف أن الاطراف تعد مسرحا خصبا **للغيبيات** فالسحر والحسد من بين المعتقدات الاساسية ويلجأ الناس الى اقامة جلسات الزار لعلاج الامراض العصبية والنفسية كما أن للممارسات الدينية وجلسات الذكر مكانة وأهمية كبيرة للنجاح فى الحياة الدنيا والآخرة فى نظر الناس .

٧ — المشاركة الاجتماعية :

ان رؤية سكان الاطراف للمشاركة الاجتماعية من الامور التى تدعو الى التمعن ، فالناس بصفة عامة لا يرحبون بالمشاركة الاجتماعية فى مناشط هذه المجتمعات المحلية (التى تجمع الناس من كل مكان) وهكذا تبدو الاطراف غاصة بالاغراب وبينما تكاد عقبات التنمية تتبلور فيما يفخصون عنه من مظاهر النقص الشديد فى المؤسسات والمرافق الانتاجية والخدمية — أو سوء الخدمة — بصورة تقلل من فاعليتها او جدواها فانهم ينتظرون

عادة أن تهبط عليهم الاصلاحات وأن تزال العقبات « حتى تنصلح الاحوال » فعدم توافر المركبات العامة وعدم رصف الشوارع وعدم توفر المجارى بالمنطقة يستلزم كسح المخلفات والفضلات من المنازل والشوارع بصفة مستمرة ، وانتشار المياه القذرة الراكدة فضلا عن اكوام القمامة فى كل مكان يهددالسكان بانتشار البعوض والامراض الوبائية كما ابتليت منطقة بولاق فضلا عن ذلك بعدم وجود كوبرى علوى يربط المنطقة بحى المهندسين مما يضطر الاهالى لعبور خط السكة الحديدية معرضين ارواحهم لخطر القطارات والحوادث المترتبة عليها .

وقد طرح سؤال للتعرف على مدى استعداد الناس للمشاركة فى حل مشكلاتهم التى تقف عقبة فى وجه التنمية المحلية فأفاد ٣٦ ٪ من مجموع افراد عينة عزبة عثمان بأن على الدولة وحدها يقع عبء معالجة مشكلات المجتمع المحلى والنهوض به فى مقابل ٤٢ر٢٪ فى حى بولاق بينما ذكر ٢٦ر٩٪ فى العزبة بأن عليهم وحدهم « على عاتق الناس انفسهم » يقع عبء التنمية المحلية فى مقابل ٩٪ فقط فى بولاق ، ويأتى اخيرا الحل — الاكثر واقعية المتمثل فى أن على الدولة والناس معا يقع عبء التنمية ، وتشكل هذه النسبة ٢٣ر١٪ مقابل ٤٨ر٨٪ فى بولاق وقد طرحت هنا فكرة مخاطبة الجهات المسئولة بالاضافة الى جمع التبرعات من أهالى المنطقة (٢٣) .

وقد اتضح أن نسبة لا تكاد تتعدى خمس أفراد العينة فى المجتمعين تشارك فى **جمعيات اختيارية** وهذه الجمعيات هى اما جمعيات (اجتماعية) تؤدى لهم خدمات فى المناسبات المختلفة كالوفاةوالمرض والعجز والشيخوخة وغيرها ، وتصل هذه المشاركة الى أدنى حد لها فى عضوية الاحزاب السياسية . أما عن المشاركة فى الانتخابات العامة فان معدل الذين يشاركون عادة فى الانتخابات لا يتعدى ٤٧ر٤٪ فى بولاق ويعنى هذا ببساطة أن أكثر من نصف سكان الاطراف لا يشاركون مطلقا فى التصويت على القرارات المصيرية الخاصة بالمجتمع القومى .

وغير خاف أن **الامية وغياب الوعى يقفان وراء ظاهرة اللامبالاة والعزوف عن المشاركة السياسية** بالصورة التى تشير اليها هنا والملفت للنظر كذلك أن من اسباب عدم المشاركة فى الانتخابات بالنسبة لـ ٩٥٪

من مجموع أفراد العينة من أرباب الاسر فى عزبة عثمـــان عدم الدراية وظروف العمل حيث تقف هذه المبررات وراء نقص المشاركة الســياسية بينما أجاب الاشخاص المشاركون بأنهم يؤيدون عادة انتخاب الشــخص المتعــلم (تعليما عاليا) والذى يحظى بمكانة اجتماعية عاليـــة ، ومن الطريف أن البعض يضيفون (الى هذه الخصائص) الثراء والتدين كصفات لابد من توافرها فى القائد أو الزعيم السياسى .

ثالثــا : الوظيفــة الاجتماعية للاطراف :

تفصح النتائج التى أفرزتها الدراسة الحقلية عن أن الاطراف تؤدى مجموعة من الوظائف الاجتماعية نبرزها فيما يلى :

١ — تضم مجتمعات الاطراف عادة **ثلاث شرائح من السكان :**

(أ) **الشريحة التى نشأت أصلا فى المجتمع المحلى** حين كان النشــاط الاقتصادى فيه ينهض على الزراعة وقبل أن تزداد فيه اليد الطولى للمدينة المتروبوليتانية ليصبح احد تخومها أو أطرافها فيستوعب بالتبعية اعــداد هائلة من قوتها العاملة .

(ب) **الشريحة التى هاجرت من محافظات أخـــرى** — فى الوجهين القبلى والبحرى — لاسيما من المحافظات القريبة حيث تنتمى غالبيـــة هذه الاسر الى مناطق ريفية طاردة للسكان نتيجة لنقص فرص العمل بها .

(جـ) **الشريحة « القاهرية »** النشأة التى قذفت بها المدينة للاطراف نتيجة لفشلها فى العثور على المسكن فى الاحياء التى تعيش فيها .

٢ — ان العلاقات الاجتماعية فى الاطراف علاقات وثيقة (حتى وان احتدام الخلاف بينها أحيانا) سواء بين الاسر التى تعيش داخل المجتمــع المحلى أو بين هذه الاسر واقاربها ومعارفها فى مجتمعات محلية أخـــرى داخل اسوار المدينة المتروبوليتانية أو بين هذه الاسر والبلديات والمعــارف فى القرى التى نزحوا فيها وهذا ينفى عن سكان الاطراف شــبهة العــزلة والعلاقات السطحية هذه الآراء التى طالما رددها علماء الاجتماع الحضرى « الكلاسيكيون » .

٣ — الاسرة فى الاطراف أسرة زواجية تعـد الانجـاب أحد اهم وظائفها فالزوجة عاده لا تعمل خارج المنزل ولكن الاسر لاسباب أقتصادية او نتيجة لاعتلال صحة الزوجة تستعين عادة بالوسائل الصناعية لتنظيم الاسرة وبينما يرحب الشـباب فى الاطراف بالزواج من اقارب فان أسرة الاطراف يسـودها التماسك عادة بينما يتدخل الاهل والاصدقاء والجيران سريعا لحسم أى خلافات فى المحيط الاسرى وينفى هـذا بدوره عن أسر اطراف المدينـة شبهة التفكك والتصـدع الاسرى واهمها عملية التنشئة الاجتماعية وقد يحدث الاهمال فى الرعاية نتيجة لتزايد عدد الاولاد وليس نتيجة لعزوف الاسرة عن القيام بوظائفها الاساسية .

٤ — تتميز مجتمعات الاطراف بأنها مجتمعات شـابة تزداد فيهـا الاعمار الوسطى فضلا عن صغار السن (ممن تقل أعمارهم عن ١٥ سنة) غير أن ارتفاع معدل الامية وانخفاض الرعاية الصحية ونقص التـدريب المهنى يستتبعه انخفاض الدخول نتيجة لامتهان القـوة العـاملة للمهن اليدوية والفنية البسيطة .

٥ — رغم أن بعض أطراف المدينة المتروبوليتانية (مثل مجتمع شبرا الخيمـة) يزخر بالعـديد من المؤسسات الصناعية التى بدأ استقرارها منذ نهاية الحرب الثانية الا أن بعض الاطراف الاخرى (مثل مجتمع بولاق) لا يكاد يشهد وجود مثل هذا الحشد من المؤسسات الصـناعية غير أن القوة العاملة فى الاطراف تحتل عادة **قاع السـلم المهنى** فى هذه المؤسسات الصناعية .

ويعمل غالبيـة أفراد القوة العاملة فى الاطـراف خارج مجتمعات الاطراف نفسها حيث تتوفر المواصلات العامة السريعة والزهيدة التكاليف ويبدو أن عامل الاطراف لا يهمه كثيراً مدى قرب أو بعد مكان العمل عن محل السكن بل انه يهتم بالاكثر بالحصـول على العمل المناسب ذو الاجـر المرتفع لاعالة أسرته .

٦ — تتمكن الاسرة عادة فى مجتمعات الاطراف من الحصـول على المسكن ذى القيمة الايجارية المناسبة لامكانياتها الاقتصـادية كما أن معظم

المساكن تستعين بالاجهـزة الكهربائية الحـديثة كالثلاجة والغســالة والتلفزيون التى تشتريها عادة بالتقسيط أو من خلال ادخار ثمن الجهـاز المطلوب شراؤه .

٧ — ان مجتمعات الاطراف التى تمتد يد المدينة المتروبوليتانية اليها لتضمها تعـد محرومة فى الوقت نفسه — نتيجة لغيـاب التخطيط — من المرافق والخدمات العامة — صحية وتعليمية وترفيهية وغيرها — كما تعانى هذه المناطق من سوء الخدمة فى المرافق الموجودة ، ومن الواضح أن الكثافة السكانية الرهيبـة فى هذه المناطق لا يصاحبها اهتماما مماثلا بالخـدمات والمرافق بينما تعـد هذه المناطق مجتمعات محلية مستهلكة اكثر منهـا منتجة اى أن التحضر هنا الذى يحـول الرقعة الخضراء الى منطقـة مزدحمـة بالسـكان يعـد وبالا على المدينـة (الاصلية) والمناطق الطرفية معا .

٨ — بينما يشكو الناس من غياب التنمية المحلية فان **الاحســاس العـام مؤداه أن على الدولة وحدها يقع هذا العبء** ، وقد يكابر النـاس فيذكرون بأنهم سيتولونها بأنفسهم دون أن يفعلوا شيئا ، أما من يروا بأن هذه مهمة الجهـود الذاتية والحكومية معـا فهم ليسوا أغلبية سـكان هذه الاطراف مع أنهم أكثر الفئات واقعية ، ولا ينبغى أن ننكر أن تجـاهل الدولة لسكان هذه المناطق يؤدى الى تحول هذه الشرائح الى قوة بشرية رافضة ساخطة تشعر بالظلم الاجتماعى فيسهل اصطيادها لمسـالك غير مأمونة العواقب .

٩ — أن العـديد من الجرائم المنتشرة خاصـة فى المدن من سرقة ونشل وادمان للمخدرات واغتصـاب هى من نصيب هـذه الاطراف التى يستقر بها العديد من أرباب الجرائم والعصابات ، والملفت للنظر أن الناس يفضلون عادة الاستعانة بالاصدقاء والجيران ورجال الدين و الاسـاليب الاخرى غير الرسمية للوقوف فى وجه هذه الانحرافات السلوكية .

١٠ — لا زال نسق القيم التقليدى يضع المحاذير فى وجه تعـليم واشتغال الفتاة ومشاركتها الاجتماعية ويقدس الغيبيات حيث تختلط بعضها

بالمقدسات الدينية مهيمنة على عقول نسبة ليست بالقليلة من سكان هـذه المناطق .

١١ — تعد هذه الاطراف مناطق تكاد تختفى فيهـا **النعرات العرقية والاقليمية والقرابية** وان لم يفقـد النـاس رغبتهم فى أن يعيش أقاربهم ومعارفهم وبلدياتهم فى الحى نفسـه أو حتى فى البيـوت نفسها (التى يقطنون فى أحد مساكنها) ولكن دون أن تشـكل هذه الشرائح جمـاعات متحدة متماسكة على أسس عرقية أو اقليميـة أو تنهض على غير ذلك من الاسس التى يزداد الاهتمام بترسيخها فى المجتمعات المحلية البسـيطة ريفية أم بدوية .

١٢ — ان الجمعيات « الاجتماعية » الاختيارية الطـابع كالجمعيات المهنية أو الدينية أو التى تقدم مساعدات فى حالة حدوث الازمات والكوارث فضـلا عن أن الجمعيات التى تعرف باسم « جمعيات النقـود » — التى يشارك فيها الاصدقاء والجيران والمعارف ليحصل كل منهم بصورة دورية على مبلغ (مجمـد) يعد بدوره محصلة للمبالغ التى قام الشخص بدفعها فى صورة أقساط منتظمة (يومية أو اسبوعية أو شهرية) — تستقطب العديد من سكان هذه الاطراف حيث تعوض هؤلاء عن المساندة القريبة والعرقية والمادية التى افتقدوها بعد انتقالهم للاطراف .

رابعـا : الاطراف الحضرية فى المتروبوليتانيات المصرية :

« مقـارنة النتـائج »

يرى بعض الثقاة أن علم الاجتماع الحضرى ينبغى أن يتم فى السنوات القادمة بدراسة **البناء الاجتماعى الحضرى** الذى يتأتى من خلال دراسـة انماط عديد من المدن مما يتيح الفرصة لظهور علم اجتماع حضرى مقـارن لطبيعـة البنـاء الاجتماعى الحضرى وينطبق هـذا الكلام عينـة على الانثروبولوجيا الحضرية نفسها لكى يثبت أقدامها (٢٤) ولابد والامر كذلك من العودة الى مناقشـة نتائج دراستنا فى ضوء نتائج الدراسات الاخـيرة المتاحة اذ تتفق معظم الدراسات السوسيوانثروبولوجية والديموجرافية التى

تناولت المدينة المصرية فى ان القرويين الذين ينتمون الى هذه المدن — وعلى الاخص القاهرة ينتمون للفئة العمرية الشابة ويقيمون بمجرد وصولهم للمدينة فى مناطق الاطراف التى تتعايش فيها أساليب الحياة الحضرية والريفية فضلا عن التجانس والروح الدينية الراسخة التى تظهر فى الالتزام بأداء الفروض الدينية والخصوبة المرتفعة التى تميز الريف المصرى حيث تلعب الاسرة والقرابة والجماعة الاجتماعية دورا اساسيا بينما تنمو هذه الاحياء بطريقة عشوائية حيث نجد الأزقة الضيقة والحوارى المسدودة الملتوية والمتعرجة ، وتاريخ العاصمة فى نظر هؤلاء الثقاة هو امتداد للاطراف بقدر ما هو تكثيف سكانى للداخل فقد اتسعت المدينة من المقطم الى الهرم ومن حلوان الى شبرا .

وتبرز هذه الدراسات بجلاء انه فى الاطراف تسكن عادة **الطبقة الدنيا** ، ففى أقصى الجنوب نجد اجزاء من بندر الجيزة ونلمس قطاعا يمتد من مصر القديمة الى السيدة زينب وفى أقصى الشرق نجد الخليفة والحسين ، وفى أقصى الشمال نجد أطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل ثم امبابة وفى وسط المدينة بولاق والسبتية والى جانب الجيوب الثانوية فى بولاق الدكرور وبين السرايات حيث المبانى العتيقة والشوارع التى تخلو من التخطيط والكثافة السكانية العالية وانخفاض مستوى المعيشة والحجم المرتفع للاسرة . وحيث تختلط المساكن بالمنشآت الصناعية والمحلات التجارية ومخازن الجملة وتجار الحرف اليدوية والمؤسسات المخصصة للصناعات الثقيلة وبعض المعاهد والكليات الجامعية بينما تعيش الطبقة العليا والوسطى فى معظم المناطق القريبة من النيل (٢٥) .

وقد أفصحت احدى أبرز الدراسات التى أجريت عن اطراف مدينة الاسكندرية أن سكان الاطراف اصغر سنا كما ترتفع نسبة الامية فضلا عن نسبة من لم يحصلوا على شهادات دراسية بينما ينخفض دخل الاسرة ونصيب الفرد من الدخل الشهرى .

وقد اتضح أن المتوسط العمرى لكل من الازواج والزوجات فى مناطق الاطراف أقل منه فى المدينة وأن معدل الخصوبة يتزايد كلما اتجهنا للاطراف ومع أن حجم الاسرة يميل للاتساع النسبى فان الاتجاه للانكماش يعد من أهم مظاهر التغير .

وقد أوضحت النتائج الحقلية أن التزايد النسبى للذكور عن الاناث يصاحبه فى الوقت ذاته انخفاض العمالة النسائية للزوجات وقد أبرزت الدراسة الراهنة أن الناس فى هذه الاطراف يشعرون بالتجانس كما يزيد الاحساس بالمشاركة الاجتماعية عند الفئات الوافدة من خارج المجتمع المحلى حيث كانت هذه الفئات الوافدة اكثر ميلا لتدعيم علاقتها بالجيران .

أما نمط العلاقات الاجتماعية « شبه الاولية » لسكان الاطراف فانعكس على تفضيل الجماعة القرابية وازدياد الاهتمام بزيارة الاهل والاقارب ، حيث يشعر الناس — كما هو الحال فى المناطق الريفية — بالتجانس وتكاد تكون حدود التسامح ضيقة عن مثيلتها فى المدينة ويزداد الحرص على سمعة الاسرة نتيجة لوطأة المعايير الاجتماعية .

ومن النتائج الطريفة التى أبرزتها الدراسة الحقلية أن الاسرة كانت هى محور الاهتمام الاساسى لاعضائها بصورة تتمثل فى « **التمركز حول المنزل** » و « **التمركز حول الطفل** » حيث يقضى الزوج والزوجة اغلب وقتهما مع الابناء فى المنزل .

وقد ابرزت دراسة أخرى تناولت احد اطراف العاصمة وأحد توابعها الزراعية أن انضمام مجتمع « الاطراف » الى كردون المدينة لم يؤدى الى لا شخصية العلاقات والى زيادة العقلانية وانعدام التجانس كما اعتقد ويرث كما أبرزت تلك الدراسة أن القوة العاملة قد اتجهت للاشتغال بالقطاع الثالث (قطاع الخدمات غير المنتج) نظرا لانتشار الامية ونقص التدريب المهنى بين أفرادها الذين يمثلون قطاعا عانى من البطالة المقنعة وقد حاول غالبية هؤلاء الافراد أن يخلقوا مجتمعا يقترب فى ثقافته من ثقافتهم التقليدية ، وهكذا تعددت الجماعات والثقافات الفرعية التى لا يبدو أن التصنيع كان العامل الحاسم فى جذبها للمدينة ، ومن شواهد ذلك أن الدراسة الحقلية قد أكدت وجود ٣ جماعات على الاقل فى مجتمع الاطراف جماعة تحركت من مركز المدينة للاطراف وقد أطلق الباحث على أفرادها Modern-urbanites وجماعة وفدت — من الوجه البحرى أو القبلى — الى الاطراف ولاسيما فى مناطق ريفية وقد أطلق على أفرادها Traditional urbanites ثم السكان (الاصليين) وهم سكان المنطقة التى كانت زراعية اساسا (فى الغالب) قبل أن يحتويها النمو الحضرى

لتتحول الى محلة متروبوليتانية تابعـــة نتيجة للامتداد الحضرى وقد أطلقت الدراسة عليهم Rural urbanites وخلاصة القـــول انه رغم الفـــروق الحضرية بين المدن الكبرى فى مصر فاننا نستطيع ـــ بصورة تعسفية بقصد التحليل والدراسة ـــ أن نتحـــدث عن خصائص اجتماعية وديموجرافيـــة لسكان هذه المدن والعواصم غير أن تفســـير نشأة هذه الاحياء فى ضـــوء التوجيهات الايكولوجية والتاريخية والديموجرافية من جهة أو فى ضـــــوء الوصف الاثنوجرافى او دراسة الثقافة الفرعية من جهة اخرى ليس بالامر المرغوب (فى الوقت الحاضر) والاجدى لنـــا أن نحاول تفسير هذه النشأة كذلك فى ضوء **الاوضـــاع الطبقية والعوامل الاجتماعية الاقتصادية** من جهة وفى ضوء التضخم والامتداد الايكولوجى للمدينـــة فى مواجهـــة هذه الاطراف المحرومة من جهة اخرى .

٢ — « الهامشـــية الحضرية » *

دراسة عن احياء جامعى القمامة بمدينة القاهرة

مقـــــــدمة :

١ — **الثقافة الهامشية هى ثقافة فرعية** لجماعة من الناس تستقر عادة على أطراف أحد المجتمعات المحلية فهى ثقافة نوعيـــة مخالفة للثقافة المحيطـــــة . وقد استخدم بارك R. Park مصطلح الانسان الهـــامشى marginal man للدلالة على الشخص الذى يتحـــرك خلال أكثر من عالم اجتمــــاعى Social world دون أن يكون مستوعبا تماما فى واحـــد منها (١) .

ويتفق بارك مع سيمل Simmel وفبلن فى أن الهامشية تعكس وضع الشخص داخل جماعة بعينها وما يتضمنه ذلك عادة من تناقض وجـــدانى وفشل فى التوافق مع الوسط الثقافى .

وقد حـــذا حـــذو بارك فى هـــذا المضمار Frazier ، وهيـــوز Ev. C. Hughes وطومسون Thompson وويرث L. Wirth (٢)

ويفهم من تحليل بارك Park أن ثمة علاقة بين مفهوم الهامشـــية والشور بالغربة فالشخص الهامشى يحس بالغـــربة والعزلة كذلك .

١ — حظيت الهامشية الاقتصادية بصـــفة عامة وهامشية العمـــل بصفة خاصة باهتمام البعض أمثال منجـــر Menger على أساس ما سبق أن ارســـاه Ricardo وسميث Smith من تحليلات فى هذا الشـــأن . واستمر هذا الاهتمام من خلال أعمال بكمـــان Beckmann ، فون ثينين Von Thuenen, ،ستيفن Steven ، كما يمكن تتبع جـــذوره الفـــكرية فى كتابات ماركس وجيفونس Jevons .

هذا بينما اهتم البعض أمثال برلمان Janice Perlman, ونان Nun, بالهامشية الاجتماعية (٣) .

ويعتقـــد نان Jose Nun ان **الهامشية هى الابن البـــار للتنظيم الراسمالى** حيث تعمل الراسمالية على تهميش قطاعات كبيرة من الفقـراء ممن يعملون فى مجال التجـــارة البسيطة والحرف الصغيرة والخـدمات الشخصية .

ويرى ويب Webb أن القطاع التقليدى هو القطاع الهـامشى سواء فى الريف أو الحضر بل ان المدن الكبرى فى الدول النامية تتميز — كما يذكر روبرتس Bryan Roberts (٤) بازدواجية مهنية وبازدواجية تكنولوجيـــة حيث تجذب اليها من الريف القوى العاملة غير المدربة والامية فتعمل بهـــا بالاعمال العرضية غير المنتجـــة ويتكالب الدخل المنخفض والامية ونقص الخدمات المقدمة وفقدان المشاركة فى تجسيد هامشيتهم الحضرية وعزلتهم الاجتماعية . وتشـــير سوسيولوجية **الانسان الهامشى** من وجهة نظر بارك للعمليات التى تعجل بظهور الصـــور المختلفة لانحسار أو نكوص التوافق والتكيف ، والملاحظ أنه بينما شـــغل دوركايم بالضغوط التى تدفع المجتمع الى نماذج يمكن التنبؤ بها سلفا فان بارك يلفت النظر للقوى التى تهـــددنا من خلال هذه الضغوط .

٣ — تتضمن الهامشـــية قدرا — ضئيلا أو كبـــيرا — من **الاغتراب** Alienation فالمجتمعات والجماعات الهامشية تعانى من الشـــعور بالغـــربة عن الثقافة المحيطة بها وعن الجماعات الاخرى من حولهـــا ، بل ان الهامشى فى اغترابه يخلق عالما بعيـــدا عنه ، وحينئذ لا يصـــبح العمل هو ذلك النشاط الانسانى الوجودى الخلاق بل أن هـــذا العمـــل جعله مغتربا عن طبيعته وعن ذاته أيضا (٥) بل انه فى ظل اغتراب الانسان الهامشى عن المجتمع المحيط به تصبح الحيـــاة الاجتماعية صـــورة لفقدان الحرية الانسانية (٦) ومن شـــأن هذا ان يجعل الانسان عازفا عن تنظيم العمل الجماعى للتغلب على الاحـــوال السيئة (مثل عدم العـــدالة ، والاستغلال) التى يقع بالضرورة تحت نيرها (٧) .

٤ — اذا تركنا جانبا النظرية التى قدمها لويس عن **العلاقة بين الفقر**

والهامشية فان التقارير الاخيرة للامم المتحـدة تؤكد ان ثمة علاقة موجبـة بينهما فقد أوضحت هولنستير Hollnsteiner فى مقـالها عن الخـدمات الاساسية لاطفال فقراء الحضر فى الدول النامية أن اطفـال الاحيـاء المتخلفة يواجهون الحرمان الدائم . فمع الفقـر والاكتظـاظ السـكانى وسوء انعـدام الخدمات الصـحية والتعليمية ونقص المساكن المناسبة وبازدياد معـدل الهجرة الريفية للمدن تتكون الجيـوب الكبرى من فقراء المدن ، وتتكلم هوللتز عن الفجـوة بين المخطط الحضرى وسـكان المناطق الهامشية حيث ترجعها بدورها الى اغتراب الاول عن فهم حيـاة الفقـراء فى هذه المناطق ، الامر الذى يستلزم استخدام المدخل متعـدد الابعـاد الذى يتضمن تقـديم خدمات فى مجالات رعاية الامومة والطفـولة وتنظيم الاسرة وانتاج الغذاء والتكنولوجيا المناسبة فضلا عن تبصير الناس بضرورة المشـاركة فى تنمية مجتمعهم المحلى (٨) ، وما من شك فى أن الظـروف الاجتماعية — الاقتصادية — السياسية تعـد مسئولة أساسا عن تهميش بعض شرائح المجتمع وتحديد مجال نشـاطهم الاجتماعى غير أن الشكل الاخير للشرائح والمناطق الهامشية هو من صـنع الهامشيين انفسهم من خـلال القرارات الحياتية اليومية التى يصنعونها بأيديهم (٩) .

ويرجع محجوب الحق الهامشية الى البؤس والحرمان الذى يتعرض لهما اكثر من ٤٠٪ من سكان الدول النامية ، فالهامشية هى الوجه الآخـر للفقـر **وفقدان العدالة الاجتماعية** (١٠) ففى القـاع تتعرض حيـاة هذه الشرائح للخطر نتيجة لنقص المياه ونقص الرعاية الصحية وانتشار الامراض وازدحام المساكن والافتقار للقدرة على السيطرة على الطبيعة او المشاركة فى وضع استراتيجية التنمية المحلية (١١) .

٥ — يربط جيرالد بريز Breese بين الهامشية والهجرة الريفيـة الى المناطق الحضرية فالمهنة الهامشية تعـد سمة عامة بالنسبة للمهـاجر الحضرى الذى ينزح للمدينة بينما يكون غير معد لشق طريقة بنجاح فى المجتمع الحضرى : وهو يؤكد أن نصيب الدول النامية اكبر من مثيلاتها المتقـدمة فى القطاع المعـروف بالخدمات « الهامشية » ومصداق ذلك أن معظم من ينزحون للحضر فى العالم ليس لديهم مهنة محـددة فهم يعملون حيثما اتفق . ويسكنون فى مساكن مؤقتة ، الامر الذى يؤدى لظهور الاحياء المعـروفة بالحافة الفضة Shanty towns التى تفتقر للخدمات وتنتشر فيها القذارة وتقترب من مدن الاكواخ Septic fringes ولا يبدو أن التصنيع هـو العامل الحاسم فى هجرة الريفيين الى المدن فالغالبية العظمى من المهاجرين تتجه عادة الى قطاع الخدمات والاعمال غير الفنية (الهامشية) (١٢) .

ويطلق على الاحيـــاء الهامشية أو احياء واضعى اليد فى الهند أحياء الباســـطى Bustees أو جاجى Jhugges أواهاتا Ahata وفى تونس Gourbis أو Bidonville وفى بغـــــداد Seritas وفى فنزويلا Ranchos ، وفى بيونس ايرس Villas M. Serarias ، وفى ساوباولو Barrios ، وفى بورتو اليجـــر Villas de Malacas وفى ســـــانتاجو Cuttampas Barrios clande Broblacones وفى كولومبيـــــا وفى كراكاس Cerros أو Quibradas وفى مكســـــيكوسيتى Jacales Tugorios أو Colonias proletarias فاذا أخذنا مثالا بالهنـــد فان أحيـــاء الباسطى Bustees or Bustis هى عبـــــارة عن اكواخ صغيرة مؤقتـــة يتم بناؤها بوضع اليـــد وتفتقر الى الخـــدمات كما تنتشر على طول الطرق الرئيسية المؤدية للمدينة والمناطق الفضـــــاء البعيدة والاجزاء المهجورة التى تشـــوه المدينة وتكاد تقتصر سكناها على الوافدين الجدد للمدن .

٦ — يرى بيريز أن المدينة كلما تضخمت وازدآد امتدادها للقـــرى المجاورة ظلت هذه القرى بمثابة جيوب هامشية تفتقـــر للخدمات والمرافق الحضرية بينما تنسلخ كذلك من وظيفتها الانتاجية المتصلة بالنشاط الزراعى وبعبارة أخرى فان الاحيـــاء الهامشية هى أحياء متخلفـــة تعانى من نقص فى الخدمات والمرافق وتوجـــد عادة على الاطراف أو فى بعض الاحيـــاء التى تتسم بخصائص ايكولوجية وعمرانية بعينها فهى تقـــوم عادة على أراضى مملوكة للدولة أو لاشخاص وتشيدعادة من المخلفـــات المكونة من مبـــــان متداعية او اكواخ صغيرة يأوى اليها مئات بل عدة آلاف من واضعى اليد . وعادة ما تجد الدولة نفسها مضطرة للاعتراف بالامر الواقع مع محــــاولة مدها بالخدمات الاساسية كالميـــاه والكهرباء أو خطوط المواصلات الحكومية السريعة . ومن ســـوء حظ هذه المناطق الهامشية انها تصبح مسرحا للفقراء وارباب السوابق والاكتظاظ السكانى ، وتؤدى الى المزيد من المشـــكلات الاجتماعية والصراعات الثقافية .

ان نمو المراكز الحضارية فى دول العالم الثالث يفوق المناطق الريفية فى هذه الدول غير أن هذه المراكز الحضرية تزخر بمدن الصفيح واحيـــــاء واضعى اليـــد التى تعكس جميعا ظروفا بالغـــة الســـــوء كما تعبر عن الهامشية الاجتماعية — الحضرية حيث تجذب الاعدآد الغفيرة من المهاجرين الريفيين للعمل بها . فالجيـــلالذى يهاجر الى المدينـــة بمفـــرده قد يظل محتفظ بالرواسب الريفية الى حد ما ، آلامر الذى يجعل من آلمدينة نموذجا

معقدا من المناطق المتخصصة داخل بنـــاء ايكولوجى اكثر عمومية (١٣) .

وهذا ما دفع الحسينى أن يذكر أن مفهـــوم الهامشية الاقتصــــادية والاجتماعية والسياسية ينبع من حقيقة اخفـــاق اعداد كبيرة من المهاجرين الريفيين فى آالالتحاق بأعمال صناعية ولجوئهم الى أعمـــال حرفية وضيعة فى هذه المدن ، وهى الحرف غير الانتاجيـــــة التى يطلق عليها عادة المهن « الهامشية » بل ان قطـــاع عمال الصناعة فى هذه الدول يظل عازفا عن المشاركة السياسية أو يحاول المشاركة فىظل محاكاة مشوهة للديموقراطية الغربية (١٤) .

٨ — تعبر **الهامشية الحضرية عن هامشـــــية اقتصاديةوسياسية وثقافية** ايضا ، وهذه تصبغ العلاقات بين المحلة الصغيرة والمجتمع الاكبر وتصبغ العلاقات بين العصبيات داخل المحلة الصغيرة نفســـها ، ويشـــير شـــــاك W. A. Shack فى معرض حديثه عن العلاقات القبلية والسلالية فى اثيوبيا أن سكان المدن الافريقية لا يفقدون هويتهم السلالية والقبليـــــة بل ان هذه الهـــوية تتدعم أو تقوى بمرور الوقت بينما تختلف هذه الصورة من مدينـــــة افريقية لاخرى . كما أن الهامشية السلالية لا تعنى بالضرورة عدم التنظيم والعلمانية والفـــردية بالصورة التى اشار اليها ويرث Wirth ويعنى هذا ان المدينة لا تغير الناس آليا أو تجعلهم حضريين بصورة واحدة . كما لاحظ شاك أن الجماعات السلالية التى تشـــارك أساسافى أحـــــد القطاعات النوعية للبناء المهنى الحضرى تتأثر بمدى اسهام هذه الجماعات والثقافة السائدة منجهة كما تتأثر بالتسهيلات التى تقدمها الاغلبية لتحقيق التكامل الاجتماعى والثقافى بينهما وبين هذه الجماعات السلالية من جهـــة أخرى (١٥) .

٩ — **ان الهامشية الايكولوجيـــــة** تتمشى مع هامشية اقتصـــــــادية وسياسية ودينية وثقافية وهكذا ، وعلى ســــــبيل المثال فان البروليتاريا الحضرية التى تشعر بهامشيتها تعـــد قوة للتغير ذات تأثير فعال يســـــهل دفعها بواسطة « الديموجوجيين » الى تيارات غير مأمونة .

وتتمثل الهامشية الاجتماعية كذلك فى ازدياد معدلات انحراف الاحداث والتصدع الاسرى والامية وضعف المعايير الاخلاقية والخيانة الجنســـــية والبغـــاء وغيرها من المشكلات الاجتماعية الاقتصادية التى تهـــدد الاسرة

وجماعات الرفاق والجيرة والامتثال لمعايير الضبط الاجتماعى ونسق القيم فى المجتمع .

وتتضح الهامشية الاقتصادية من خـلال تفاقم الفقر بالنسبة لبعض الشرائح وانخفاض مستوى الانتاجية وانخفاض المهـارة ونقص التدريب المهنى وعدم المساواة وارتفاع معدل الديون .

١٠ — ان نوعية الجماعات الهامشية تتضمن فئات عديدة — أشار اليها أبو لغد — ومنها :

(أ) **شريحة المهاجرين غير المهرة للمدينة** .

(ب) **الذين يقيمون فى أماكن خارج المدينة** او أطرافها كسكان المقابر .

(جـ) **النساء اللائى يعلن غيرهن دون أن يتـوفر لهن العمل المناسب** والمهارات اللازمة .

(د) **سكان المنازل المنهارة** ممن يعيشون فى خيام او أكواخ أو مساجد قديمة .

(هـ) **أطفال الشوارع** (الذين بلا عائل يرعاهم) .

وهناك بعض دراسات انثروبولوجية عن جماعات هامشيه مثـل دراسـة يونى ويكان Unni Wikan وايفلين ايرلى وغيرهما .

١١ — هناك اختلافات خاصة بطبيعة مناطق مستوطنات « **واضعى اليـد** » ففى أمريكا اللاتينية وجزر الكاريبى يتجه القادمون الجدد مباشرة للاحيـاء المتخلفة فى المدينة . وقد يحاول سكان الاكواخ اذا ساعدتهم الدولة ان يحسنوا أوضاعهم ويبدو أن المستوطنات التلقائية فى أفريقيا وآسـيا لا تدخل فى أطـار هذه الفئة حيث يتجه اليها المهاجرون من الريف مباشرة ليتصلوا بآخرين من الاسرة او القبيلة . فهذه المستوطنات هى اسـتراحة منتصف الطريق بين القرية والمدينة ، واذا كان ساكن الحى المتخلف يدفع ايجارا مقابل المسكن ، فان أحيـاء وضع اليد الحضرية هى أحياء بلا شرعية

ونادرا ما يدفع واضع اليد الحضرى ايجارا فى هذه الاحيـــاء والنتيجــــة هى الهبوط بظروف هذه المناطق الى الأسوأ .

وتعتبر **مدن الاكواخ** بالنسبةللمهاجر الى المدينة ، وخاصة فى افريقيا وجنوب شرق آسيا ، منطقة مستقبلة للمهـــاجرين ذات ملامح مالوفة فهى ليست مطابقـــة للمدينة بشكل كامل فى هذه المجتمعـــات المحلية الهامشية اقاربه وشـــبكة علاقاتهمما يؤدى الى التغلب على الصـــدمة الثقافية Cultural Chock

وفى سنة ١٩٥٨ ضمت ليما على سبيل المثـــال نحو ١٠٠ر٠٠٠ من واضعى اليـــد ما لبث أن زادوا الى ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة فى ســـنة ١٩٦٤ ، وفى آفريقيا وجنوب شرق آسيا أدتهذه الظاهرة الى تهديد الكيان الحضرى برمته .

وليس من اليسير أن نتطرق للحديث عن الهامشية الحضرية الا اذا وضعنا فى الاعتبـــار الظـــاهرة التى يطلق عليهـــا عادة التضخم الحضرى Over Urbanization والتى تنتج عن الزيادة الرهيبـــة غير المتوازنة فى سكان الحضر بالقيـــاس بالامكانيات الفعليـــة والاحتيـــاجات المتزايدة للسكان (١٦) .

١٢ — **بازدياد معدل التضخم الحضرى** تزداد الاحياء المتخلفة ومدن الصفيح ويشـــير الن مونتجوى الى مدن الاكواخ ، كصورة من صـــــور الاستيطان التلقائى (الهامشية) التى تقام بوضع اليد حيث تضم الفقراء ، فضلا عن الشرائح العاملة ألتى تحصـــل على أجور منخفضة وأولئـــك الذين ينزحون فى الاحياء الشعبية لكى يوفروا ايجار المسكن ويوفروا فى بناء منازل لهم فى ظل ظروف افضل فى المستقبل (١٧) .

وترى ابو لغد (١٨) انه فى داخل القاهرة هناك مناطق الاكتظـــــاظ السكانى والاسكان السىء ، والفقـــر ، والهامشية الاقتصـــادية أو العمل فى القطـــاع غير الرسمى (غير المنتج) . واذا كانت هذه القطـــــاعات الهامشية داخل مدينة اللقاهرة نؤكد لنا حقيقة أن مدن العالم الثـــالث خاصة تحتوى على عدة طرق للحيـــاة ليست كلها حضرية وليست كلهـــا حديثة فهى من وجهة نظرها توضح أن هذه القطـــــاعات لا يمكن ان تفهم الا فى ضوء علاقتها بالمدينة والنسق القومى بل والنسق (العالمى) وبعبارة

اخرى فى ظل علاقات التبعية للاستعمار . وقد أوضح حجازى أن وجود انساق اجتماعية وانماط حضارية جلبها معهم المهاجرون الى العاصمة يتمشى مع ميلهم الى تكوين جيوب ثقافية ، يحتفظون فيها بمعظم مقومات الثقافة الاصلية . الامر الذى يؤدى الى تعطيل عملية التكيف الاجتماعى والثقافى فى العاصمة (١٨) . كما استنتج عودة أن المهاجر الى مدينة القاهرة عادة ما يكون فى مرحلة الشباب وفى سن العمل ، الا أنه أمى ، وغير مدرب كما أنه أعزب ومتحرر من كثير من الالتزامات العائلية حيث تمثل هذه النوعيات من المهاجرين خطورة تهدد التنمية اللصناعية والاقتصادية برمتها (٢٠) .

١٣ ـ **أن المدينة تزحف عادة على الاحياء الهامشية لتضمها اليها**
ويذكر الحسينى مثالا طريفا عن أحد المناطق الهامشية فى مدينة القاهرة التى يطلق عليها « مدينة الاموات » وتقع فى الطرف الجنوبى الشرقى للعاصمة ففى حى ألامام الشافعى بدأ الاحياء يزحفون على الاموات ويطاردونهم حتى ان مدينة الاحياء تتدآخل مع « مدينة الموتى » بصورة قابضة للنفوس (٢١) .

ثانيا : « الدراسة الحقلية منشاة ناصر » :

تقع هذه المنطقة على أطراف العاصمة وسط مرتفعات المقطم وشرق طريق صلاح سالم . وقد نشأت هذه المنطقة عام ١٩٦٠ ويربو عدد سكانها على ٦٠,٠٠٠ نسمة . بينما يشكل مجتمع (الزبالين) نحو ٦٠٠٠ نسمة منهم ، وهم يشتغلون بمهنة جمع القمامة من بعض أحياء القاهرة ويشكلون مجتمعا محليا على مشارف منطقة الاطراف نفسها . ويؤدى ألنسق المهنى والايكولوجى الى هامشية هذا المجتمع وسكانه مما سيأتى ذكره فيما بعد .

ومن المعروف أن **الزبالين** يستقرون فى العاصمة فى بعض المناطق التى تقع على أطراف المدينة ، وهذه المناطق هى عزبة النخل ، المعتمدية ، والبراجيل ، وعين ألصيرة ، وطره ، وحلوان ، ثم منشية ناصر التى تعد اكبر التجمعات المعروفة بالنسبة لهم .

ويستقر مجتمع « الزبالين » فى ألمنشية فى حضن جبل المقطم حيث تمتد منطقة وضع اليد مكونة مجموعات متراصة من عشش الصفيح والحجارة

بينما تفتقر هذه الاحياء النقية للشرب والكهـرباء والمستشفيات والمدارس الحكومية كما تبتعد عن « خطوط » المواصلات العامة حيث تعـد عربات جمع القمامة وتصريفها الشكل الوحيد من اشكال الاتصال بالعالم الخارجى وتنتشر الازقة غير المرصوفة ، بل ان المرء ليجد صعوبة بالغة فى السـير فى الشوارع نفسها حيث تنتشر أكوام القمامة المتبقيـة وجثث الحيوانات المتعفنة فى الشوارع بصورة ماساوية .

(أ) يوجد بالمنطقة ٣ مقاهى صغيرة (غرز) ، ٤ حوانيت للبقـالة وقصاب أو أكثر ، ٢ مكبس للورق ، بينما توجد كنيسة ملحق بهـا قاعة لمحو أمية أطفـال المنطقة . وقد أجرى البنك الدولى دراسة للارتقـاء بالمستوى العمرانى Upgrading لمنشية ناصر سنة ١٩٨٠ للتعـرف على المشكلات التى يشكو منها مجتمع « الزبالين » واعداد البرامج التى يسهم السكان فيها لتحسين الظروف المعيشية .

(ب) أفصح الحصر السكانى للاحيـاء آلتى يسـكنها « الزبالين » والذى اشرف على البنك الدولى ، فى منشية ناصر ، أن عددهم يبلغ ٤٨٨٠ نسمة ، منهم ٥١٪ من الذكور ، ٤٩٪ من الاناث .

كما تبين أن ٢٠٫٥٪ من مجموع السكان تقل أعمارهم عن العشرين ، وأن ٣٩٫٦٪ تتراوح أعمارهم من ٢٠ : ٤٠ سنة و ٢٤٪ من ٤٠ : ٦٠ سنة. هذا فضلا عن ١١٫٦٪ تزيد أعمارهم عن ٦٠ سنة ، وينبغى التنـويه هنا أن العمر الزمنى لمجتمع الزبالين والمنشية بصفة عامة لا يتعـدى **ربع قرن من الزمان** ، الامر الذى ينعكس بدوره على أنخفاض معدلات صـغار آلسن عن المتوقع لمحدودية عدد آلزيجات التى تمت فى المنطقة ، فضلا عن ارتفاع معدل كبـار السن وان كنا نشـك من جانبنا فى صدق النسبة الاخيرة (٦٠ سنة فأكثر) نظرا لان الكثير من سكان المنطقـة ليس لديهم شهادات ميلاد أو بطاقات شخصية — لاسباب سنفصلها فيما بعـد — مما يجعـل الناس يخطئون فى تقدير أعمارهم الفعلية .

(جـ) وقد أجريت الدرآسة الراهنة بهدف التعـرف على أحـد المجتمعات المحلية التى يحتلها « واضعو اليد » فى أطراف مدينة القـاهرة حيث اختيرت منشاة ناصر (الاحيـاء التى يقطنها جامعوا القمـامة بصفة خاصة) للتعرف على العوامل التى تصاحب تهميش هذا المجتمع المحلى من الوجهة ألايكولوجية والاقتصادية والاجتماعية من جهة ، وآثار هـذا

التهميش الحضرى من جهة أخرى . وتحدد المجال الزمنى بالحقبة الممتدة من أول ديسمبر ١٩٨٢ الى نهاية فبراير ١٩٨٣ .

وقد قدر عدد الاسر بنحو ١١٠٠ أسرة موزعة على ثلاثة محاور أساسية تمتد فى شكل حلزونى على ارتفاع الجبل بينما تستقر فى النهاية عند قاعدته بينما زحفت مجموعات سكانية أخرى فكادت تلامس شريحة « الزبالين » .

(د) بعد أن قام الباحث **بالدراسة الاستطلاعية** للمنطقة (*) اتضح أنه يمكن تقسيمها بحسب درجة تجانسها الى منطقتين : الاولى وتضم نحو ٦٨٠ اسرة ، ثم أختيار ٣٣٩ أسرة منها تصل آلى نحو ٥٠٪ من مجموع هذه الاسرة بينما تضم المنطقة الثانية نحو ٤٢٠ أسرة تستقر عند قاعدة الجبل . ولما كانت المنطقة الثانية التى تستقر عند قاعدة الجبل تتمتع ببعض التسهيلات المعيشية التى يحرم منها سكان المنطقة الاولى من مجتمع الزبالين ، فقد تجاوزها التقرير الراهن الذى يعرض لنتائج دراسة المنطقة (الاولى) . وتضم العينة ٣٣٩ « زرابا » — كما أسلفنا — ممن يجمعون القمامة ويعيشون حياة هامشية أكثر من أقرانهم فى المنطقة الثانية من جهة ، ومن أقرانهم الذين يعملون فى مهن غير مهنة جمع القمامة داخل المنشاة من جهة أخرى . كما أنهم أكثر هامشية من أقرانهم الذين يسكنون الاحياء الشعبية والمتوسطة والراقية فى الناصمة بصفة عامة .

ويقوم « الزراب » (*) بنقل القمامة الى الزريبة وفرزها وبيعها للتجار ، وتضم القمامة عادة الزجاج والحديد والخرق البالية والورق وغيرها من المخلفات الخشبية والمعدنية لتصنيعها ، وبيعها لكبار المعلمين الذين يتولون بدورهم بيعها للمؤسسات التى يتعاقدون معها بمبالغ مجزية دون أن ينال « الزراب » نصيبه الحقيقى .

(*) تضمنت هذه الدراسة الاستطلاعية الاتصال بالسكان والافراد الذين نالوا حظا من التعليم ورجال الدين بالمنطقة

(*) « الزراب » هو الشخص الذى يملك زريبة وتضم الزريبة عادة الحوانات التى تعيش على الفضلات وعربات جمع القمامة فضلا عن القمامة نفسها .

(هـ) تتنوع هامشية هذه الشريحة ، فهى هامشية ايكولوجية من جهة واقتصادية من جهة ثانية . فهذه الشريحة على سبيل المثال تحتل مكانة هامشية فى النسق المهنى حيث يمكن الحديث عن القطاع الرسمى ألذى يضم « عمال البلدية » الذين يتولون نظافة شوارع المدينة مع نقل القمامة فى عربات يدوية الى صناديق ضخمة موضوعة فى الشوارع الرئيسية يتم تفريغها بدورها فى عربات آلية الى الاماكن التى تحددها المحافظة ليتم فرزها والتخلص من المتبقى منها . وهذه الشريحة العاملة مثل اى شريحة تحصل على أجورها من الدولة بصورة منتظمة .

اما القطاع غير الرسمى فيضم :

١ ــ **كبار « الواحية »** الذين يتعاقدون على تصريف فضلات المؤسسات والفنادق وأماكن اللهو وأماكن اقامة الطبقة العليا والوسطى فى المدينة (الزمالك ــ جاردن سيتى ــ وسط البلد ... الخ) .

٢ ــ **صغار « الواحية »** (*) الذين يتعاقدوون على تصريف فضلات البيوت من باقى أنحاء المدينة فضلا عن الاحياء التى توصف بأنها أحياء شعبية ويقومون بتسليمها للزرابين .

(و) **اما (الزرابون)** موضوع ألدراسة الراهنة فهم يقومون بتحميل القمامة وفرزها والاستفادة منها مع بيع ما يصلح للبيع منها وهذه الشريحة تحتل ــ كما ذكرنا ــ مكانة دنيا فى السلم المهنى . الامر الذى يساعد **المسافة الاجتماعية** Social distance بينها وبين سكان المدينة ولا يخفى على الزائر للمنطقة ما يطلقه سكان الاحياء المجاورة من نكات ساخرة على من بقيمون بجمع القمامة .

كما أن تربيتهم للخنازير تستثير عادة تقزز اللناس واشمئزازهم ، الامر الذى يستثير **هامشية ثقافية وفكرية** ايضا ، هذا فضلا عن الهامشية الاجتماعية ألتى تتمثل فى أن الغالبية الساحقة من هؤلاء الزبالين اما أنهم

(*) ينتسب هؤلاء للواحات الداخلة وبخاصة لبلدة « الشيخ وآلى » و « الهنداوى » ، « والوافية » ، « وعزبة عين القضاء » ، « وعزبة النباة » .

قد طردوا من أماكن أخرى كانوا يعيشون فيها قبل ذلك (كمنطقة امبابة) . أو هاجروا من مناطق أخرى ريفيـــة ينتسب معظمها الى الوجه القبــلى (محافظات أسيوط وسوهاج بصفة خاصة) . فاذا وضعنا فى الاعتبــــار أن بعضهم يتهربون من اثبات مواليدهم للافلات من أداء الخـــدمة السكرية ويحرمون بالتـــالى من استخراج بطاقات لاثبات هويتهم ، لأفصـــح ذلك عن وجود هامشية سياسية لا شك فيها .

وليس بخاف أن الهامشية الاجتماعية تسير فى معيـــة مع الفقـــــر والامية والمرض وترجع الى سوء الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والسكنية والبيئية التىيعيشون فى ظلها .

(ز) قام الباحث باعداد استمارة مقـــابلة (استمارة استبيان) وتم تجربة الاستمارة قبل نزول الميدان ، ومن ثم تم اعداد الصـــحيفة التى تضمنت نحو ٧٥ سؤالا . ويمكن من خلال مناقشـــة نتائج الدراسة التعرف على العـــديد من الملامح السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة بهذه الشريحة ، هذا فضـــلا عن الاســـتعانة بكبار السن والملاحظة وغيرها من الادوات .

ثالثــا : نتــائج الدراسة الميدانيـــة :

(أ) أبرزت الدراسة الميدانية أن ٤٤٪ من أرباب الاسر الذين طبقت عليهم استمارة الاستبيان (٣٣٩ من أرباب الاسر) تبلغ أعمارهم من ٢٠ : ٤٠ سنة أى أنهم فى عنفوان قوتهم الانتاجية . هذا فى الوقت الذى تعد فيه جمع القمامة من الاعمالغير الفنية التى لا تحتاج الى تكريس هــذه الطـــاقة البشرية لانجازها ، كما أنتكريس هذه القوة الشابة هنا يعـــد اهدارا لطاقة كبرى فى المجتمع .

(ب) أوضحت الدراسة أن جميع أفراد العينـــة الذين طبقت عليهم استمارة المقابلة قد **هاجروا منمحافظات أخرى** اذ أن ٤ر٨٦٪ قد هاجروا من محافظة أسيوط (مركز البدارى خاصة) ثم محـــافظة سوهاج ٩ر٥٪ ، كما اتضح أن ٦ر٥٦٪ من المهاجرين قد نزحوا للعاصمة للبحث عن عمل أى أن البطـــالة الدائمة أو المقنعة كانت من الاسباب الرئيسية الدافعـــة للهجرة .

(جـ) أن النسبة الغالبية من السكان **يدينون بالمسيحية** ولعـــل هذا

يفسر من جهة أخرى تربيتهم للخنازير ، وبيعها لبض القصابين فى العاصمة ، اذ ان تربية هذا الحيوان وأكله من المحرمات فى الاسلام .

(د) **تنتشر الامية** بين المشتغلين بجمع القمـــامة فتصل الى ٨٣٫٢٪ من مجموع افراد العينة كما أن ٩٠ ٪ من المعـــولين (الزوجة والاولاد) ليسوا بأحسن حالا من آبائهم فهم يجهلون كذلك القراءة والكتابة .

(هـ) بلغت **نسبة المتزوجين** فى العينـــة ٩٦٫٨٪ ، فالسن المبــكر هى السن المفضلة للزواج الذى يتم عادة ما بين ١٥ — ٢٠ سنة بالنسبة للذكور والاناث ، ويســـاعد على ذلك عدم التقيــد بوجود شهادات للميلاد او اثبات الشخصية . وأن كان من الضرورى أن يتم حضور رجال الدين لأداء الطقوس الدينيـــة المتعـــارف عليها ، والملفت للنظر أن ٢٥٫٨ ٪ من الزوجات قد تزوجن فى سن تقل عن ١٥ عاما . ويتمشى مع السن المبــكر للزواج ازدياد معـــدل الخصوبة ، اذ أن ٥٥٫٤٪ من أسر العينـــة يتراوح عدد أولادهم من ٤ الى ١٠ أولاد .

وقد افاد ثلثا مجموع الاسر المدروسة بأن ٦٨٫٨٪ لا يستخدمون وسيلة من وســـائل منع الحمل . من بين هؤلاء افاد ٥٨٫٨٪ بأنهن لا يرحبن بهذه الوسائل لرغبتهن فى الانجاب . وهكذا تتفاعل الظروف الاجتماعية لتشكل ملامح هامشية هذه الشريحة فى ظل **بطـــالة مقنعـــة** وهى تزيد من انجابها لكى **يعيش أولادها** فى ظل ظروف العمل فى المهنة نفسها والزواج من العصبية ذاتها . وهكذا تستمر دورة حياة الاسر دون توقف .

(و) افصحت الدراسة الحقلية أن الاسر تستعين بعـــربة يجرها عادة ثلاثة حمـــير لنقل القمـــامة (٩٨٫٨٪ من الاسر المدروســــــة) ويرجع ذلك الى صعوبة الجبجبـــل مما يستلزم الاستعانة بأكثر من حمــــار لجـــر العـــربة ولا يشـــكل ذلك أعباء تذكر لوجود فضلات القمامة التى تقـــد مللحيوانات التى تبدو عادة غاية فى الضعف والهزال ابان ســــيرها ، وتتولى الاسرة فرز القمـــامة داخل المنزل نفسه (٩١٫٤٪ من مجمــــوع الاسر) ويتم التعـــامل مع المعلمين الذين يتولون شراء الفضـــلات المصنفة بأثمان بخســـة ، بينما يشعر الزراب عادة بالظلم الاجتماعى والاحبـــاط ، غير أنه لا يملك فكاكا من هذا التنظيم « الهرمى » كما أنه ليس بمقـــدوره الحراك بين أكثر من تاجر أو معلم لاحكام هؤلاء التجـــار السيطرة على السوق .

(ز) وقد أفاد ٩ر٩٠٪ من أفراد العينـــة بأنهم يتعاملون من خلال وسطاء وهم شريحة (**الواحية**) التى تقـــوم بتحصـــيل المبالغ المـــالية من أصحاب المساكن ولا تؤدى عملا يذكر ســـوى تسليم القمـــامة للزراب ، لينقلها بدوره الى زريبته لفـــرزها وتصنيفها ، كما أفاد ٣ر٦٩٪ من افراد العينة بعدم ترحيبهم بوجود هؤلاء الوسطاء ، وقد اتضح أن أكثر فضـــلات القمامة هى الورق (٩ر٤٠٪) ثم الخضر والفاكهة (٤ر٤٠ ٪) .

(ح) غير خاف أن الظروف البيئية السيئة التى تعيش فى ظلهـــا هذه الشريحة وأمتلاء الازقة والشـــوارع بالفضـــلات الحيوانية والآدمية والنباتية ، تؤدى لتكاثر الحشرات وتســـاعد مع وجود الحيوانات داخل الزرائب ونقص الميـــاه على انتشار الرائحة الكريهـــة داخل المنطقة . وقد اتضح أن ٩ر٣٣٪ من « الزرابين » مصابون بأمراض وأن أكثر هـــذه الامراض شيوعا هى أمراض الجهـــاز الهضمى . كما أن ٤ر٢٨٪ من الاسر المدروسة بها أشخاص مرضى . كذلك وان أكثر الامراض الســـائدة بين افراد الاسرة هى أمراض الجهـــاز التنفسى ثم الجهاز الهضمى ، أى أن العمل فى جمع القمـــامة يشـــكل خطرا أساسيا على صحة هذه الشريحة وباقى أفراد الاسرة . هذا فضلا عن أصابة الجميع دون استثناء بســـوء التغذية لنقص الرعاية الصحية وانتشار الادمان على المكيفات .

ومن الملفت للنظر أن المنطقة تكاد تخلو تماما من وجود مستشفى عام غير أن هناك بعض الاطباء (الخصوصيين) حاولوا اقامة عيادات بالمنطقة لعلاج المرضى نظير مبالغ زهيدة .

ومن الطريف كذلك أن أحدى الراهبات الفرنسيات التى يربو عمرها على الثمانين تقيم فى المنطقـــة وقد كرست جهـــدها لتعويدهم على عادات النظافة وحثهم على الاهتمام بأنفسهم وأولادهم .

(ط) تحدث المشاكل بين هؤلاء الزبالين وعمال البلدية وعســـاكر المرور بسبب ما يترتب على مرور عربات القمامة المحملة بأطنان القاذورات فى شوارع العاصمة ، وتساقط بعض الفضـــلات بفعل الاتربة والرياح ، وقد ذكر ٩ر٥٤٪ من أفراد العينة بأنهم يقومون بدفع رشـــاوى لعمـــال البلدية وعساكر المرور لتسهيل أمورهم .

ولهذا يتطلع اكثر من نصف ارباب الاسر المدروســـة (٤ر٥٨٪ من المجمـــوع الكلى لتغيير مهمتهم والعمل فى قطاع الصناعة أو قطاع الخدمات

رغبة منهم فى الابتعاد بأنفسهم عن المشاكل العديدة والتى تنتج عن العمـل فى جمع القمامة . بينما يقترح ٧٠٫٨٪ أن تقيم الدولة مصانع للقمـامة حيث يقومون بالعمل بها نظير أجور ثابتة تضمن لهم ولأسرهم حيـاة أفضل اذ ان ٨٦٫٣٪ لا يشتركون فى التأمينات والمعاشات فاذا تعثرت ظـروفهم المهنية انقطعت سبل العيش بهم وبأسرهم التى يتولون رعايتها . ومع أن بعضهم يذكرون أن هناك « رابطة » يمكن أن تسـاعدهم فى حالات المرض والوفاة ، الا أن دورها لم يتضح بعـد . بينما يلجـأ نحو ٥٠٪ من أسر العينـة الى الاشتراك فى جمعية خيرية تكفل المساهمة فى حالة الكوارث ، والازمات .

(ى) لا تكمن المشكلة الاساسية فى حياة هذه الشريحة فى ضـآلة دخولها الشهرية اذ أن الاسر التى تزيد دخولهـا عن مائة جنيـه قد بلغت ٢٠٫٤٪ من مجموع الاسر . بينما كانت هناك ٤٩٫٥٪ من مجمـوع الاسر تتراوح دخولها من ٦٠ جنيها الى أقل من ١٠٠ جنيه . ولم تزد نسبة الاسر التى تقل دخولها عن عشرين جنيها عن ٧٫١٪ من مجموع اسر العينـة ، بل فى **ظروفها البيئية والسكنية والمعيشية والخدمية السيئة للغاية .**

(ق) **ان المشكلة الاكثر الحاحا — كما رآها افراد العينـة — هى نقص الميـاه النقيه** (٣١٫٧٪ من مجموع الاستجابات) ، يلى ذلك مشكلة الكهرباء (١٨٫١٪) ثم المدرسـة (١٦٫٩٪) والمستشفى (١٥٫٣ ٪) والمواصلات (١٢٫٩٪) .

غير أن سلبية هذه الشريحة تظهر فى القاء العبء على الدولة للقيام بالاصلاحات اللازمة دون محـاولة السكان الاسهام فى اجراء هـذه الاصلاحات .

استخلاصـات :

تعرضت الدراسة الراهنة لشريحة هامشية تعمل بجمع القمـامة من بعض أحياء العاصمة — لاسيما فى الاحياء المتخلفة والمتوسطة الحال — والتى تسكن بدورها فى أطراف العاصمة حيث تشكل مجتمعا هامشيا فى تلك المنطقة .

وقد اوضحت الدراسة الراهنة أن هذه الشريحة تشمل المهاجرين من الوجه القبلى (لا سيما مدينة اسيوط) ، ممن قاسوا من البطالة فى فى موطنهم الاصلى فهرعوا الى المدينة . ونظرا لوجود اقارب لهم يمتهنون هذه المهنة وقلة خبرتهم بالعمل الانتاجى والصناعى وقلة حنكتهم ، فقد فضلوا الاشتغال بجمع القمامة كحرفة لا تستلزم أية خبرات أو مهارات حرفية ، ولما كانت عملية نقل وفرز القمامة تتم بطريقة بسيطة وبدائية ، بينما تتربى على الفضلات الحيوانات والدواب فان الجهات المسئولة تلجأ الى اجلائهممن منطقة لاخرى ، كلما اتسع النطاق العمرانى للمدينة وامتد الى الاطراف .

وقد سكن هؤلاء فى منشية ناصر وتقوقعوا حول جبل المقطم فسكنوا فى بعض الاجزاء المهدة ، وحول قاعدته ، وشيدوا مساكن من الصفيح والاحجار بصورة بدائية تكاد تخلو تماما من المنافع الاساسية والمرافق الحيوية .

وقد حرمت المنطقة الهامشية من ابسط الخدمات والمرافق فأصبح الناس يعيشون فى شبه عزلة ايكولوجية وصاحب هذه الهامشية الحضرية هامشية اقتصادية دفعت بهم فى يد شرائح من المستغلين سواء من الواحية او كبار التجار والمعلمين فضلا عن اضطرارهم لدفع رشاوى لعساكر المرور او اتاوات لعمال البلدية وغيرهم لتسهيل مرورهم فى شوارع المدينة .

وهذه الشريحة هامشية بكل المقاييس ، ففى غياب التامين على الحياة أو الانضمام لنقابة او رابطة تدافع عن حقوقهم تجاه غيرهم وفى ظل الظروف الصحية والبيئية السيئة ، يصبح هؤلاء لقمة سائغة فى فم قوى ضاغطةلها مصالح احتكارية .

وتفصح الظروف المعيشية عن أن **المنطقة تكاد تخلو تماما من المرافق والخدمات** فالمياه النقية والكهرباء والمستشفى والمدرسة ومكتب البريد أو مكتب الصحة والجمعية التعاونية الاستهلاكية غير متوفرة بل ان اغلب الزرائب تكاد تخلو من دورة المياه والحمام والمطبخ وهى بهذه تفتقر لابسط الضرورات الانسانية وعادة ما يتم شراء المياه من خارج المنطقة باستخدام العربة التى تحمل القمامة باستخدام الفناطيس أو البراميل ، نظير مبالغ نقدية تصل الى ٥٠ قرشا للبرميل الواحد .

اما وقت الفراغ فيقضيه الافراد فى المقهى الصغير داخل المنطقة او فى الاستماع للمذياع (الذى يقتنيه ٦ر٥٨٪ من أفراد العينة) . ومن الملاحظ ان ٤ر٤٩٪ من أرباب الاسر ينفقون ربع دخولهم فأكثر على المزاج . الامر الذى يدل على **غيبة الترشيد فى الانفاق** . كما اتضح أن الدخل يعتبر كافيا بالنسبة لـ ٦ر٥٩٪ من أفراد العينة بينما يعد غير كاف بالنسبة لـ ٤ر٤٠٪ من المجموع كما أتضح أن ٦ر٧٢٪ من الاسر تنفق الكثير من نصف دخلها الشهرى على الطعام ، الامر الذى يعكس الانشغال بلقمة العيش فحسب .

وقد أسهمت الامية وازدياد المسافة الاجتماعية بينهم وبين سكان المدينة فى احساسهم بالدونية والاحباط والظلم الاجتماعى (*) . هذا فضلا عن حرمانهم من بعض حقوقهم الاجتماعية والسياسية نتيجة لاهمالهم فى المطالبة بحقوقهم وتقصيرهم فى استخراج ما يثبت هويتهم وعدم وجود شهادات رسمية لاثبات الزواج . الامر الذى يؤدى الى تعميق أحساسهم بالغربة مما يؤدى لتقاعسهم عن المشاركة السياسية أو المشاركة فى عضوية هيئات رسمية .

وقد لاحظ الباحث اقبالهم على تعاطى المخدرات بصورة ملفتة للنظر وابتعادهم عن المشاركة فى تنمية المجتمع المحلى الذى يعيشون فيه . فاذا اضفنا الى ذلك هامشيتهم الثقافية التى تتمثل فى وجود ثقافة « فرعيية » مخالفة للثقافة الحضرية ، التى يتبلور من خلالها نسق القيم فى المجتمع الحضرى ، اتضح لنا تعدد صور الهامشية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية لهذه الشريحة من شرائح المجتمع التى تعيش فى العاصمة حياة هامشية فريدة .

(*) يمكن الرجوع كذلك فى الابعاد الاجتماعية والمسافة الاجتماعية الى : أحمد أبو زيد ــ البناء الاجتماعى جـ ٢ ــ الاسكندرية ــ ١٩٦٧ ــ الفصل الاول .

« المصـــــــادر »

(*) سبق نشر هذه الدراسة فى الكتاب السنوى لعلم الاجتماع — اكتوبر ١٩٨٤ .

١ — Ch. winick, Dictionary of Anthropclogy. N.Y. 1958 pp. 38, 343.

٢ — D. L. Sels (Ed.) International Encyclopedia of the Social sciences, U.S.A. 1972 vol. 11, 12.

٣ — David Harvey. Social Justice and the City, Great Britain, 1979, pp. 127 : 155.

٤ — Cities of peasants, Great Britain 1978, pp. 136 : 170.

٥ — D. H. Sills (Ed.) Op. Cit. Vol. 1, 2 pp. 264-268.

٦ — G. Osipov., Sociology, 1969, p. 2.

٧ — Chesnokov and Karpushin, Man and Society Moscow, 1966, pp. 16, 17.

٨ — Government strategies for urban areas and community participation In unicif Assignment children social planning with the urban poor Suisse 1. 82.

٩ — انظر المقال الذى تحدث فيه Unni Wikan عن الحياة وسط الفقراء فى القاهرة فى :
Possibilities of change in living conditions.

حيث ناقشت آراء أوسكار لويس عن هامشية الفقراء والاوضاع الاجتماعية التى يعيشون فى ظلها .

١٠— ستار الفقر — خيارات امام العالم الثالث — ترجمة أحمد بليغ تقديم أسماعيل صبرى عبد الله — القاهرة — ١٩٧٧ ص ٣٤ ، ٣٥ ، ١٣٤ .

١١— عزت حجازى — الهجرة الى مدينة القاهرة . المركز القومى للبحوث ١٩٧١ — ص ٢٧ ، ص ٣٣ .

١٢— مجتمع المدينة فى البلاد النامية — ترجمة محمد الجوهرى تصدير بغدادى . القاهرة — ١٩٧٣ — ص ٣٨ ، ص ١٥٦ ، ص ٢٢١ .

١٣— محمد عاطف غيث — دراسات انسانية أجتماعية ، ١٩٦٥ — ص ١١٩ : ص ١٥٢ .

١٤— التنمية والتخلف — القاهرة — ١٩٨ — ص ٢٠٦ ، ص ٢٠٧ .

١٥— W.A. Shack. Urban Ethnicity In-Ethiopia (In) A. Southall (Ed.) Urban Anthropology N.Y. Oxford Univ. Press. 1978, pp. 25, 275.

١٧— التحضر فى العالم الثالث فى : الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث ترجمة وتعليق محمد الجوهرى وعلى ليله واحمد زايد — القاهرة — ١٩٨٢ — الفصل الثالث عشر .

١٦— Urbanization in Egypt. Rhe Amer. Univ. Cairo, The Social Res. Center. Without, p. 313.

١٧— التحضر فى العالم الثالث (فى) : الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث المصدر السابق — الموضع نفسه .

١٨— Janet, L. Abu Lughod, Research priorities for the study of urbanisation and development, The Symposium on social Research for development. Social Research cent, Univ. in Cairo, May 1981.

١٩— القاهرة — ١٩٧١ — ص ٢٧ ، ص ٣٣ .

٢٠— الهجرة الى مدينة القاهرة — المجلة الاجتماعية .

٢١— المدينة — دراسة فى علم الاجتماع الحضرى — القاهرة ١٩٨٠ ص ٢٢٣ ، ص ٢٩٠ .

٢٢— U.S. Dept. of Commerce, National Technical information service, Conversion of solid waste to fuels. C.B.B. Enham, Et. Al Nayal weapons center, China Lake, California, Jen, 1976.

٢٣— Joint Housing projects Committee, International Development Association, Progress Report, Solid waste Management practices in Cairo, Submitted to Governorate of Cairo 1980 (Unpublished).

٢٤— جريدة الاحرار العـــدد ٢٣٩ فى ١٩٨٣/٢/٢١ عن مجلة المختـــار ريدرز دايجست (نوفمبر ١٩٨١) .

٣ — الفقـــراء فى المدينــــة

دراســـة انثروبولوجيـــة فى حى بولاق

استخدمت الدراسة التى بين ايدينـــا اسلوب **الملاحظة بالمعايشة** فى دراسة الفقـــراء فى حى شعبى حيث قامت بهــــا البـــاحثة النرويجيـــة Unni Wikan عن حى بولاق بمدينة القاهرة وذلك بمساعدة مركز البحوث الاجتماعية التابع للجامعة الامريكية بالقاهرة ، ومجلس البحوث النرويجية للعلوم والانسانيات وقامت الدراسة الانثروبولوجية بانجاز العمل الميدانى من خلال قضاء ما يزيد على ١٠ شهور بالحى المذكور (*) **عايشت فيهـــا الفقـــراء** مستخدمة الملاحظة بالمشاركة مع السؤال عما يغمض عليهـــا فهمه من ظواهر .

وقد بدأت الباحثة النرويجية الدراسة الحقلية بعد أن قضت مايقرب من عامين فى مصر لتعلم اللغة العربية كما أجتازت كذلك « كورس مكثف » لدراسة اللغة العربية بالجامعة الامريكية فى القاهرة حيث مكنها ذلك من العمل — دون مترجم — مع استخدام تكنيكات الملاحظة بالمعايشة .

وقد هدفت الباحثة الى دراسة الفقراء فى أحد أحياء القاهرة لاختبار الفقر كما يختبره الفقرأء أنفسهم كما كانت تنشد كذلك الى تحليل الظروف التى تصاحب الفقر كمـــا يراها الفقرأء أنفسهم وتعبر الباحثـــة عن ذلك بقولهـــا :

«In this analysis I choose my point of departure the poor people's own understanding of their life situation».

وهنا يحاول الانثروبولوجى — من خلال المشاركة — **ان يفكر كما يفعل الناس انفسهم فى المجتمع الذى يقوم بدراسته .**

(*) من سبتمبر حتى ديسمبر ١٩٦٩ ومن نوفمبر ١٩٧٠ حتى ينـــاير ١٩٧١ ، وشهر اغسطس ١٩٧٢ .

«The anthropologist tries through participation to learn, to think as «people do themselves».

وقـد كونت الباحثة صداقات ، وشاركت فى أنشطة محلية وحاولت أن تتصرف كما يتصرف الناس وقد اضـطرها ذلك أن (تفطم ذاتها) عن أسلوب حياتها التقليدى الذى اعتادت عليه ، ومع أن هذا لم يكن يسيراً لمان البـاحثة الانثروبولوجية قـد وضعت نفسها فى وضع استعداد لتمثـل Assimilate الثقافة المصرية الشعبية ودراسة فقراء بولاق ومشاركتهم حياتهم المعيشية بقصد التعرف على ملامح الفقر ، كما حاولت المساهمة بعد ذلك فى تحسين ظروف هؤلاء الفقراء . وقد تعرفت فى البداية على احدى أسر الحى — عن طريق صديق — وتتكون هذه الاسرة من الزوج ، والزوجة وستة من الاولاد تتراوح أعمارهم بين ٢ : ١٨ سنة ، وأقامت الباحثة خلال الشهر الاول مع هذه الاسرة فى غرفة واحدة وكان عليها أن تشارك الفتيات البالغات من أعضاء الاسرة فراشهن ، ولم يكن ذلك يرضى الباحثة بأى حال من الاحوال فلم يكن الفراش نظيفا وكان كذلك عليها أن تشارك الاسرة فى طعامها المحدود (**حتى لا تؤذى مشاعرهم**) وقد اعتادت أن تشاهد بعينيهـا الحشرات وهى تزحف تجاه أطباق الطعام (ورغم ذلك كانت مضطرة أن تأكل منه أسوة بهم) حيث كانت تقنع نفسها بأنها لو قدر لها أن تولد بينهم لكانت ستشاركهم قيمهم ومأكلهم ومشاربهم ، غير أنها سارعت الى البحث عن (شقة خاصة) فى مرحلة لاحقة فكانت تكتفى بقضاء اليوم كله فى الحى ثم تغادره الى مسكنها الخاص لكتابة التقارير والخلود للراحة فى نهـاية اليوم .

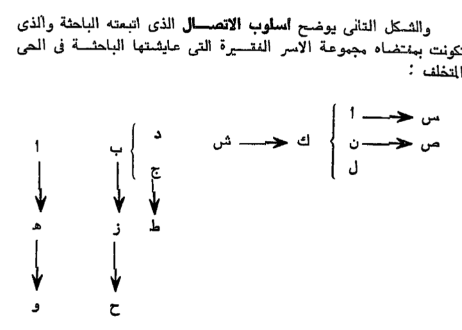
ومن خلال الاسرة (الاولى) استطاعت الباحثة أن تتعرف على بعض الجيران والاقارب (الـذين يسـكنون فى حى بولاق) وسرعان ما كونت صداقات مع أسر المنطقة الامر الذى حفز الاسرة (الاولى) على تحذيرها من التردد عليهم ولم تكن هذه النصيحة مخلصة بأى صورة من الصور فقد كان من شأنها أن تزيد من عزلة الباحثة عن المجتمع المحلى مما يضـطرها الى الاعتماد على الاسرة المضيفة بصورة كاملة ، وقد تمكنت الدراسة من اقناع الاسرة الاولى بأنها تختلط بالاسر الاخرى لتتمكن من اتقان اللغة وبأن دراستها للمنطقة تقتضى منها أن توزع علاقتها بالتساوى على هـذه الاسر (وهى مبررات ثانوية) وكانت كل أسرة تسألها دائمـا : هل تؤثرها على باقى الاسر فى المنطقة ؟ وأين كانت قبل حضورها ؟ ومن قابلت ؟ ولمـاذا

تزور غيرها من الاسر ؟ وتمكنت فى نهاية الامر من أن توطد علاقتها تمـــاما بـــ ١٧ أسرة ممثلة للشرائح الدنيـــا التى توثقت علاقتهـــا بهم فى المنطقة (فقراء الحى) .

وقد ذكرت الباحثة انه بينما كان من اليسير عليها أن تتصل بالاناث والاطفـــال كان الامر صعبا بالنسبة للرجال الذين لم يكن من الســـهل أن تختلط بهم وتتعمق فى فهم دوافع سلوكهم بل كانت تتعرض كثيرا لمعاكساتهم .

وغنى عن القول أنها **عاشت احداث الحى يوما بعد يوم وعاشت حياة الاسر ساعة بساعة ،** ولحظة بعد لحظة .

والشكل التالى يوضح **أسلوب الاتصـــال** الذى اتبعته الباحثة والذى تكونت بمقتضاه مجموعة الاسر الفقـــيرة التى عايشتها الباحثـــة فى الحى المتخلف :



وقد بررت الباحثة انتقالها فى وقت لاحق الى شقة مستقلة برغبتهـــا فى استغلال وقتها على الوجه الامثل وهو مبررا يخفى رفضها للمعيشة داخل الحى ومشاركتها للفقـــراء وكانت تترك المنطقة مساء كـــل يوم لتســـجيل ملاحظاتها الميدانية باستثناء بعض المناسبات التى استحسنت البـــاحثة أن تقضى امسياتها مع أسر المنطقة هذا بينما عزفت البـــاحثة عن تسجيل أى ملاحظات أثناء وجودها فى الميدان حرصا على عدم اثارة مخاوف الناس أو احساسهم بأن حركاتهم المعتادة محسوبة عليهم .

وقد درست الباحثة **الصراع** بين الناس فى الحى ، وسجلت كل مـــا

وقع تحت بصرها من الوان الشجار ، والشتائم ، وعراك الاطفال فضلا عن اداء الفروض الدينية فى المنزل ، والتزاور بين الاسر ... الخ .

وقد قامت الباحثة فى النهاية بمساعدة بعض الاسر الفقيرة من خلال تقديم الملابس والهدايا داخل الحى وذلك من واقع المساعدات ألتى حصلت عليها من السفارة النرويجية بالقاهرة ، كما سجلت الصعوبات ألتى قابلتها فى الميدان ومنهـــا :

١ — معاكسات الرجال والاطفال لها التى كانت تصل فى بعض الاحيـــان الى حد توجيه ألالفـــاظ الجارحة والنابية لها أو قذفهـــا بالحجارة والخضروات الفاسدة .

٢ — الشك فى هوية الباحثة الامر ألذى وصل فى بعض الاحيان — ولدى بعض الافراد — الى حد الاعتقاد بأنها جاسوســـة (تريد أن تنقل ما تراه للعدو الصهيونى) .

٣ — تذمر اعضاء المجتمع المحلى ممن لم توزع عليهم الملابس والهـــدايا أو أولئك الذين ظنوا بأن غيرهم قد نالوا من المساعدات أو الهدايا أكثر منهم شخصيا .

نقـــد الدراسة والتعقيب عليهـــا :

١ — أبدت الباحثة الانثروبولوجية امتعاضها الواضح من أساليب الحياة ومقومات المعيشة — كالطعـــام والنوم وغيرهـــا من صور حيـــاة الفقراء — فى المجتمع ألمحلى — ومع أنه ليس من المفروض أن يحث البـــاحث الانثروبولوجى الناس على قبـــول الوضـــع الراهن أو يوصيهم بعدم السعى ألى تحسينه فانه لا ينبغى من ناحية أخـــرى أن يبدى **تأففه وامتعاضه واحتقـــاره** لمجريات حيـــاتهم المعيشية ، فالباحث هنا يدرس الشرائح الفقيرة وقد حدد هدفه من الدراسة فى التعرف على أساليب الحياة الاجتماعية والثقافية للفقراء حيث تذكر الباحثة :

«First I want to open the eyes....»
«to the bumilliating human conditions»
«Created by poverty : to show how»
«Poverty pervades and vulgarizes all»
«aspects of life .... and cripples»
«individual potential for development and happiness».

وهذا يعنى أن استخدامها لبعض العبارات الوصفية والتى تعبر فيها عن سوء الاوضاع يفسر امتعاض الباحثة فى الوقت نفسه الامر الذى يقلل من قيمة هذه الملاحظات مثل :

«The bed was full of fleas, and I itched like mad whilst being almost unable to move etc....»

It was not uncommon .. for the bread to fall into their children exrement etc......

٢ — اتسمت بعض أوصافها **بالعمومية والارتكاز على الاسلوب الروائى** دون أن تفصل فى وصف أنماط السلوك التى على أساسها توصلت الى مثل هذه الاحكام ففى ملاحظاتها عن الاثنين ٧ أغسطس ١٩٧٢ سجلت :

« يا الهى اننى مريضة متعبة من هذه الحياة » .
« مشاجرات وشائعات ... أفتراء ونفاق » .
« واعجاب بالنفس وقذارة — بعض الصغار يتشاجرون » .
« الصياح يتصاعد فى كل مكان ... أصوات ومشاجرات » .
« لاتفه الاسباب بين الكبار والصغار حيث يختلط الحابل بالنابل » .
... الخ .

٣ — كانت الباحثة **تؤجل** تسجيل ملاحظاتها الميديانية فى بعض الاحيان لعدة أيام ومن المعروف أن ذاكرة الباحث لا تستطيع أن تحتفظ بكل شىء فضلا عن اختلاط الوقائع خلال الفترة التى يتكاسل الباحث

فيهـا عن تدوين ملاحظاته الحقليـة اليومية ممـا يؤثر على دقة الملاحظات .

٤ — ذكرت الباحثة لافراد الاسر أنها تريد أن تتعلم اللغة العربية أساسا وأن هذا هو الهدف الحقيقى من احتكاكها بالمجتمع ومن المعروف أن هناك أخلاقيات Ethics بعينهـا ينبغى أن يتقيد بهـا البـاحث الانثروبولوجى . ولا يجوز له أن يخفى هويته وغرض بحثه الا فى احيان معينـة كالحرص على حياته كمـا فى حالة دراسة ومعايشة الجمـاعات المتطرفة او لحرجه ازاء بعض الموضوعات الحساسة كالسلوك الجنسى أو الشذوذ الجنسى ولا يجب أن يتورط البـاحث فى تضليل الناس بانتحال أدوار أو مكانات معينة أو بأن يعدهم بأن بوسعه أن يفعل الكثير دون أن يكون هذا فى مقدوره .

٥ — أن هـدف الدراسة الحقليـة فى مجـال الانثروبولوجيا الحضرية وانثروبولوجيا التنمية لا يتمثل فى تقديم بعض الملابس أو الهـدايا بصورة غير مدروسة فقـد يؤدى ذلك فى الواقع الى زيادة معاداة الناس للباحث — كما حدث بالنسبة للباحثة — لاحساسهم بأنه لم ترأعى العدالة الاجتماعية فى التوزيع ، ومن الممكن فى هذه الحالة أن يقوم الباحث بدراسة الشرائح الفقيرة دراسة تفصيلية — مع الارتكاز على معايير معينة فى تحديده لها لضمان عدالة التوزيع . أو أن يتولى مساعدة الناس من خلال **المؤسسات الرسمية** المحليـة القـائمة فى المجتمع المحـلى كما أنه من المفضـل أن يستعاض عن المساعدات المادية الجزئية بامداد الاسرة بمشروعات انتاجيةتؤدى دورا أساسيا فى تحويل الاسر المعتمدة الى أخرى منتجة .

ومع هذا فان **الدور الجرىء** الذى قامت به الباحثة باستخدام تكتيكات الملاحظة بالمعايشة من خلال تعلم لغة المجتمع المدروس ، والاحتكاك بالمجتمع المحلى **والتعرف بالاسر والاتصال بها والحياة معها ورؤية الفقر وملابساته من خلالهم** ليس بالمهمة اليسيرة على وجه الاطلاق وبخاصة أن الباحث هنا سيدة **أجنبيـة** دخلت الى هذا المجتمع فى مرحلة حساسة من تاريخه (اتسمت بوجود ما يعرف بحرب الاستنزاف مع اسرائيـل والشك فىهوية الاغراب والاجانب ابان ذلك الوقت لاحتمال تحيزهم مع الطرف الاخر فى القتـال

الدائر بين اسرائيل والمجتمع المصرى) ممـــا أضاف الكثير من الشكوك على مهمـــة الدراسة الانثروبولوجية فى أحـــد المناطق المتخلفـــة Slum Area بالمدينة حيث يسود الفقر ، والاميـــة ويزداد سخط الشرائح الدنيـــا نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية والبيئية التى يعيشون فى ظلها من ناحية وبطء عجلة التنمية الاجتماعية فى هذه الاحياء عنها فى باقى أجزاء المجتمـــع من ناحية أخرى .

وقد حاولت الباحثة كذلك المقارنة بين هذه الدراسة الحقلية فى مصر وتلك التى أجرتها فى عمان خلال عام ١٩٧٤ .

(*) انظر :
Unni Wikan .. life Among the poor in Cairo ..
TABISTOCK publications.

الفصــل الســـادس

« الانثروبولوجيــا الصــناعية »

الانثروبولوجيا الصناعية هى دراسة الظواهر المرتبطة بالتصـــنيع والمـــدن الصناعية باستخدام المنـــاهج والادوات المتعارف عليهـــا فى علم الانثروبولوجيا .

ولا جدال ان الانثروبولوجيا قدترددت طويلا قبل أن تحاول اقتحـــام ميدان المجتمعات الصناعية المعاصرة فقـــد ظلت الانثروبولوجيا فى تعلقهـــا «الرومانسى » بدراسة المجتمعات البدائية والبلدان المتخلفة اقتصاديا ولعل هذا يفسر العبارة التى قالها مالينوفسكى Malinowski لتلميذه رشاردز Richards : « انه من الاجـــدر به أن يهتم بدراسة الحيـــاة البـــدائية لا الحضرية » (١) .

ففى المجتمعات البدائية يتوفر التجانس والعزلة والترابط والعلاقات القرابية الوثيقة بينما يؤدى التصنيع والتحضر الى زيادة الحراك ويتســـع المجال للمزيد من التحولات فى البنـــاء الاجتماعى (٢) . وقـــد وجد علمـــاء الانثروبولوجيا الذين صرفوا النظر طويلا عن الـــدور الحيوى الذى يلعبه **التغير الاجتماعى** — فى المجتمعات المحلية الصغيرة المنعزلة — من واجبهم التركيز على **التغير البنائى** الذى يعد من أبرز المظاهر فى المجتمعات الصناعية الحديثة ولذا اهتم هؤلاء العلماء **بالهجـــرة** الى مناطق الصناعة والعـــلاقة بين عمال الصناعة ومواطنهم الاصلية والعـــلاقة بين البدنات الاصليـــة والفئات العرقيـــة الوافدة الى المناطق الصناعية ، والتحول الـــذى يلحق **البناء التقليدى** نتيجة لدخول الصناعة ، وقد تمت معظم هذه الدراســـات الحقلية فى مجتمعات العالم الثالث وقادها بعض الروآد أمثال : ميشـــيل Mitchell (٣) ، سوثال A. Southall (٤) ، بانتون M. Banton (٥) ، روث بندكت R. Benedict (٦) ، كينت ليتل K. Little (٧) ، وغيرهم من العلماء .

وبينمـــا ذهب أصحاب المذهب التطورى أو الارتقائى Evolution الى أن المجتمع الصناعى بشكله الموجود فى غرب أوربا يمثل قمة التطور (٨) اعتقد أصحاب المذهب الانتشارى diffusionism أن الانتشار الثقافى يتم من المنـــاطق المتقدمة صناعيا والاكثر رقيـــا الى تلك التى تفتقـــر الى خصائص التصنيع ، ويحثنا هذا الاتجاه على الاعتماد على **التــاريخ** لمعرفة نوع التغيرات التى تحدث دائما عن طريق الاحتكاك ودراسة الاتصال بين الجماعات المتباينة وبخاصة لدى الجماعات القبلية فى افريقيا والتى تمـــر الان بعملية تحول سريع ، ويرى البعض ضرورة **اعادة تركيب الاوضاع** التى كانت سائدة قبل أن تطرأ المؤثرات الخارجية أو تحـــديد ما ســـمى « **بنقطة الصـــفر** » zeropoint لتحديد الاحداث اللاحقـــة عليها حيث تتفـــاوت استجابة المجتمعات المحلية لهذه المؤثرات بين المحافظة قـــدر الامكان على الكثير من الملامح التقليدية وبين محاولة اكتساب ملامح النمط الصناعى (٩) .

والتصنيع بالنسبة للدارس الانثروبولوجى لا يدل على نوع التنظيم الاجتماعى الذى يســـود بواسطة المصـــانع على مدى متسع فحسب بل يعنى كذلك جميع الآثار المجتمعية التى تلحق البناء الاجتماعى نتيجة لدخول الصناعة . فالتصنيع يدل **على الاثار السياسية والديموجرافية والاقتصادية التى تنتج عن التغيرات التكنولوجية فى مجال الانتاج** حيث تتضمن هذه الاثار — من بين أشياء أخـــرى — وجود السوق « المفتوح » والســـعى الرشيد للحصول على الربح ، وازدياد أهمية المنظمات والهيئات الرسمية ، وانتقال الاهمية الاقتصادية الى السوق ، وظهور المدن الصناعية ومرونة الحـــراك بين الطبقات .

والتصنيع يشير على هذا الاساس الى **القطاع الثـــانى** من قطاعات الانتاج الذى يتضمن الاستخدام المنظم للقوة الالية للانتـــاج فى مؤسسات « كبيرة » الحجم تقوم على التخصص وتقسيم العمل وهو يؤدى الى اتساع مجال السوق والى التطور فى النواحى الانتـــاجية والى ازدياد نســـبة من يعملون بالحرف الصناعية (وبخاصة المهن الفنية التى تستلزم قـــدرا من التعليم والتدريب المهنى) والى ازدياد التعامل بالاجر النقدى ، ومن ازدياد التخصص الصناعى قد يشتهر المجتمع المحلى بصفة عامة بانتاج صـــناعة أو صناعات معينة .

كما يزداد اتصاله بغيره من المجتمعات المحليـــة لتسويق المنتجـــات

الصناعية أو استيراد المادة الخام غير أن هذه المؤشرات لا يمكن أن تفهم فى عزلة عن البناء الاجتماعى الذى تعمل من خلاله .

وقد حاول البعض دراسة التصنيع باستخدام ((**النماذج**)) (المجتمعات القديمة أو الحديثة) ومن أمثلة هؤلاء أنتونى ليدز Leads الذى قدم تحليلا تاريخنا للمجتمات فى عدة أنماط على النحو التالى :

أ — **مجتمعات زراعية توسعية** ذات اقتصاديات زراعية أساسا كامبراطوريات الشرق الادنى فى التاريخية .

ب — **مجتمعات زراعية تقليدية** تتميز بالاقتصاد الزراعى وأشكال التكنولوجيا البسيطة ومن أمثلتها دول أمريكا اللاتينية قبل الحرب الثانة .

حـ — **مجتمعات صناعية مستمرة** فى تقدمهـا وتتميز بالتخصص والنشـاط الانتاجى ومن أمثلتها اليابان ودول غرب أوربا .

د — **الدول الصناعية ((الاستاتيكية))** .

وقد حاول ليدز تطبيق هذا النموذج على البرازيل . وهو يعتقد أن المجتمعات المتخلفة صناعيا تمر الان بعملية تصنيع (ثانوى أو تابع) أمـا مراكز التصنيع الاساسية فتتمثل فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية حيث حقق الانسان عن طريق التصنيع أهدافه المرغوبة ، وخلال فترة تنميـة هذه البلدان كانت مشاركة بقية دول العـالم تتمثل فى كونهـا أسواقا فقط وهذه المشاركة الهامشية لم تحدث الا تغيرا ضئيلا فى بنياتها الاجتماعية .

ويذكر آدامز Adams أن التصنيع قد انتشر خارج مراكز نشأته بعد الحرب الثانية بصفة خاصة بما صاحبه من تغيرات واسعة النطاق غير أنه يلفت النظر الى أن النظام « الرأسمالى الغربى » من جهة و « الاشتراكى » من جهة أخـرى لا يمثل بالضرورة أفضل ما يمكن أن تصبو اليـه البلدان النامية (١٠) .

(*) وهو مقولة منطقة لبعض الدول الصناعية المتقدمة والتى تتميـز بالتوازن بين أهدافها ومواردها .

غير أن الاهمية التى يلعبها التصنيع فى تحويل البيئات الزراعية الى أخرى صناعية وظهور سلسلة من الاثار اللاحقة فى الانساق « آلتقليدية » قد شجعت آلعلماء الذين اهتموا بموضوع التغير أن يتخذوا من التصنيع نقطة انطلاق **لدراسة الاثار الاجتماعية والتغيرات اللاحقة له** وعلى الاخص بالنسبة للقيم المرتبطة بالتنمية الاقتصادية والحراك الاجتماعى حيث اهتموا بآثار التصنيع على التنظيم الاقتصادى وانعكاس هذا التأثير على النسق **الديموجرافى والايكولوجى** والانساق التقليدية بصفة عامة (١١) ومن بين هؤلاء العلماء فوستر G. Foster (١٢) الذى اهتم بدراسة آثار التكنولوجيا الصناعية على نسق آلقيم فى المجتمعات « التقليدية » .

وفى حالة التركيز على آلمدن الصناعية ينصب الاهتمام عادة على المناطق الصناعية المحدودة التى يفترض تماثلها مع المحليات والقرى الصغيرة — التى نعرفها — حتى يمكن دراستها تمشيا مع المدخل الانثروبولوجى — بنفس الطريقة (١٣) .

ويذكر ابراهامسون M. ABRAHAMSON (١٤) أن آلتصنيع يشير الى زيادة استخدام آلقوة البخارية ومصادر القوة الجامدة بالمقارنة بمصادر القوة الانسانية والحيوانية (المرتبطة بالانتاج قبل الصناعى) وأن التحضر كذلك يشير الى نسبة السكان الذين يعيشون فى الحضر فان كلاهما يتضمن — من وجهة نظره — حراك الناس من المهن الزراعية الى المهن غير الزراعية والصناعية مع شيوع الاجر النقدى (وبخاصة فى المجال الحضرى) بما يواكبه من آثار **كالحراك الاجتماعى ، واختفاء الاسرة الممتدة وتغير التنظيم الاجتماعى ،** وهو يعتقد أن آلتصنيع والتحضر فى غرب أوربا ينطلقان معا (*) ولكن العلاقة بينهما فى دول العالم الثالث غير واضحة حيث يسبق التحضر التصنيع فى بض الاحيان وينتج عن ذلك ازدحام وفقر المدن التى تنمو فى الحجم (لا فى فرص العمل) ومع ذلك فان العلاقة التاريخية بين التحضر والتصنيع قوية (*) حتى أننا ؤ دراسة نتائجها يصعب علينا أن نذكر متى

(*) يستشهد ابراهامسون بالمؤشرات آلدالة على آلتصنيع والتحضر التى وضعها Cutright وتتضمن التطور التكنولوجى وزيادة معدل التعليم ونقص حجم الاسرة ، وبالتحليل الذى قدمه Williams, Bell, Shevky عن المكانة حيث تنعكس آثار التصنيع فى زيادة تقسيم العمل وتنعكس آثار التحضر فى زيادة عدد الاناث فى قوة العمل وفى انخفاض معدل المواليد .

ينتهى الواحد ويبدأ الاخر فهما يؤديان معا الى زيادة معدل الهجرة وازدياد النمو السكانى .

ويتفق جـوبرج Sjoberg مع ولكنســون Wilkinson فى ارتبــاط التصنيع بالتحضر مما يؤدى الى تضخم المدن فى الدول الاخذة بالتصـنيع باكبر من معدلها الطبيعى (١٥) .

ويعتبر التصنيع اساس تطوير الاقتصاد الوطنى وضمان أسـتقلال البلاد وتعزيز قوتها الدفاعية والطبقة العـاملة فى الصـناعة هى الطبقة (الطليعيـة) فى المجتمع التى تقـود « الفـلاحين والحرفيين وغيرهم من الكادحين » فى طريق التقدم (١٦) .

وقـد اهتم اتبـاع الانثروبولوجيا التطبيقية بالانتفـاع بالمعـرفة الانثروبولوجية لخدمة قضايا التنمية فى المجتمـع والتعرف علىالتحـديات الثقافية التى تقف عائقا أمام التنمية الاقتصادية والصناعية فى بعض هذه المجتمعات ، وبينما حاول البعض امثال ايفانز برتشارد الكشف عن حقيقة استغلال الانثروبولوجيا التطبيقية بواسطة الادارة الاستعمارية حذر البعض الاخر من المبالغة فى توجيه هذا الاتهام (١٧) .

وينظر البعض امثال بيلز وهويجر (١٨) الى ضروب التنمية الصناعية التى تقدمها الدول المتقدمة صناعيا للدول المتخلفـة صناعيا باعتبارها من اشكال **« الاستعمار الجديد »** أو تعويضا عن الظلم السابق التى تعرضت له هذه البلدان ومن بين ما استشهدوا به من أدلة ما ذكره الرئيس ترومان من أن مساندة الولايات المتحدة للدول المتخلفة تهدف الى أن تأخذ بيـدها لبلوغ مستوى التقدم بمعناه المألوف فى الولايات المتحدة نفسها .

وقد تبنى معظم علماء الانثروبولوجيا الاجتماعيـة الاتجـاه الوظيفى Functionalism كاستراتيجية مناسبة للدراسة (١٩) .

واستاثر التصنيع والتغير الثقافى باهتمام بعض رواد هذا الاتجـاه امثال مالينوفيسكى Malinowski الذى حاول استجلاء آثـار التصنع على بعض المجتمعات المحليةالقروية فى افريقيا (٢٠) .

ويهتم أنصار هذا الاتجاه بدراسة التصنيع فى ضوء علاقته بالسياق الجتمعى للمجتمع المحلى فقد أوضح أرنسبرج وكيمبال Kimball أن العلاقة بين التصنيع والمجتمع المحلى علاقة دينامية أذ بينما يؤثر المجتمع المحلى على التنظيم الاجتماعى فى الصناعة يؤثر هذا التنظيم الصناعى بدوره على البناء الاجتماعى فى المجتمع المحلى فالتصنيع والمجتمع يشبهان « متصلا » بحتلا لتصنيع أحد اطرافه والمجتمع المحلى الطرف الاخر ولا يتسنى دراستهما الا بترجمة هذا « **المتصل** » الى مجموعة من أنماط السلوك التى يسهل قياسها .

وقد ازداد اهتمام علماء الانثروبولوجيا بدراسة التصنيع بعد التحول الكبير من دراسة المجتمعات الصغيرة المنعزلة الى المجتمعات الصناعية الكبيرة فتكونت **جمعية الانثروبولوجيا التطبيقية** عام ١٩٤١ ، وقد اخذت هذه الجمعية تهتم منذ ذلك الوقت بنشر الدراسات التى تدور فى المجال الصناعى ، وتبلور هذا الاهتمام على يد Warner وعلماء جامعة شيكاغو ، ومن ثم ازداد اهتمام بعض علماء الانثروبولوجيا بدراسة البناء الاجتماعى فى مجتمعات صناعية حديثة وبمعايير الضبط الاجتماعى بها كما ازداد الاهتمام بدراسة التحولات الحديثة فى الانشطة الاقتصادية وفى نمط العلاقات فى المجتمعات الصناعية والنظم الاجتماعية المتمشية مع التقدم التكنولوجى (٢١) فيها ويرجع الفضل لعلماء الانثروبولوجيا فى الاهتمام أساسا بالمجتمعات غير الغربية وعلى الاخص مجتمعات العالم الثالث فقد اهتم هاوسر على سبيل المثال (٢٢) بدراسة العلاقة بين التصنيع ونمو المدن فى آسيا وتوصل الى أن التصنيع قد أدى الى حراك القوة العاملة من الانتاج الاولى (الزراعة) الى الثانوى (المهن غير الزراعية) وبخاصة فى القطاع الثالث (أو ما يعرف بقطاع الخدمات) .

ولعل الفترة التى تلت الحرب الاولى قد شهدت بصفة خاصة ازدياد الاهتمام بالدراسات الانثروبولوجية الحقلية فى المجتمعات الصناعية أما الفلسفة التى بدات تقف وراء هذا الاهتمام فتمثلت فى الرغبة فى الانتفاع من المفاهيم والاساليب وادوات البحث التى يستخدمها علماء الانثروبولوجيا فى دراسة هذا النوع من المجتمعات الانسانية (٢٣) مادام التصنيع يؤدى الى تحولات هامة فى البناء الاجتماعى للمجتمع تستحق الدراسة (٢٤) ولعل الحافز الى ذلك يكمن فيما وصفه روبرت ردفيلد بقوله « ومع نمو وانتشار الحضارة تمتد العلاقات الانسانية خارج المجتمع المحلى وتفقد الكثير من تماسكها وانسجامها كما هو الحال عندما تتطور وتنمو ميادين النشاط الصناعى » (٢٥) .

والتصنيع والتحضر أيضا يشبهان غيرهما من الظواهر فى أنهما لا يعملان فى عزلة عن باقى عوامل التغير الاجتماعى محلية وقومية ودولية ومن ضرورات الدراسة فى هذه الحالة استجلاء هذه العلاقة التفاعلية وتفسير صور التغير البنائى فى مجتمعات صغيرة الحجم نسبيا اذ يرتبط التصنيع مع مختلف أوجه النشاط الاقتصادى والديموجرافى والسياسى ، ولا يغيب عن الذهن انه منذ قيام الثورة الصناعية ازداد الاتصال بين الدول وتشابكت علاقاتها ولم تصبح الاسواق قومية فحسب بل بدأت تأخذ الطابع الدولى لكثرة الاتصال بين الدول وتشابك علاقتها الاقتصادية فى الوقت الحاضر (٢٦) .

امثلة لبعض الدراسات الحقلية :

١ — دراسة لويد وارنر (٢٧) :

اشتهر وارنر بدراساته وأبحاثه الحقلية فى المجال الصناعى وترجع شهرته اساسا الى دراساته التى أجراها فى الولايات المتحدة فى الاربعينيات من هذا القرن عن مدينة Yankee City وتقع هذه المدينة فى ولاية « نيو انجلند » حيث كانت تضم حوالى ١٧ الف نسمة .

وقد قام وارنر بدراسة عمال الاحذية فى المدينة وذلك بهدف القاء الضوء على **النسق الاجتماعى للمصنع** من ناحية والعلاقة بين الصناعة والمجتمع المحلى الذى توجد فيه من ناحية أخرى .

وقد استخدم الباحث المدخل الانثروبولوجى واستعان بعدة وسائل لجمع البيانات من المجتمع **المحلى والمنظمات الرسمية وغير الرسمية الى جانب النقابات والاتحادات** وساعده ذلك على الخروج بواحدة من الدراسات الرائدة فى هذا الميدان (*) .

(*) سبق أن اشترك لويد وارنر فى أبحاث هاوثورن التى قام بها مايو كما سبق له ان استعان بالاتجاه الانثروبولوجى فى دراساته الحقلية فى استراليا وايرلندا .

ويمكن ايجاز **اهم النتائج** التى خرج بها من دراسته فى النقاط الاتية :

أ — قدم وارنر صورة صادقة **للبناء الاجتماعى** فى المدينة وقد وضع عدة مؤشرات لتحديد الوضع الطبقى والتدرج الاجتماعى كالتعليم المهنى ، الملكية ، الدخل ومكانة الاسرة والاصدقاء والنادى الذى ينتمى اليه الشخص علاوة على ما يتسم به من الخصائص الاخرى الشخصية والسلوكية ، وقد تمكن وارنر Warner التمييز بين عدة **طبقات اجتماعية واقتصادية** هى :

العليا العليا ، العليا السفلى ، الوسطى العليا ، الوسطى السفلى ، الدنيا العليا ، الدنيا السفلى .

ب — اكتشف أن نصف سكان المدينة على وجه التقريب ينتمون الى عدة قوميات حيث يمكن تقسيم سكان المدينة الى **١٠ جماعات** هى :

جماعة يانكى سيتى ، الايرلنديين ، الفرنسيين ، اليهود ، الايطاليين ، البولنديين ، اليونانيين ، الارمن ، الروس ، والزنوج .

جـ — استنتج وارنر أن هناك عدة **فئات مهنية** ومنها على سبيل المثال الموظفين ، العمال المهرة ، أصحاب الورش الصغيرة ، العمال شبه المهرة ، العمال غير المهرة .

د — ابرز وارنر الدور الذى لعبته **الطبقة العليا** حيث تمكنت من السيطرة على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية واستحوذت على بناء القوة فى المدينة .

هـ — كانت المدينة تقوم أساسا على صناعة الاحذية باعتبارها عماد النشاط الاقتصادى فيها وقد أدى استخدام **الالات الصناعية** (الحديثة) الى حدوث تغيرات فى البناء المهنى (الكلاسيكى) مما أدى الى القضاء على التدريب الحرفى (التقليدى) وأصبح العمال المهرة **نصف مهرة** ازاء التغيرات التى طرأت فى النسق الحرفى .

و ـ استشعر Warner منذ بداية قيامه بالدراسة أن العمال يبذلون الجهود التى ترمى لتوحيد صفوفهم كما قاموا بتكوين نقابة عمالية للدفاع عن حقوقهم (وتكتلوا للدفاع عنها ضد ادارة المصنع) وبدأ اضرابهم الفعلى سنة ١٩٣٣ حيث اضطرت الحكومة للتدخل لانهاء الصراع القائم عن طريق التفاوض مع العمال .

ز ـ لم تفت وارنر هذه الفرصة فقام بدراسة الظروف المصاحبة للاضطرابات كظاهرة من ظواهر الصراع الدائر بين العمال واصحاب الاعمال .

ح ـ اكتشف وارنر أن أصحاب الاعمال قد ابتعدوا عن السكنى بجوار محال عملهم مما أدى الى تحول العلاقة التى تربطهم بالمدينة الصغيرة الى (علاقة ثانوية) واصبح قادة النقابة فى الموقف الجديد هم المثل الاعلى للعمال (بدلا من أصحاب العمل) .

ط ـ لم تعد للمدينة الصناعية مكانة اقتصادية عالية وانخفضت كذلك مكانة المصنع فى المجتمع المحلى وأدت الاضطرابات الى اضعاف الادارة وتزكية الروح النقابية بين العمال .

تعقيب :

برغم الشهرة الواسعة التى اكتسبتها دراسة وارنر والثراء الحقيقى الذى اتسمت به فى توصيفها للواقع الاجتماعى الا أنها أفاضت فى تبسيط **ظاهرة التدرج الاجتماعى** فى المجتمع الامريكى بالصورة التى توحى بأن فى وسع افراد الطبقة الدنيا (الدنيا) أن يصعدوا (سريعا) الى الطبقة العليا (العليا) متى توفرت لهم السمات الشخصية والظروف الاجتماعية والمهنية المناسبة ، ولكن الواقع ليس بهذه البساطة التى يفترضها وارنر فى وصفه للمجتمع (الرأسمالى) الغربى كما أن الامر لا يتوقف على الخصائص الشخصية فحسب بل على جماعات المصلحة فى المجتمع الامريكى .

٢ ـ دراسة كوترل (٢٨) :

ومن بين الدراسات التى لا يسوغ اغفالها الدراسة التى قام بها كوترل Cottrell لمدينة Caliente Nevada وهى مدينة صحراوية

صغيرة شيدت كمحطة لخدمة قاطرآت السكك الحديدية وكان الباحث يهدف من هذه الدراسة اكتشاف رد الفعل ازاء التكنولوجى بعد أن فقدت المدينة الاساس الاقتصادى لوجودها (حيث افترض كوترل أن مدينـــة كالينت فى طريقها الى الذبول بعد أن بطل اســـتخدام الفحم الحجرى وبدأ استخدام الديزل) ولعل هذا هو السر فى انه أطلق على دراسته المنشورة عن المدينة عنـــوان Death by Dieselization وقد استعان بالاتجاه الانثروبولوجى مستخدما النظرة الضيقة حيث اعتبر المدينة بمثابة حالة Case وخرج من دراسته بعد نتائج يمكن اجمالها فيما يلى :

ا ـــ أن المدينة كانت تتميز بامتدادها العمرانى وجذبها لمختلف التخصصات للعمل فى صيانة القاطرات وازدهر فيها بالتالى النشاط الصـــناعى والتجارى والخدمات .

ب ـــ استمرت المدينة قائمة على أساس صيانة القاطرات حتى بطل استخدام الفحم الحجرى وبدأ استخدام الديزل فتغيرت الوظائف الاقتصادية لهـــا .

ج ـــ تعرضت المدينة لمجموعة من التغيرات الاجتماعية كان أبرزها هجـــرة الرجال (الى خارج المدينة) وذلك بهدف البحث عن موارد أخرى للعيش (وقد ظهر هذا بصفة خاصة بالنسبة لكبار السن) وهكذا ازدادت عزلة المدينة نتيجة للتغيرات التكنولوجية التى اقصت المدينـــة عن نشاطها الاقتصادى التقليدى .

د ـــ تغيرت بالتبعية العلاقة التى تربط المدينة بالمجتمع الاكبر نتيجة للتغيرات العنيفة التى اجتازها المجتمع المحلى . وهى النظرة الماكرو التى تربط المدينة بالمجتمع الاكبر .

تعقيب :

تعد دراسة كوترل من الدراسات الهامة التى درست العـــلاقة بين المجتمع المحلى والتغير فى التكنولوجيا الصناعية (التى يعتمد عليها المجتمع المحلى) وان كان كوترل قد أسهب فى وصف عـــزلة كالينت بريشة الاديب اكثر منها بلغة الدارس (لوصف العلاقة بين التصنيع والمجتمع المحلى) .

٣ ـــ دراســـة جريسى :

وهى دراسة لاحد الاقاليم المنعزلة فى Kentuchky (٢٨) ويتلخص الهـــدف الاساسى للبحث فى دراسة **اثر دخـــول صناعة التعدين الى أحـــد الاقاليم** المنعزلة ، حيث كان التساؤل الرئيسى هو ماذا يحدث عندما يتعرض احد المجتمعات المنعزلة لتغيرات اجتماعية وأقتصادية مفاجئة ؟ وقد اعتبر جريسى E. Greesey ان المجتمع المحلى وحدة متغيرة ، وحاول تحليل وضعه قبل وبعد غزو المنجم والصناعة للمنطقة .

وقد خرج جريسى ببعض النتائج ويمكن اجمالها فيما يلى :

أ ـــ كـــانت الاسرة والمجتمع المحلى تكونان حا ركـــائز استقرار المجتمع التقليدى وكان النسق ألقرابى يدعم هذا الاستقرار بما يقدمه من دعائم العلاقات المتبادلة غير الرسمية حيث كان هذآ الاقليم المنعزل الجبلى يفتقـــد الى دعائم الاستقرار والتـــدرج الطبقى (المعروف فى المجتمعات المحلية الرينية التى تعيش على ألزراعة) .

ب ـــ **تحرر افراد المجتمع المحلى** من ألكثير من الروابط والعلاقات التقليدية (نتيجة لدخول الصناعة) بينما فشـــل التغير الاجتمـــاعى فى الوقت الراهن فى امدأدهم ببدائل كافية مما ادى لازدياد معـــدل الجريمـــة وانحراف ألاحداث وازدياد معدل الطلاق .

جـ ـــ ادى التصنيع الى **تهـــديد التنظيم الاجتماعى التقليـــدى** بينما فشل فى

ارساء الدعائم الجديدة للاستقرار (ويعتقد جريسى بأن هذا هو حال التصنيع فى معظم بلدان جنوب افريقيا والهند الصينية والشرق الادنى والوسط) .

د — تحويل الاقتصاد (المعيشى) المكتفى ذاتيا للمجتمع المحلى الى آخر أكثر أعتمادا على **الاقتصاد والاجر النقدى** والانتفاع (العينى) كما ازداد تبلور البناء الطبقى فى المجتمع المحلى فى (طبقة الرؤساء وطبقة العمال) .

هـ — تسود الان علاقات **التنافس والاستقلال** بدلا من التعاون المتبادل ، وادى هذا الى تحطيم التماسك الاجتماعى (التقليدى) تحت ضغط التصنيع .

وغنى عن القول أن جريسى قد اهتم بالنظرة الضيقة للمجتمع المحلى دون أن يركز كذلك على النظرة المتسعة التى تربط هذا المجتمع (المنعزل) بالمجتمع الاكبر ، وبعبارة أخرى فقد استنتج الباحث أن التصنيع قد أدى الى تهديد التنظيم الاجتماعى القائم للمجتمع المحلى ، وكان بوسعه أن يتتبع نمط العلاقه بين المجتمع المحلى والمجتمع القومى ، ومع أن التصنيع فى حالتنا هذه — يعد الممثل الشرعى للمجتمع الخارجى فى تأثيره على المجتمع المحلى — الا أنه من الصعوبة بمكان أن نعزى كل التغيرات التى تحدث فى المجتمع المحلى للتصنيع (وحده) دون غيره من المتغيرات .

الدراسات الحقلية فى المجـال الصناعى

اولا ـ الورش الصـناعية فى مصر :

الدراسة التى بين أيدينا تتناول **البناء الاجتماعى للورشة فى احـدى المناطق الصناعية** (مدينة الاسكندرية) وقد قام بهذه الدراسة الحقلية قسم الانثروبولوجيا ، وقسم الاجتماع والمعهد آلعالى للخدمة الاجتماعية بجامعة الاسكندرية بالتعاون مع مؤسسة كونارد اديناور بالمانيا الاتحـادية (التى قامت بتمويل **الدراسة فى مراحلها المختلفة**) وتهدف الدراسة الى التعرف على بنية الورشة والى تحديد موقف المجتمع من هذه المؤسسات الصناعية الصغيرة واتجاهات أهالى المدينة نحو العمل اليدوى .

وقد بدات الدراسة الحقلية بمرحلة **استطلاعية** وذلك فى منطقة كوم الناضورة باعتبـارها تضم تجمعات عمالية عـديدة تشـتغل فى الورش الصناعية ، وورش الحـدادة فى منطقة باب شرقى ، وقـد واكب اجراء الدراسة الاستطلاعية عملية مسح للاسر والدحدات الحرفية فى منطقـة كوم الناضورة وباب شرقى . وتضمنت الدراسة الاسـتطلاعية مسـحا لايكولوجية المنطقة يشمل التعرف على الحـدود الادآرية وأهم الشوارع والاحياء (الصغيرة) بخصائصها العمرانية المتمايزة التى ستجرى فيهـا الدراسة الميدانية .

وقد اعتمد الباحثون فى جمع المـادة الاثنوجرافية على عدة شرائح مهنية ، منهـا :

ا ـ اصحاب الورش .

ب ـ الاسـطوات .

جـ ـ العمال المبتدئون والصبية .

وقد ركز الباحث على الورشة فى المدينـة الصناعية المتروبوليتانية

(الاسكندرية) والورشة كما عرفتها الدراسة عبارة عن **وحدة انتاجية صغيرة** تقوم فى دكان يعمل فيه « أسطى » يعاونه اثنين أو ثلاثة من العمال وعدد من « الصبية » وهذا النمط الانتاجى نجده ليس فقط فى مجال الحرف الصناعية بل وكما حددته الدراسة الانثروبولوجية يشمل المجال التجارى الذى يخدم هذه الحرف أيضا ويتمثل فى عشرات (الدكاكين) الصغيرة التى تفتقد الى راس المال الكافى واذ ذاك فان هذه الورش تعتمد على الادوات التقليدية فى العمل دون الالات الحديثة .

أما العمل الميدانى الذى استخدمت فيه الملاحظة بالمشاركة لدراسة البناء الاجتماعى Social structure للورشة فقد قام به ٥ من الباحثين تحت اشراف بعض أعضاء هيئة التدريس بقسم الانثروبولوجيا جامعة الاسكندرية (١) .

وقد تضمنت **الدراسة الايكولوجية** محاولة تحديد الانشطة الحرفية وتجمعات الورش فى منطقة الدراسة كما أفادت هذه الخطوة من خطوات الدراسة فى تعريف الاهالى بماهية الدراسة الانثروبولوجية والاتصال بهم والتغلب على سوء فهم أفراد المجتمع المحلى لطبيعة الدراسة لئلا يتعطل سير العمل الميدانى فى هذا المجال نتيجة لذلك .

وقد اعتمدت المرحلة التالية على **الزيارات والمقابلات** حيث يقوم باحثان معا بالعمل فى الورشة الواحدة ، مما ادى الى توفير الظروف الملائمة لبقاء الباحثات فترات طويلة من اليوم بالورشة للقيام بالملاحظة وقد بلغ عدد الورش التى تمت دراستها فى **كوم الناضورة** ٣٨ ورشة تتضمن الحدادة والخراطة وسمكرة السيارات والطباعة ... الخ .

أما الورش التى تمت دراستها فى **باب الشرقى** فقد بلغ عددها ٢٤ ورشة كذلك موزعة على مختلف التخصصات .

وقد أفلحت الملاحظة بالمعايشة فضلا عن الحوار التلقائى مع العمال واصحاب العمل فى جمع بيانات تفصيلية عن :

---

(١) أنظر د. محمد عبده محجوب — تقرير حول الدراسة الانثروبولوجية للبناء الاجتماعى للورشة فى مدينة الاسكندرية فى المؤلف الذى قدم له د. أحمد أبو زيد جامعة الاسكندرية بدون تاريخ .

- موقع **الورشة** وعلاقتها بالمنطقة ونوع المبنى .
- مقومات **العمل** فى الورشة واتجاهات العمال نحو العمل اليدوى .
- نوعية **اصحاب الورش** .
- التدرج **الاجتماعى** للمهن .
- روافد **العمالة** واختيار الصبية ومدى الاستعانة بالفئات المتعلمة .
- علاقات **العمل** داخل الورشة ، وتقسيم العمل .
- مشكلات **التدريب** والغياب والاصابات .
- مشكلات **الضرائب** والتموين والتأمينات الاجتماعية .
- الخدمات **الاجتماعية** للعاملين بالورشة .
- الورشة **والتنظيمات غير الرسمية** خارج مجال العمل .
- خصائص **الجمهور** الذى يتعامل مع الورشة واسلوب التعامل .
- التطورات **الفنية** فى مجال الحرفة .

بعض نتائج الدراسة الحقليــة :

أ — اتضح أن **الوراثة** تلعب دورا كبيرا فى تملك الكثير من الشبان للورش (بعد وفاة الوالد) كما أن هناك بعض العمال الذين هاجروا للبلدان العربية فتحولوا من عمال الى أصحاب ورش ، وقد تتبع فــريق البحث صورا لتنافس الصراع بين الورش التى تعمل فى آطار الحرفة نفسها .

ب — أبرزت الملاحظة الفعلية لعمال الورش أن بعض الظروف الاجتماعية كارتباك الظروف الاسرية نظراً لوفاة الوالد أو زواجه الثانى أو كثرة

المسئوليات الاسرية والفشل فى التعليم وغيرها تتحكم فى توجيــــه الصبية للعمل اليدوى فى الورش الصغيرة .

جـ — أمكن من خلال المشاركة المتعمقـــة — فى هذا المجال — اكتشـــاف ان كثير من عمال القطاع العام قد أبدوا استعدادهم **للعمــل بورش القطاع الخاص** لفترات محدودة وانهم لا يشكلون عبئا على أصـــحاب الاعمال فيما تعلق بالتأمينات الاجتماعية والضرائب (حيث يعمـــل معظمهم بعد الظهر أو مساء) أو يقـــومون بالعمل فى المنزل على أن بأجور تقل عن تلك التى يتقاضاها العمال الذين يعملون بالورشة كل الوقت .

د — اتضح من الدراسة الميدانية أن **الصراع الحــرفى** داخل الورشـــة تســـلم المصنوعات لاصـــحاب الورش ، وهم يرضون فى المقـــابل يتمثل فى تنافس « الاسطوات الكبار السن والصنايعية الشـــبان » (حيث يحاول الصنايعى أن يحقق ذاته معتزا بقـــدراته على العمـــل الشـــاق ، وتضحيته بالسفر للخارج مما يمكنه من الحصـــول على دخل مرتفع وهم يرغبـــون عادة فى الاستعانة بأدوات انتـــاج متطورة بينما ينتقدهم الاسطوات الكبار لافتقـــادهم للصبر والخبرة والامانة فى العمل ، والقدرة على الابتكار كما أنهم منغمســـون — من وجهة نظرهم — فى الملاهى وغير منضبطين فى مواعيد أعمالهم .

هـ — يحكم علاقات العمل بالورشـــــة **نظام « هيراركى »** للتدرج يتمركز فى أعلاه « الاسطوات » ولهم وضع مميز بالنسبة لبقيـــة العمـــال والمســـاعدين والصبية ، والاسطى فى ورش ميكانيكا الســـيارات على سبيل المثال لا يقـــوم بالعمل بنفسه ولكنـــه يكتفى بالفحص المبدئى وبقـــدر تكاليف الاصـــلاح ثم يصـــدر تعليماته بمهمة الاصلاح وتفصيلاتها للعمال ، ويقوم الصبية بمناولة أدوات العمل واحضـــار الشاى والطعام كما يتعرضون فى حالة التقصير للشتم والضرب ، وهذا التدرج الهيراركى يتضح كذلك فى اختلاف الاجور كما يعـــكس اختلاف الخبرة والمهارة داخل الورشة .

و — يكون العمل داخل الورشة **عادة « بالمقطوعية »** فالعامل يتقـــاضى اجره حسب انتاجه وبخاصة فى مجالات التجـــارة والخراطة وصناعة الاحذية — وهنا يحاول العامل أن يقضى أطول وقت ممكن بالورشة

تحقيق دخل مرتفع . بينما يغبط أصحاب الورش والعمال عمال الحكومة (الذين يعملون فى ساعات قليلة ومحدودة ويتمتعون بأجازات كثيرة) .

وتتحول الورشة فى الحقيقة الى **وحدة اجتماعية** يرتبط فيها صاحب الورشة والعمال بعلاقات وثيقة فهم يتناولون الطعام (معا) ويجلسون (معا) فى أوقات الراحة من العمل ويتبادلون الزيارات والتهانى والتعازى مما يؤدى الى تكوين وحدة مصالح قوية بينهم كما تتم اللقاءات عادة بعد انتهاء العمل فى المقاهى الشعبية المنتشرة فى المدينة .

الصعوبات التى اعترضت الدراسة الحقلية :

١ — **عبر اصحاب الورش عن مخاوفهم** أن تكون ثمة علاقة بين المعلومات التى يجمعها فريق البحث والجهات الادارية المسئولة عن الاشراف عليهم كمصلحة الضرائب والجهات الادارية المسئولة عن الاشراف عليهم كمصلحة الضرائب والتموين والتأمينات الاجتماعية وغيرها حيث كثف فريق البحث جهوده وعلاقاته الوثيقة بالناس لتبديد تلك المخاوف .

٢ — **صعوبة التسجيل الفورى** للملاحظات نتيجة لشكوك اصحاب الورش والعمل حيث يضطر الباحث فى هذه الحالة الى تدوين اللقاءات فور انتهاء المقابلة مع الاحتفاظ بالتعبيرات التى استخدمت فعلا فى هذا السياق .

٣ — اعتذار بعض أصحاب الورش عن استقبال فريق البحث أثناء العمل حيث ادعى البعض فى الوقت نفسه استعدادهم الشخصى لاعطاء الباحثين ما يطلبونه من وقت ومعلومات دون اتصال بالعمال .

نقد الدراسة الحقلية :

اتجهت الدراسة للتركيز على طرح الاسئلة المباشرة بالنسبة للعمال وأصحاب الورش ومع أنه كان بوسع فريق البحث المدرب تدريبا عاليا أن

يستخدم الملاحظة بالمشاركة بطريقة أكثر فاعلية من مجرد الدراسة المختصرة لحالة الورشة والاسطى ، والعمال ، والصبية (عن طريق الاستقصاء) والعذر هنا يتمثل فى أن الهدف من الدراسة كان التعرف على نظرة الناس للعمل اليدوى ، ومعرفة أنساق هذا العمل ذاته مما زاد من غلبة الطابع الكمى على المسحة الانثروبولوجية والاثنوجرافية المتعمقة فضلا عن أن الدراسة تعد ثمرة للتعاون بين تخصصات مختلفة فى مجال الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع والخدمة الاجتماعية فهى من الدراسات الرائدة التى جمعت فريق العمل الذى ينتمى الى هذه التخصصات .

كما أن العمل فى الدراسة الانثروبولوجية نفسها كان يرتكز على فريق البحث الذى كان يجتمع (يوميا) لاستعراض ما تم انجازه وتذليل الصعوبات والترتيبات اليومية لنزول الميدان .

ولا شك أن **تعاون فريق البحث** المتعدد التخصصات — من جهة — مع فريق البحث الانثروبولوجى فى مجال العمل الميدانى — من جهة أخرى — يعد من بين الاساليب الفعالة فى الدراسة الحقلية حيث تتعدد **الخبرات وتتنوع الاتجاهات البحثية** مما يضمن للدراسة **شموليتها** لكافة الابعاد نتيجة لتضافر الجهود .

وغنى عن القول أنه بينما يكون من المستحسن فى حالة دراسة الاسرة أن يقوم بهذا الباحث الفرد فان المجالات الاخرى كالورشة والمدرسة والورشة يستحسن أن يتضافر فى دراستها فريق البحث الانثروبولوجى (المتكامل) بشرط التعاون الوثيق بين أفراده . ونجسد هذه الدراسة الحقلية المواصفات المطلوبة للدراسة السوسيوانثروبولوجية .

ثانيا : اثر التصنيع على المجتمعات المحلية الصغيرة فى المدن العاصمية : *

تناولت الدراسة الراهنة أثر التصنيع على ألانساق الاجتماعية لأحد الاطراف الجنوبية لمدينة القاهرة بغية التعرف على الاثار ألتى يعكسها التصنيع على الانساق الاجتماعية فى الاطراف الحضرية وقد أستخدمت **الملاحظة والملاحظة بالمشاركة مع الاستعانة بـ « الاخباريين » ودراسة الحالة** (٢٠ حالة) واستمارة الاستبيان (٤٠٠ أسرة) فضلا عن دراسة الحالات المثيرة ألاستبصار ، واتضح من ألدراسة الحقلية ان ثمة آثار بعينها قد عكسها التصنيع على الانساق الاجتماعية فى المجتمع المحلى نلخصها فيما يلى :

١ : اثر التصنيع على النسق الايكولوجى :

— شجع التصنيع **على الاتصال (العضوى) بين مجتمع الاطراف** والمدينة فامتدت المشروعات الصناعية أليه (٣ مؤسسات صناعية) فضلا عن مؤسسات الخدمات والورش الصغيرة وقد ارتبط المجتمع المحلى مع وسط المدينة بشبكة سريعة من المواصلات العامة فاتجه لانضمام المجتمع الى «كردون المدينة».

— ازداد التكالب على شراء الارض الزراعية من « **أولاد البلد** » لاقامة مساكن عليها مما أدى الى ارتفاع القيمة الايجارية وظهور مبدأ خلو الرجل كشرط أساسى للحصول على ألسكن .

— ازدياد معدل **الهجرة الوافدة لمجتمع الاطراف** مع تماسك أولاد البلد وازدياد تقاربهم مما أدى الى تقسيم المجتمع الى منطقة دائرية على **تخوم المنطقة** تسكنها الشرائح النازحة للمنطقة

(*) تلخيص لجزء من رسالة الدكتوراه التى تقدم بها الباحث الى جامعة عين شمس سنة ١٩٨٠ بعنوان « أثر التصنيع والتحضر على البناء ألاجتماعى فى المجتمعات الصغيرة » — رسالة غير منشورة .

فى مقابل منطقة أصلية او بؤرية Focal « فى صرة المنطقة » تجمع أولاد البلد « الاصليين » وغنى عن القــول أن الشرائح النازحة تعمل عادة خارج المنطقة فمعظم الشرائح النـــازحة قد وفدت للمنطقة نتيجة للفشل فى العثور على مسكن فى مدينتى القاهرة والجيزة ، وليس نتيجة لجذب المجتمع المحلى أو للعمل فى مشروعاته الصناعية .

ومن هنا ظهر ما يعرف « **برحلة العمل اليومية** » من والى باقى أجزاء المدينة المتروبوليتانية .

ب : اثر التصنيع على النسق الديموجرافى :

— ان الشرائح الوافدة لمجتمع الاطراف تفــد عادة من الوجه القبلى (٥١ ٪) فالوجه البحــرى (٣٤٪) ثم مدينة القــاهرة نفسها (١٥ ٪) ويرجع هــذا الى أن المجتمع المحلى يقـــع فى بداية الطريق المتجه للصــعيد ، وتتضمن الفئـــات التى انتقلت الى المنطقة من أحياء أخرى فى العاصمة شرائح سكانية استقرت فى المجتمع المحلى نتيجة لنجاحها فى العثــور على المسكن ، ومعظمهم ممن تزوجـــوا فى السنوات الاخيــرة ، وهكذا يصبح المجتمع المحلى مسرحا لتقابل العديد من الثقافات الفرعية .

— ان الفئـــة العمرية التى تقل أعمارها عن ٢٠ سنة ويصـــل حجمها الى ٥٧ر٧٪ من مجموع أفراد الاسرة ويعنى هذا **ازدياد معدل الخصـــوبة داخل الاسرة** أما من تتراوح أعمارهم بين ٢٠ سنة الى ٦٠ ســنة فتبلغ نسبتهم ٤١ر٤ ٪ (٢١ر٨ ٪ ذكور و ١٩ر٦ ٪ اناث) فاذا افترضنا أن على الذكور فى الفئة الاخــيرة يقع عبء اعالة الصــغار (أقل من ٢٠ ســـنة) والنساء (اللائى لا يشاركن فى قوة العمل) لاتضح أن هـــذه النسبة التى تزيد عن خمس مجمـــوع الافراد بقليل — تتحمل المسئولية الاكبر فى رعاية باقى أفراد المجتمع المحلى كما أن قلة كبـــار السن يجعل هذا المجتمع فى صـــورة « شابة » الى حد كبير لغلبة صغار السن والاعمار الوسطى .

— تسود **الاسرة الزواجية** عادة فى هذا المجتمع نتيجة لضـــيق المســكن وعجـزه عن استيعاب أقارب الزوجين كما تنخفض للغاية معدلات ارباب الاسرة الذين يلجأوا الى تطليق زوجاتهم أو للزواج الثانى .

— ان نسبة لا بأس بها تستخدم فى الوقت الحاضر **وســـيلة من وسائل تنظيم الاسرة** اذ أن وجـود الاسرة فى منطقـة حضرية صناعية فضلا عن ظروف الحياة المعقدة يعـد من بين العوامل المحفزة لتنظيم النسل .

جـ : **النسق الاقتصـــادى :**

— استحوذت **المهن الصناعية واعمال البنـاء** على ٤١٫٥ ٪ من افراد القـوة العاملة فى المجتمع المحلى مقابل ٥٤٫٥ ٪ تعمـل بالقطاع الثالث (قطاع الخدمات) وقد جاء هذا نتيجة لتحـــول مجتمع الاطراف من النشـــاط الزراعى (كنشاط رئيسى) الى العمل الصناعى وما يتصل به من أعمال ادارية وخدمية .

— ازداد جذب المجتمع المحلى لقوة عاملة كبيرة تعمل داخله وتسكن خارج حدود (من بين الفئات التى تسكن خارج المجتمع وتشتغل فى مؤسساته فئـة الادارة العليا وغالبيـة التخصصات الفنية والادارية والعمال نصف المهـرة وغير المهرة ، وتضم هـــذه الفئـات نسبة ليست قليلة من الاناث) وكأن **القوة العــاملة التى تسكن داخل المجتمع المحلى وتعمل خارجه تقـــابلها قوة عاملة تعمل فى المجتمع دون ان تعيش فى المنطقة نفسها .**

— **زحف السوق الى المجتمع المحلى متمثلا** فى عشرات الحـوانيت التجارية التى ينتمى اصحابها للمنطقة أو للمجتمعات المحليـــة المجاورة وقد جذبتهم الاغراءات المرتبطة بوجود المؤسســـات الصناعية والتركز السكانى الكبير فى مجتمع الاطراف .

— **ازدواجية النسق الاقتصـــادى** الذى يضم الى جانب أدوات الانتاج **المعقـــدة** والتكنولوجيا والمتقـدمة أدوات انتاج **أولية**

وبسيطة تمثلت فى مصانع الطوب الاحمر * المنتشرة فى المنطقة ، وتنهض علاقات الانتـــاج داخل المؤسسات على التـــدرج « الهيراركى » فى السلم الوظيفى واستخدم اللوائح الرسمية داخل التنظيم الرسمى .

— ظل التصنيع فى مجتمـع الاطراف يمثل **نشــاطا اقتصــاديا هامشيا** الى حد كبير ، فصناعة المبردات والاثاث تعتمـد بدورها على المواد الخـام التى تستوردها الدولة من الخـارج كما أن القــوة العاملة تعمل عادة فى المهن غير التخصصية (فعـلة — خفراء — الخ) فضلا عن أعمال البناء ويتحقق العـامل قدرا كبيرا نظير اســتغلال قوته البدنية وخبرته حيث تنتشر ورش (البلاط) فى المنطقة ، والقوة العاملة فى هذا المجتمع أميــة غير مدربة ينقصها الخبرة والمرأن .

— ان الدخل الشهرى يكاد يكفى بصعوبة احتياجات الشــخص واسرته ، وفى الوقت الذى ينـــدر فيه أن يلجـــأ الشخص للاستدانة من الغير (بصورة مستمرة) تقل الى حـد كبـير عملية الادخار وترشــيد انفاق الدخـل أو استثمار المدخرات فى مشروعات تعود على الشخص وعلى اسرته بالفائدة .

: **النســـق القـــرابى :**

— يتمثل النمط السائد فى الاسرة الزواجية Conjugal أو **النووية** Nuclear كما أن نمط الزواج عادة هو الزواج من غير الاقارب ويغلب عادة **الاهتمام** بفترة الخطوبة باعتبارها مرحلة اختبـار كل طرف لشريكه وتزداد أهميــة النواحى المظهرية المتصـلة بالافراح كقيمة الشبكة وزفة العروس وغيرها .

— يتولى الزوج والزوجة معا « البت فى شئون ومقتضيات الحياة الاسرية ، **فالاسرة هنا تأخذ الطابع « الديمقراطى »** وبخـاصة

(*) قبل عام ١٩٨٠ .

فيما يتعلق باتخاذ القرارات المصيرية المتصلة بزواج وتعـليم الاولاد .

هـ : **بنـــاء القـــوة :**

يتسم بنـــاء القوة فى المجتمع المحلى بانه ((**ديمقراطى الصبغة**)) حيث يتركز الاهتمام **على تنميـــة المجتمع المحلى** ، وبالرغم من عزوف الناس عن المشاركة السياسية الا أن هذا البناء القـــائم — يحاول ان يكسب تعاطف الناس من خلال حل مشاكل الجماعات والافـــراد وقد تحول بنـــاء القـــوة من النمـــوذج « المحلى » الى النمـــوذج « القومى » المنفتح على العالم الخارجى حيث يعمل جاهدا لاستقطاب المزيد من المشروعات الصناعية فى المجتمع المحلى .

و : **الضبط الاجتمـاعى والقيم والاتجـــاهات :**

لم يلفظ المجتمـع المحلى وســـائل الضبط الاجتماعى التقليدية كالعرف والعادات والتقاليد وهو ما يتعارض وما ذكرته دراسات ويرث Wirth وغيره عن ســـيادة ووســـائل القيم الرسمية formal فى المدينة ، وقد أوضحت الدراسة الميدانية أن **المعـارف والاصـــدقاء** يتدخلون عادة لحل المشاكل الشخصية والاسرية وأن **معدلات الجرائم والحوادث لا تزال قليلة** فى المنطقة رغم دخول الصناعة .

وقد اتضح أن أتجاهات الذكور الخاصة بالمراة وتعليمها وعملها ومشاركتها فى صالح الانثى ويعزى ذلك الى تاثير التصنيع والتحضر فى المنطقة .

المصـــــادر

(*) هذا الجزء يعد أحد الاجزاء التى تضمنتها رسالة دكتوراه للمؤلف بعنـــوان « أثر التصنيع والتحضر على البناء الاجتمــاعى فى المجتمعــات الصغيرة » رسالة دكتوراه غير منشورة ــ جامعة عين شمس ــ ١٩٨٠ .

١ — Gutkind, Urban Anthropology, op. cit. pp. 51.

٢ — Ibid, p. 89.

٣ — Some theoritical approaches to the sociological interpretation of labour circulation (In) R. fernea (Ed) Contemporary Egyptian Nubia. American univ. in Cairo. p. 80.

٤ — Social change (In) .. A Southall (Ed.) social change in .. modern Africa, London. 1968, p. 1.

٥ — West African city. London. 1960. p. 219.

٦ — Patterns of culture, England. 1959. pp. 197, 198.

٧ — West African urbanization CAMBRIDGE UNIV. Press. 1965 (In) H. kuper, (Ed) Urbanization and migration in West Africa. London, Univ. of California press, 1965.

٨ — بونومور تمهيد فى علم الاجتماع من ص ١٤٦ : ١٥٢ .

٩ — أحمد أبو زيد ــ البناء الاجتماعى ــ الاسكندرية ــ ١٩٦٦ ــ جـ ١ ص ٢٧٠ : ص ٢٧٦ .

(*) يقصد بها تلك المؤسسات التى تضم أكثر من ١٠ عمال كما أن

ابرز ما يميز هذه المنشآت ضآلة رأس المال (الفردى) وانخفــاض مستوى الكفاية فى الاداء وعــدم الاهتمــام باستخدام التكنولوجيــا الصناعية المتقدمة . وهناك دراسة هامة تبرز الاهمية التى تحتلها هذه المؤسسات الكبرى . انظر :

F.H. Trager, Marxism in Southest Asia, London. 1960.

(*) وهى مقولة منطقية لبعض الدول الصناعية المتقدمة والتى تتميز بالتوازن بين أهدافها ومواردها .

١٠ــ بيلز وهويجر ــ المصدر السابق ــ ج ٢ ــ ص ٨٣٠ : ص ٨٣٦ .

١١ــ W. Moore, Social change. New Jersey, 1963, p. 91.

١٢ــ Traditional Cultures and the impact of technological change N.y. pp. 25 : 32.

١٣ــ الانثروبولوجيا العامة ج ٢ ــ المكان نفسه .

١٤ــ Urban Sociology. op. cit. pp. 38, 39.

١٥ــ جدعون جوبرج ــ الفروق الريفية الحضرية ــ ترجمة محمود عودة فى محمد الجوهرى وآخرون ــ ميادين علم الاجتماع ــ القــاهرة ١٩٧٤ ص ٧٧ .

١٦ــ عمروف ــ اسس تنظيم الصناعة والبناء ــ دار التقدم ــ موسكو ــ بدون ــ ص ٥ و ص ٦ .

مجموعة من اساتذة العلوم الاقتصادية ــ المصدر السابق ــ ص ١٦

١٧ــ Asad (Ed) Anthropology, The Colonial encounter England 1973, pp. 18, 19.

١٨ــ الانثروبولوجيا العامة ــ ج ٢ ــ المكان نفسه .

Faris, Britanica and the Sudan (In) T. Asad (Ed) op. cit pp. 161, 162.

٢٠— Mair. Malinowski. op. cit. pp. 229 : 242.

٢١— S. Morse, Modern small industry, Japan 1965, pp. 2, 52.
ومن الدراسات الهامة كذلك دراسات : ناش Nash وجولدنر Gouldner

٢٢— أنظر ph. Hauser and L. Schnore. the study of urbanization, Chicago, 1965, p. 297.

٢٣— يمكن الرجوع الى دراسة محمـــد عبـــد الله أبو على عن التنظيم الاجتماعى للصناعة — آلاســـكندرية — ١٩٧٢ — المقـــدمة التى حررها — احمد أبو زيد .

١٤— محمد عبده محجوب — الهجرة والتغير البنائى فى المجتمع الكويتى — الكويت — بدون — ص ٥٩ .

٢٥— ردفيلـــد — المجتمع القروى وثقافته ترجمـــة فاروق العـــادلى — الاسكندرية — ١٩٧٣ — ص ١٢٢ .

٢٦— عبد الحميد لطفى — علم الاجتماع — القاهرة — ١٩٧٨ — ص ٨٤ .

٢٧— Social Class in America, N.Y. 1960, Warner and Low The Social System of the Modern factory, New Haven, Yale. Univ. press. 1947.

(*) سبق ان اشترك وارنر فى أبحاث هاوثورن التى قام بها مايو كما سبق له أن استعان بالاتجاه الانثروبولوجى فى دراساته الحقلية فى أستراليا وايرلندا .

٢٨— B. Mercer, Teh American Community N.y. 1956. pp. 83 : 89 (In) D. Calhoun and others (Eds) personality work and Community. op. cit. part. 17.

« الفصـــــل الســـابع »

« الانثروبولوجيــــا الاقتصـــادية »

ترجع الارهاصات المبكرة للانثروبولوجيا الاقتصادية الى **القـــرنين الثامن والتاسع عشر** غير أن البداية الحقيقيـــة تعود الى الربع الاول من القرن العشرين حين قام **وليام كوبرس** W. Koppers (١٩١٥ — ١٩١٦) **وماكس شميدت** M. Schmidt (١٩٢٠ — ١٩٢١) بجمع المـــادة المتناثرة فى مجال الانثروبولوجيا الاقتصادية من خلال أعمال بوشر Bucher وكينـــو Cunow ، وهـــرمنت Herment وكوهلر Kohler ولاش Lasch ، وموزكوسكى Moszkowski ، ومن خـــلال التقييم النقـــدى الذى قدمه أوليفر ليروى O. Leroy فضلا عن أعمال ثورنوالد Thurnwald مالينوفسكى B. Malinowski وارمسترنج Armstrong وريموند فيرث R. Firth وهرسوفتز M.J. Hersovits (1) .

والواقع أن **كارل ماركس** (١٨١٨ — ١٨٨٤) ومن بعـــده **اميـــل دوركايم** Kheim (١٨٥٨ — ١٩١٧) **وماكس فيبر** M. Weber (١٨٦٤ — ١٩٢٠) سبق أن تناولوا الظاهرة الاقتصادية فى ضـــوء علاقتها بالظواهر الاجتماعية الاخرى فأبرز ماركس أن الاقتصـــاد يمثل **البنـــاء** التحتى الذى ينهض عليه **البنـــاء الفوقى** بأكمله (الذى يمثل مجموعة النظم القـــانونية والسياسية والدينية والجمالية ... الخ) حيث ينقسم المجتمع الى **طبقـــة تملك وسائل الانتاج وأخرى تحرم من ملكية هذه الوسائل** ، وقد لفت ماركس الانظـــار حقيقة الى الاهمية التى يحتلها **اسلوب الانتـــاج** فى المجتمع حيث تتفـــاعل **قوى الانتـــاج** . وهم أفراد المجتمع بخبراتهم ومهاراتهم عن أدوات الانتـــاج — **مع علاقات الانتاج** التى تنشـــأ خلال العملية الانتاجية كنتيجـــة للتفاعل المستمر بين الناس خلال عملية الانتاج الاجتماعى . **أما كايم** فقـــد اهتم بظاهرة **تقسيم العمـــل** وأبرز مستويات التقسيم تبعـــا للنوع والسن ودرجة القـــرابة والمعايير الاجتماعية فى المجتمع . واستحوذت **الكالفنيـــة** Calvinism ونسق القيم والاجراءات السياسية والقانونية والاجتمـــاعية

التى صاحبت أزدهار الرأسمالية (كنظام اقتصادى فى المجتمع الغــربى) والبيروقراطية والترشيد على اهتمام ماكس فيبر .

وتهتم **الانثروبولوجيـا الاقتصادية بالنظم والادوار والقيم والجمـاعات المتضمنة فى عمليات الانتاج والتوزيع والخدمات .**

وبينما بدأ عملية الانتاج وتنتهى باشـــباع حاجات المستهلكين فان **عمليــة التبـــادل** — التى يهتم آلانثروبولوجى بدراســـتها — **تتضمن التنسيق** بين **العمل والمصادر** (٢) وهو الامر الــذى يعبر عنـــه ليـــونارد جوى بقوله ان الانثروبولوجى ينشغل بمشكلات التوازن العـــام للمؤن والحاجات المتعلقـــة بالسلع والخدمات (مع دراسة) الظروف آلتى فى ظلها يتم توزيعها .

Anthropology seems to me to be «Bristling with general equilirium».

«problems including those relating»

«to the supplies and demands of goods»

«and services and the Conditions under»

«which these are distributed».

ويقرر رونالد فرانكنبرج R. Frankenberg أن الاشكاليات موضوع الاهتمام **ليست واحـــدة** فى آلانثروبولوجيا الاقتصادية وعلم الاقتصـــاد غير أنه يضيف بأن كتابات ماركس ثم مارشال وأتباعه تمثل همزة الوصـــل بين الاقتصاد والانثروبولوجيا وانه اذا صدقت عبارة آرثر لويس A. Lewis بأن الاقتصاد يتعلق بظاهرتى الانتـــاج والتوزيع فان الانثروبولوجيا فى واقع الامر قد بدات بدراسة النسق الاقتصادى .

ومن بين اعلام الانثروبولوجيا الاقتصادية فى انجلترا **ايفانزبرتشـــارد** E. Pritchard **وفورد** Forde **وجيلوكمان** Gluckman **وســـتانر** Stanner **ورتشـــارد** Richards فضـــلا عن ريموند فيرث R. Firth أما فى الولايات المتحدة فان **هرسكوفيتز** Herskovits سبق أن أحتـــل مكانته كرائد من رواد هذا الفـــرع ، والمتتبع لآراء فيرث يلحظ أن العلاقات

الاقتصادية هنا تشكل نسقا من وجهة نظره وأن علاقات التبادل أساسية في الحياة الاجتماعية ، وهنا يسهل التمييز بين مجتمعات بدائية أساسها الاقتصادى بسيط وبين مجتمعات قروية وصناعية لها أسسها الاقتصادية الاكثر تعقيدا .

الامر الذى يعبر عنه سالينز Sahlins ومن قبله ايفانز برتشارد وفورتس — بقوله « أن معظم المجتمعات الافريقية تنتمى لنظام اقتصادى يختلف بشدة عنا » كما تعرض كل من لوى Lowie وهرسكوفتز Herskovits وبنزل Bunsel للنقد اللاذع لتصورهم أن ثمة علاقة (راسمالية) بين القوة والثروة في المجتمع البدائى لانهم قد تبنوا المنطق السائد في تحليل الاقتصاد الحديث وحاولوا تطبيقه على المجتمعات البدائية .

ويعتقد فرآنكنبرج أن الكتابات الانثروبولوجية العامة تبرز عادة فكرة المتصل البنائى Morphological continuum في نظريتها للنسق الاقتصادى ، فانتاج السلع يمر بدورة معينة من الاقتصاد البدائى حتى تصل الى الاقتصاد الراسمالى المعاصر .

ففيرث يعتقد أن الاقتصاد بدأ « بدائيا » Primitive وانتهى « صناعيا » ودالتون Dalton يعتقد انه بدأ من خلال الاسواق وانتهى باقتصاد السوق و Sahlins وبخاصة في كتاباته المبكره يبدأ باقتصاد البدنة وينتهى باقتصاد الدولة وبولانى Polany يبدأ بتبادل المنفعة وينتهى بالتبادل الاقتصادى الذى يسمح بالربح .

وتشير سيتى أورتز Sutti ortiz الى أن التحليل الانثروبولوجى لا ينكر أهمية العوامل **غير الاقتصادية وغير المنطقية** في التفكير الاقتصادى ويتفق هذا مع تحليل **موس** Mauss **لعمل مالينوفيسكى عن الكولا** Kula وعمل فيرث عن مجتمع تيكوبيا Tikopia حيث أبرز المعنى الثلاثى للحرية والتضمن الالتزام بالعطاء والالتزام بالتقبل والالتزام برد المقابل فالهدايا لها معانى اجتماعية — اقتصادية لا يمكن اغفالها (٥) .

ومهمة الباحث الانثروبولوجى في المجال الاقتصادى مهمة عسيرة لعدة أسباب منها انه يقوم عادة بدراسة **المجتمعات البسيطة والمتخلفة** التى تختلف في نظامها الاقتصادى عن النظم الحديثة المألوفة والتى تقوم على النظام النقدى والمصرفى والاستثمار والتكنولوجيا الحديثة .

ويذكر ن.سملسر N. Smelser(٦) أن **مالينوفسكى (١٨٨٤ — ١٩٤٢)** **ومارسيل موس** Mauss (١٨٧٢ — ١٩٥٠) قد أبرز بصورة واضحة العلاقة بين النسق الاقتصادى — مع التركيز على نظم الانتاج والتبادل — وبين الانساق القرابية والسياسية ونسق الضبط الاجتماعى فى المجتمع ففى ميلانزيا أبرز الاول العلاقة بين انتاج قوآرب الصيد والنظام الرئاسى والسحر وأن نظرية العرض والطلب المعروفة لا تنجح فى تفسير التبادل التجارى فى المجتمع بينما اجتهد موس فى دراسته عن الهبة Gift فى ابراز قواعد العلاقة بين مانح الهبة ومتلقى هذه الهبة . وألصور الطقوسية للتبادل ألتى يتعذر تفسيرها فى ضوء المفاهيم الاقتصادية حيث يذكر أن هذه الظاهرة لها جوانبها القانونية المتعلقة بالحقوق والالتزامات الجمعية وبث الاخلاقيات وجوانبها السياسية المتعلقة بالتنظيم القبلى العشائرى ، والدينية الخاصة بالجانب الشعائرى والسحرى ، والاقتصادى ألمتعلق بالمنفعة والانفاق ... الخ .

ويذكر سملر (٧) أن هناك علاقة تفاعلية بين النسق الاقتصادى **والانساق الاخرى** فى المجتمع وقد استشهد بالعديد من الدراسات التى عرضت لهذه العلاقة فعن العلاقة التفاعلية بين **الاقتصاد والايديولوجيا** يستشهد بدراسات دافيز K. Davis وبندكس Bendix وفرانس سوتون Sutton وسينوى فى هذا المضمار اما عن علاقة النسق **الاقتصادى بالنسق القرابى** فاستشهد بدراسات هاندلين O. Handlin ومارى هاندلين Mary Handlin عن الجماعات الاثينية Ethnic groups والدراسة المقارنة التى قدمها نيمكوف ومدلتون Nimkoff, Middlton عن ٥٤٩ نمطا ثقافيا لكل منهما نسقه الاقتصادى حيث استنتج انه فى مجتمعات الصيد والالتقاط تسود الاسرة المستقلة (النووية) بينما تسود الاسرة الممتدة فى المجتمعات المستقرة اقتصاديا التى تستند على الملكية والتدرج ألاجتماعى .

أما المجتمع الصناعى فتسود فيه **الاسره « المستقلة »** حيث الحراك الاجتماعى السريع .

وفى النمط الاول والثانى يتبع الدور الاقتصادى للفرد المركز الذى يشغله دأخل نسق القرابة بحسب النوع والسن فضلا عن وضعه الزواجى .

وقد اهتمت الدراسات الخاصة ببناء الاسرة وبمشاركة المرأة

فى قوة العمل كما استحوذت مشاركة كبار السن فى قوة العمل باهتمام بعض الثقاه أمثال فيليب هاوسر Ph. Hauser .

والملفت للنظر أن البعض قد حاول أن يبرز صعود الجماعات الاثنية (السلالية) فى الولايات المتحدة (الصينيون — اليابانيون — الزنوج) اقتصاديا فى السنوات الاخيرة حيث أوصحت دراسات ينجر M. Yinger وغيره أن أسباب هذا الصعود ترجع لازدياد الطلب على الايدى العاملة لابناء تلك الجماعات والى صمود هذه الجماعات لانجاح أفرادها كما أن كل جماعة كانت تجتهد لاستقدام أبناء جلدتها للمشاركة فى جنى ثمار اى نجاح اقتصادى فضلا عن كل جماعة رددت مقولة اضطهاد المجتمع العام لها رغم تمايزها السلالى أو العنصرى عن الجماعات الاجتماعية الاخرى التى تظن أنها تفضلها فى التمتع بفرص الحياة (٨) .

ويذكر بوتومور (٩) أن العلماء اليوم قد أضحوا يرفضون فكرة التطور الخطى للملكية كما فى حالة ماركس وهبهوس وغيرهما ، ويلمحون الى صعوبة تحديد طابع حقوق الملكية ومدآها واذ ذاك فان توزيع الملكية والآثار الاجتماعية لهذا التوزيع اصبحت الشغل الشاغل لهم ، ومن هنا جاءت دراسات كمرجر Mukrgee فى الهند وبيرل Bearl ومنسز فى الولايات المتحدة عن الملكية والثروة وآرثر لويس وقد استحوذت بعض الظواهر الخاصة **بالصراع الصناعى** Industrial conflict (كالاضطرابات) على اهتمام البعض أمثال نويلز Knowles .

وقد أخطأ علماء الاقتصاد حين استعانوا بالاطر الاقتصادية المعاصرة والمفاهيم المستحدثة لتفسير النظم والظواهر الاقتصادية فى المجتمعات البدائية وافضل الامثلة على ذلك ما ذهب اليه كارل بوشر K. Bushor من أن الرجل البدائى لا يعرف القيمة الاقتصادية الحقيقية للسلع ودليل ذلك أن بعض زنوج افريقيا والهنود الحمر فى أمريكا كانوا يبيعون أراضيهم للمستعمرين من البيض بأبخس الاثمان نظير عقود من الخرز الملون أو الاسلحة البسيطة وان هذا يدل على بلادة وجهل وغباء هذا الرجل الذى يجهل القيمة الاقتصادية للاشياء ولا يهتم كثيرا بزيادة ممتلكاته المادية .

كما أن أطرف أنواع الملكية الخاصة التى توجد فى بعض المجتمعات البدائية ما أطلق عليه البعض « **ملكية النساء** » فقد اعتبر علماء الانثروبولوجيا المهر بمثابة ثمن للعروس وبخاصة اذا كان المهر يتضمن

بعض السلع المادية أو الحيوانات ، وقد دعم هذه الفكرة اعتبار المراة احد أقدم أشكال رأس المال نظرا لانجابها للاطفال وقيامها بمهام اعداد الطعام وانتاج السلع المنزلية فى الاسرة ومن غير شك أن المسئول عن ذلك هـو الانفصال عن الشعوب البدائية وصياغة ما يرد عنها من بيانات فى قوالب جامدة من انتاج الفكر الاوروبى الغربى الطابع واذا ما نظرنا الى هـذه الممارسات لاتضح أن تفسيرها يكمن فى **نسق القيم فى المجتمع المحلى** فالارض فى افريقيا وأمريكا حين جاء المستعمرون كانت أكثر من حاجة السكان بينما كان الخرز الملون أداة التزين فى المناسبات الدينية والاجتماعية فالمسالة هنا اعتبارية بحتة .

والزوجة فى الحالة الاخيرة لا تباع مقابل السلع المادية **فالمهر** عنـد النوير على سبيل المثال يتالف من ٤٠ رأسا من الماشية ويقسم بين أهـل العروس ، ويعكس اعترافا بالعلاقة القوية بين أقارب العروس حيث يتوقع منهم المجتمع الاسهام فى دفع المهر حين يتزوج أى ذكر من أعضـاء البدنة (بالنسبة ونوع الماشية نفسها التى حظى بها من قبل) بل ان هذه الماشية نفسها تعد ملك للعائلة التى ينتمى لها هذا الشخص .

والزوجة التى تهجر زوجها يكون أهلها ملزمين برد الماشية للزوج مع نتاجها من الماشية ونظرا لاستحالة هذا الامر من الوجهة الفعلية فان أهلها يضغطون عليها عادة حتى تستمر الحياة الزوجية وتتدعم عرى العلاقات القرابية ومن الملاحظ أن الزوجة التى دفع مهرها تعد بمثابة أضافة للبدنة كلها والاطفال هم بالتالى أطفال البدنة كلها ، ولجميع افراد البدنة الحق فى أن تقوم الزوجة على خدمتهم **فالمهر هنا لا يعنى الملكية الخاصة باى صورة من الصور (١٠)** .

وقد عرض أبو زيد (١١) لصورة متميزة من صور الملكية فى **الواحات** الخارجة والداخلة وواحة سيوة فى مصر هى **ملكيـة المـاء** حيث ان الارض تعتبر ملكا للدولة التى تمنح الاهالى حق الانتفاع بالارض وان كان المـاء والارض فى نظر الناس وجهان أو مظهران لشىء واحـد ، فالملكية الزراعية يحددها وجود الماء وتوافره وهناك زمامات لكل بئر من الابار حيث يمنـع التعدى أو الاستغلال اذ أن ملكية الابار تتم على أساس اقليمى بالنسـبة لكل قرية حيث أن القرية بأراضيها وآبارها تؤلف وحدة اقتصادية واحدة وهناك الابار العامة التى يشترك الجميع فى الانتفاع بها بينما تتوزع بقية الابار التى تقوم الملكية فيها على أساس الوحدات القرابية بمـا يتمشى والتنظيم القرابى فى القرية والمركز الاجتمـاعى لكل بدنة ، وقـد أوضح

أبو زيد أن الملاك قد يتنازلون عن بعض المياه نظير المال أو يتم الانتفاع من البئر نظير المشاركة فى الحفر أو التطهير أو المساهمة المادية ويعرف هؤلاء باسم « المجاعلين » على اساس أن لكل منهم « جعــلا فى المــاء » ويقوم « العهدة » أو الخبير المشرف على ادارة البئر بالحصول على نصف محصول البئر والملاك على النصف الاخر بينما يتمتع « المجاعلين » بنصيبهم من الماء بما يوازى نصف نصيب العهدة يحصل العمال على ربع نصيب العهدة .

والملاحظ فى الواحات أنه نظرا لخطر انطماس الابار بفعل الرمــال أو التوقف لنضوب المياه الجوفية فان الاهــالى يميلون الى توزيع نصيبهم بين عدد كبير من الابار بدلا من تركيزها فى بئر واحدة أو المقايضة عن حقهم فى استغلال بعض الابار لغيرهم مقابل نزولهم عن حق استغلال مقادير مماثلة (من المــاء) فى بئر معينة .

ومن أروع الدراسات الحقلية الكلاسيكية فى الانثروبولوجيا الاقتصادية تأتى دراســة مالينوفســكى Malinowski عن « **الكــولا** » فى مؤلفــه عن « الارجوناتيس » فى المقدمة اذ يتداخل النسق الاقتصادى مع الثقافة وباقى انساق البناء الاجتماعى لدى التروبرياند (فى غينيا الجديدة) حيث توجــد مجموعة من القبائل التى يتبادل سكانها الهــدايا والسلع بين مجموعة من الجزر التى تختلف فى الثقافة والسلالة أحيانا ، ويتم تبادل الهدايا وتتحدد الحقوق والواجبات على أساس المكانة الاجتماعية دون أن يدخل ذلك فى سياق المقايضة أو المساومة التجارية وتبدأ الرحلة ببناء القوارب التى يشرف عليها الخبير والساحر ثم تدشينها فى احتفال كبير وتتضمن الرحلة المتجهة من **الشمال للجنوب** تقديم هدايا عبارة عن عقود طويلة من **الصدف الاحمر** بينما تتجه الهدايا المكونة من **الاســاور** فى الاتجاه المقابل من **الجنوب للشمال** ، وقد تستهلك دورة كل من السلعتين من سنة الى سنتين وتتضــمن مجمــوعة المعايير المنظمة للكولا الكرم والسخاء مع ضرورة الهدايا بمرور الوقت كمــا تبدأ الكولا من **الجنوب** وليس من الشمال ممن لهم الماما كبيرا بقواعد السحر والابحار وبعد أن ينتهى التبادل الشعائرى يدخل الناس فى **عمليات تجارية** عادية يساومون فيها على السلع والحاجات الضرورية ، والملفت للنظر انه توجد كولا داخلية حيث يقدم أصحاب المراكز الاقل الهدايا لاصحاب المراكز الاجتماعية العليا وهناك فضلا عن ذلك الهدايا التى تقــدم فى مقابل أداء خدمات سحرية أو فى الحفلات والمناسبات الدينية أو مقابل التدريب على فنون سحرية ورقصات بعينها ويدخل فى الهدايا عامل الســمعة والصيت

بينما يؤكد هذا قوة **الروابط الاجتماعية** . وعندما تنتهى الكولا يبدأ تبادل السلع الاستهلاكية ذات الفائدة المعيشية .

وقد ابرزت دراسة انثروبولوجية تناولت **التغير البنائى فى المجتمع الكويتى** ان **التمايز العرقى** فى المجتمع يقوم على أسس (جديدة) تختلف عنها قبل اكتشاف النفط فقد اصبحت الجنسية الكويتية تعنى مميزات اقتصادية وسياسية واجتماعية خاصة بالعمل والملكية والعضوية النقابية والمشاركة السياسية والوظائف الاشرافية ويعكس هذا الوحدة والتماسك العرقى ازاء الغالبية **الوافدة للمجتمع (١٢)** .

وتفصح دراسة **الجماعات الاثنية** فى مصر عن نتائج هامة ففى دراسة لسكان النوبة المصرية فى قرية ابو سنبل اتضح أن معظم الذكور قد نزحوا الى خارج القرية النوبية حيث يقصدون المدن الكبرى كالقاهرة والاسكندرية طلبا للعمل وانه رغم وفرة السمك فى النوبة القديمة فانه لم يحظ باهتمام السكان — بل كان يحسب لاسباب تاريخية من المحرمات — بل ان بعض العمال الصعايدة كانوا يتجهون للمنطقة (فى الوقت نفسه) للعمل بالزراعة واستخراج الفحم النباتى كما أن وجود أقارب وبلديات بالمدينة كان من بين العوامل الاجتماعية الجاذبة وبعبارة اخرى فالهجرة الداخلية هنا تعكس دوافع اجتماعية لا دوافع اقتصادية صرفة كما أن الهجرة لم تتخذ اتجاها وحيدا من القرية النوبية للمدن العاصمية بل ان هناك هجرة مصاحبة لها فى الوقت نفسه من قرى الصعيد الى منطقة النوبة (١٤) .

وفى دراسة اخرى لاثر التصنيع والتحضر على البناء الاجتماعى فى المجتمعات المحلية الصغيرة أوضحت الدراسة **السوسيوانثروبولوجية المقارنة** لاحد أطراف العاصمة المصرية وظهرها الزراعية ان نمط التصنيع فى منطقة الاطراف القائم على استيراد المواد الخام (كالاخشاب) وتجميع الاجزاء الواردة من الخارج دون تخليقها (كأجزاء أجهزة التكييف والمبردات) يزيح الستار عن ارتباط احد المحليات الصناعية فى واحدة من مدن العالم الثالث بالسوق الرأسمالية العالمية ولم يؤدى التصنيع هنا الى صبغ القوة العاملة بصبغة انتاجية اذ أن غالبية الفئات العاملة نازحة للمنطقة وتنتمى **لثقافات تقليدية** ونظرا لاميتها ونقص مرانها وتدريبها المهنى وانعدام تخصصها الحرفى فان متوسط انتاجها يعد منخفضا عادة نظرا لتدنى الخصائص الاجتماعية (للقوة العاملة) وسوء أحوالها الصحية وتزايد تبعاتها العائلية (لازدياد حجم الاسرة وانخفاض دخولها المادية) وعدم مشاركة المرأة فى

قوة العمل الصناعيية . وهكذا كادت تختفى الطبقة الوسطى فى هـــذا المجتمع أمام القاعدة العريضة من شرائح الطبقة العاملة الفقيرة ممن يمثلون قطاعا حرفيا عانى من البطالة المقنعة فى الريف فهاجر افراده للمدينة للعمل بالحرف غير الفنيـــة وقاوموا بدرجات مختلفة الذوبان فى الحيـــاة الحضرية (القاهرية) .

أما **الظهير الزراعى** فقد حرم سكانه من أى مؤسسات صـــناعية او خدمية وصاحب التدنى فى الدخل والخصائص التعليمية والصحية ازديادا فى حجم السكان كما تزامل التخلف فى ادوات الانتاج مع التفتيت الكبير للملكيات الزراعية .

وهكذا ازدادت تبعية السكان للسوق فى المدينة (حيث يتم البيـــع والشراء) . وتوجد مؤسسات الخدمات المختلفة (١٤) .

وقد قطعت الانثروبولوجيا الاقتصـــادية شوطا هائلا فى الســـنوات الاخيرة ويعزى هذا من جهة الى كونها حقلا خصبا **للدراسة والمقارنة** فهى كما يذكـــر باريك Borraine Baric حقلا تطبيقيا وهى كما يذكر بيرلنج Burling تدرس الوسائل المادية لوجود الانسان وأنساق الانتاج والتبادل والتوزيع والاســـتهلاك بل ان فيرث يعتقـــــد أن منبع ثراء الدراســـة فى الانثروبولوجيا الاقتصادية هو تمييزها بين اقتصـــاد المجتمعـــات البدائية والقروية والصناعية ويرتكز التمييز هنا عادة على نمط التكنولوجيا المستخدمة وشكل راس المال وأنواع المحاصيل وكيفيـــة تسويقها (فى حالة الانتـــاج الريفى) والحقوق والواجبات الاقتصـــاديةِ وسبل التنميـــة الاقتصـــادية والتحديث وأثر القوى الخارجية بصفة عامة فى الاقتصاد وهو ما يلخصـــه فرانكبرج فى مجموعة من الاسئلة المفتاحية ماذا ينتج ؟ بواسطة اى جماعة ؟ كيف تنتظم الجماعات ؟ ما هدف الانتاج ؟ كيف يتم التعامل مع الصراعات ؟ ما هى البدائل المستخدمة ؟ ... الخ (١٥) .

وغنى عن القول ان الاتجاهات النظرية فى الانثروبولوجيا الاقتصادية قد انتفعت من المناقشات التى آزدهرت فى الستينيات من هذا القرن حـــول الماركسية التى دارت حول مؤلف ماركس التقليدى عن **التكوينات الاقتصادية السابقة على الرأسمالية** الذى ظهر بالانجليزية ســـنة ١٩٦٤ مع مقـــدمة بواسطة هوبسباوم Hobsbawn ومؤلفات انجلز Engels ، وفى مجال الانثروبولوجيا البريطانية ظهر مؤلف ورسلى Worsley لاعادة تقييم كتابات

فورتس (Fortes work on the Tallensi) وفى مجال الانثروبولوجيا الامريكية ظهرت كتابات هويت White Sahlins Steward ، وهـــاريس Harris وسرفيس Service ، وسالينز وستوارد .

وفى فرنسا ظهرت كتابات سيرت كانال J. Suret .. Canale وموريتس جودنير M. Godlier وكـــلود ميلسو C. Meillassoux وفى الســـبعينيات دارت المناقشات حول الماركسية الجديدة New Marxism وعن التكوينـــات الاجتماعية الاقتصادية قبل الرأسمالية وعن انماط الانتاج وكيفية تعايشها مثل كتابات مانويل تيراى E. Terray .

وفى بريطانيـــا تعـــد الاعمال النظـــرية لبول هيرست P. Hirst وبيرى هندس P. Hindes عن أنماط الانتـــاج قبل الراسمالية « انعكاسا » لآراء لويس التوسر L. Althurser . كما أن بيرى اندرسون P. Anderson قد قدم من خلال كتاباته التالية :

— Passages from Antiquity to feudalism.

— Lineages of the Absolutist state.

تحليلا « رائعا » للتحولات فى **التكوينات الاجتماعية** قبل الرأسمالية .

وقد أفادت هذه الرؤى التحليلية فى تشييد العـــلم الانسانى التاريخى الصبغة القادرة على التفسير وتحليل التشكيل الاجتماعى الرأسمالى وغير الرأسمالى فى مجال الانثروبولوجيا الاقتصادية (١٦) .

« المصـــــادر »

١ — R. Firth (Ed) themes in Economic Anthropology. U.S.A. 1970. pp. 1920.

٢ — R.E. Murphy. Cultural and social Anthropology. New Jersey, 1986, p. 130.

٣ — L. Joy. One Economist's view of the relationship between Economics and Anthropology. (In) R. Firth (Ed) op. cit. p. 38.

٤ — R. Frankenberg, Economic Anthropology. (In) R. Firth (Ed) op cit. pp. 47. 87.

٥ — R. Firth. op. cit. pp. 8 : 11.

٦ — التطور التاريخى لعلم الاجتماع الاقتصادى — ترجمة محمد الجوهرى وآخرون فى الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث — القاهرة — ١٩٨٢ ص ٣٠ : ص ٣٣ .

٧ — المصدر نفسه ص ٤١ : ص ٨٤ .

٨ — سلسلة « علم الاجتماع الاقتصـــادى » ترجمة محمد على محمد فى محمد الجوهرى وآخرون — دراسة علم الاجتماع — القاهرة ١٩٧٥ — الفصل السادس .

٩ — تمهيد فى علم الاجتماع ترجمة وتعليق محمـــد الجوهرى وآخرون — القاهرة ١٩٧٨ — الفصل الثامن .

١٠— احمد ابو زيد — البناء الاجتماعى جـ ٢ — الاسكندرية ١٩٦٧ — ص ١١٠ ، ص ١٨٠ ، ص ٣٦٠ ، ص ٣٦٩ .

R. Fronkenberg, Economic Anthropology, (in) R. firth (Ed) Themes in Economic Anthropology, op. cit. p. 59.

١١ـ احمد أبو زيد ـ المصدر السابق ـ فى مواضع متعددة .

١٢ـ محمد عبده محجوب ـ مقدمة فى الاتجاه السوسيوانثروبولوجى ـ الاسكندرية ١٩٧٧ ـ ص ١٢٧ : ص ١٣٢ .

١٣ـ ثروت اسحق ـ هجرة النوبيين الى القاهرة ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ جامعة عين شمس ـ القاهرة ١٩٧٦ . وأنظر للمؤلف أيضا :

١٤ـ أثر التصنيع والتحضر على البناء الاجتماعى فى المجتمعات الصغيرة ـ رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة عين شمس ـ القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٣٤ : ص ٣٤٥ .

١٥ـ أنظر مقالات ريموند فيرث (المقدمة ص ٢٢) ومقال فرانكنبرج ص ٥٧ ، ص ٥٨ .

١٦ـ D. Seddon (Ed) relation of production. U.S.A. 1980. perface.

الدراسة الحقليـــــة

اوضاع وعـــلاقات الباعة فى الاسواق الحضرية

دراسة فى الانثروبولوجيا الاقتصادية (*)

تعد الاسواق من ابرز الظواهر القائمة فى المدن حيث ينتشر الباعة فى هذه الاسواق لتسويق السلع .

وتتخذ هذه الاسواق **الطابع غير الرسمى** وبخاصة فى مدن البلـــدان النامية .

وتدخل هذه الدراسة فى مجال الانثروبولوجيا الاقتصادية حيث سبقتها دراسات اخرى مشابهة فمن امثلتها الدراسة التى قدمها جالدوين وجالدوين H. Galdwin, Ch. Galdwin عن الاسواق وباعة الاسماك فى ساحل الكاب فى غانا واستعانا فيها بالاحصاءات والرسوم البيانية والمعادلات والخرائط الجغرافية .

وتهدف الدراسة الراهنـــة للتعرف على **نمط العـــلاقات الاجتمـــاعية والاقتصادية السائدة فى الاسواق الحضرية وعلى اوضاع الباعة الجـــائلين** الذين تضمهم هذه الاسواق ونوعية السلع المتاحة فى الاسواق المتناثرة فى المدينة وكيفية التعامل فيها بالبيع والشراء وصور الاستغلال التى يتعرض لها البائع والمشترى ، هـــذا فضلا عن الضغوط الاجتماعية والاقتصـــادية المحيطة بهذه الشرائح ووعيهم بكيفية التغلب على هذه الضغوط حيث قسمت

(*) يتقدم الباحث بالشكر للاستاذ الدكتور عادل عازر رئيس وحدة السياسة الاجتماعية والقانون بالمركز القومى للبحوث الاجتماعيةي ويضم هذا التقرير مسودة التقرير النهائى للبحث الذى شارك فيه الباحث بعنـــوان « المهمشون من الفئات الدنيا فى القوى العاملة » .

الدراسة الى قسمين رئيسيين تضمن أولهما دراسة الاسواق اليومية والثانية دراسة الاسواق الاسبوعية فى المدينة المتروبوليتانية فى القاهرة الكبرى . وقد استخدمت فى الدراسة الاولى — التى تناولت الاسواق اليومية — وهى أسواق الخضر والفاكهة والاسماك — الملاحظة بالمشاركة فضلا عن صحيفة (استمارة)الاستبيان (التى تضمنت أكثر من ٢٢٠ سؤال) طبقت على عينة قوامها ٢٦٧ بائع فى أسواق المنيرة الغربية (امبابة) ، والدقى ، والخلفاوى (شبرا) ، والزيتون . واختيرت هذه الاسواق اليومية التى يتركز فيها الباعة بالقاهرة الكبرى (*) ويحتشد فى هذه الاسواق الدائمة عادة عشرات الباعة (بعرباتهم الخشبية) وغالبا ما يتكدس باعة كل سلعة الى جوار بعضهم البعض بصورة تسهل للمشترى أن يحصل على السلعة المطلوبة دون عناء كثير وفى الاحياء « الشعبية » حيث الطبقة الدنيا الفقيرة يضع الباعة سلعهم على عربات اليد أو الارفف الخشبية ويفترش بعضهم الارض ويجلسون القرفصاء بينما يتم عرض السلعة أحيانا على بساط من القماش المتين الصنع او على أكياس (من الخيش دأكن اللون) .

وفى الاسواق اليومية الدائمة فى الاحياء الى تتشكل عادة أو يغلب عليها سكنى الطبقة المتوسطة فان الباعة يقفون أو يستخدمون مقاعد خشبية للجلوس بجوار عربات اليد التى تحمل عليها السلع أو الى جوار الاكشاك الخشبية التى يضعون سلعهم على أرففها بينما تضاء هذه الاكشاك عادة بلمبات النيون الكهربائية لتسهيل عملية البيع فى المساء ، وغنى عن القول أن أثمان السلع يحددها وفرتها من حيث الكم ومعدل الطلب عليها والسعر الجبرى الذى تحدده الدولة لها (اذا وجد) .

والامر الملفت للنظر فى الاسواق الحضرية الاستهلاكية فى مصر سواء اليومية أو التى تقام اسبوعيا ، أنه نادرا ما تخصص لها مساحات من الارض الفضاء بل تقام هذه الاسواق اليومية أو الاسبوعية فى شوارع المدينة أو الميادين الصغيرة التى يشترط فيها ملاصقتها للمساكن والمناطق الاهلة بالسكان من جهة وعدم مرور المركبات العامة — قدر الامكان — فى هذه الشوارع منعا للحوادث وارتباك الباعة والزبائن من جهة أخرى وعادة ما يستغل الباعة الشوارع الجانبية والحوارى نتيجة لاتساع نطاق السوق وان كانت الجهات الرسمية (ويمثلها مجالس المدن والبلديات فى مصر) تتولى تنظيم هذه الاسواق وأماكن وقوف الباعة ونظافة المنطقة .

(*) تمييزا لها عن أسواق الجملة .

والفرق الاساسى بين الاسواق اليومية والاسبوعية ان الاسواق اليومية تعنى بأن تتم عملية البيع والشراء يوميا فى منطقة بعينها فى السلع الغذائية الحياتية التى تحتاجها الاسرة يوميا ولا يسهل الاستغناء عنها بينما تقام الاسواق الاسبوعية بالنسبة للسلع الثانوية (كالاثاث والاجهزة المستعملة والملابس والادوات المستخدمة فى الصناعات الاولية) حيث يقام السوق فى منطقة بعينها اسبوعيا غير أن الباعة الجائلين ينتقلون فى اليوم التالى الى منطقة اخرى وهكذا حتى نهاية الاسبوع فكأن الاشارة باعتبارها اسبوعية تفيد وجود السوق فى منطقة بعينها دون أن ينبسط المعنى بالضرورة على الباعة أنفسهم .

وقد تناولت **الدراسة الحقلية الثانية** الاسواق « الاسبوعية » فى الاحياء الشعبية فى القاهرة الكبرى واختيرت أسواق المطرية وامبابة للقيام بالدراسة الميدانية حيث تقام أسواقهما أيام الخميس والجمعة — على التوالى — من كل اسبوع ومعظم الباعة فى هذه الاسواق ممن تعد التجارة البسيطة عملهم الاساسى فينتقلون بين المناطق والاحياء المختلفة المكونة للعاصمة المتروبوليتانية التى توجد فيها أسواق أسبوعية ، ولكل بائع موقعه — شبه الثابت — دون الحاجة لاى علامات بارزة تحدد ذلك .

والاستثناء من هذا التجوال بين منطقة واخرى ينطبق على الباعة كبار السن والنسوة ممن يتعذر عليهم الانتقال (أسوة بالزملاء) وأولئك الذين يعملون بحرف أخرى (فى القطاع الرسمى) طوال الاسبوع ويمارسون التجارة البسيطة يوم الراحة الاسبوعية فى المنطقة التى يقع عليها الدور فى اقامة السوق فحسب .

ويشكل الباعة فى الاسواق عامة ما يسمى **بالقطاع غير الرسمى** الذى أشار أليه جيرى CH. Gerry وبروملى R. Bromley — فى مجال حديثهم عن حضر العالم الثالث — فبالرغم من اشراف الدولة فى العالم الثالث على عملية البيع وتحديد ثمن معظم السلع التى تباع للمستهلك الا أن يدها تكون قاصرة عادة عن الاشراف على عملية البيع والشراء نفسها وعن تنظيم حصول الباعة فى هذه الاسواق على السلعة من كبار تجار الجملة (الذين يتحكمون فى الكم المعروض فى هذه الاسواق) وضمان عدم استغلالهم بمعرفة هؤلاء (الكبار) كما أنها لا تنشغل فى معظم الاحيان بسياسة اجتماعية محددة تجاه شرائح الباعة البسطاء وأسرهم أو ضمان مستقبلهم المهنى أو ثبات دخولهم ومواردهم المادية ومن هنا فان البعض أمثال كوريك

يصف شرائح الباعة الجائلين وأمثالهم بأنهم فئــات هامشية Marginal تنتمى للقطاع الثالث من القطاعات الاقتصادية (قطاع الخدمات) فى المــدن ويدعمها النمو الرأسمالى — الذى يتمفصل معه أيضا — فى بلدان العــالم الثالث ، ويعتقد Kowarick أن هذه الشرائح الهامشية تنزح من القــرية عادة — نتيجة للتغلغل الرأسمالى فى الريف — طلبا لفرص العمل فى المناطق الحضرية . أو على حد تعبير روب دافيز R. Davies فان العمل الهامشى يعد بالنسبة للغالبية بمثابة نجدة هزيلة من الفقر المدمر :

«Clearly, for most, Informal work promises only slight relief from grinding poverty».

وبعبارة أخرى فالاسواق اليومية فى المدينة تضم أعــدادا كبيرة من الباعة الجائلين الذين يشكلون جزءا غير قليل من القطاع الذى يطلق عليه فى المصطلح الاقتصادى القطاع غير الرسمى ويضم عادة شرائح القــوة العاملة التى تضم الذكور الذين نزحوا من القرى بحثا عن فرص العمــل فى المدينة فاستقطبهم القطاع الثالث (التجــارة والخدمات) ونظرا لاميتهم ونقص تدريبهم (المهنى) وضآلة رأس المــال المســتخدم فى البيع والشراء (أو عدم وجوده أساسا) فهى تعد شرائح هامشية ويطلق عليها جيــرى Gerry وبروملى Bromley « **العمالة المعتمدة** » Dependent فالبــائع الصغير فى هذه الاسواق يعتمد على بائع الجملة الذى يمكنه من شراء السلعة بالاجل (بالثمن الذى يحدده بائع الجملة) ولكل بائع من هؤلاء الباعة الصغار تاجر يشترى منه السلعة فهو عادة لا يتنقل بين أكثر من بائع الا اذا حدثت مشكلة ما وعلى حد تعبيره :

«The street trader who normally sells»
«Products boughts from a specific wholes saler»

وبعبارة أخرى فان مشكلة القطاع الذى يشكل هذه الاسواق تتمثــل فى افتقاده للتنظيم والموارد (أو الاصول المنتجة) .

«Lack of resources and organization».

اولا — الاسواق اليوميـــــة :

اتضح أن معظم الباعة الجائلين يقومون بعرض سلعهم على عربات يد ويلى ذلك العرض على أرفف خشـــبية وان اكثر من ١/٢ مجموع البـــاعة يدفعون مبالغ معلومة للخفراء نظير حراسة المكان او نظير استئجار العربية .

ويجلب نحو ٢/٣ مجموع الباعة السلع الغذائية من الاسواق الكبـــرى بينما تتولى نسبة أقل احضـار السلعة من تجار « كبار » خارج أسوار الاسواق الكبرى » وهناك نسبة ضئيلة تتجه للقرى القريبة لشراء الخضر والفـــاكهة الطازجة .

وقد أوضحت الدراسة الحقلية وجود **وســطاء** بين تجـــار الجمـــلة وتجار التجزئة وبينما يؤدى وجود السماسرة الى رفع قيمـــة السلعة فان البعض يعتقد أن وجودهم ووساطتهم يؤدى الى تخفيض قيمـــة السلعة ، ويحصل الوسيط على عمولته عن الصفقة ككل او على كل كيلو على حـــدة فاذا لم يحصل السمسار على العمولة المقررة فانه قد يلجأ للايذاء البـــدنى للبائع للحصول على بغيته . وواضح أن دور الوسيط هنا تسهيل حصول البائع الجائل على السلعة نظير مقابل مادى .

ويتحمل الباعة الصغار نفقات نقل السلعة من مكان الشراء الى منطقة السوق فضلا عن المصروفات الناجمة عن تعبئـــة الســـلعة فى أقفـــاص أو صناديق وتحميلها على العربات الى سوق التجزئة وتؤدى هذه النفقـــات عادة الى رفع قيمة السلعة ، ويخـــاطر البـــاعة اذ ذاك بالبيع بأعلى من التسعيرة بينما أفاد أقل من ١/٢ الباعة الذين طبقت عليهم استمارة الاستبيان بأنهم لا يستطيعون رفع قيمة السلعة حتى لا يقعوا تحت طائلة القانون وفى الحالتين فان بائع السلعة يتعرض لمشاكل عديدة سواء بوقوعه تحت طائلة القانون نظرا لتجاوزه التسعيرة المحددة أو لاضطراره بأن يتحمل الخسارة المادية الناجمع عن ارتفاع ثمن السلعة .

وتضطر ظروف قلة المعروض من السلعة التاجر البسبط أحيانا الى بيع سلعة اخرى أو الامتناع عن البيع بصفة مؤقتة حتى تنخفض قيمة الســـلعة أو حتى يزيد المعروض منها ، والملفت للنظر أن قرابة ٣/٤ الباعة يضطرون فى المقابل لخفض قيمة السلعة نتيجة لزيادة المعروض أو لقلة الطلب أو رغبة

منهم فى التخلص من المتبقى من السلعة لسداد التاجر ألكبير اذ أن القيمة المادية عادة تدفع بأكملها بعد بيعها وقبل الحصول على الكمية الجديدة ، والمضار هنا هو البائع الصغير الذى يضطر فى الحالة الاخيرة لبيع السلعة بأى ثمن حتى يتمكن من الالتزام بمسئولياته المادية تجاه تاجر ألجملة الذى يقف بمنأى عن أى مخاطرة مادية .

وقد تطرقت الدراسة الحقلية الى الكيفية التى يتمكن البائع فى الاسواق الدائمة من **سداد قيمة السلعة** لتاجر الجملة واتضح أن أكثر من نصف مجموع الباعة فى ألسوق يحصلون على السلعة بالاجل « شكك » أذ أنهم يعيشون من « اليد للفم » ولا يتمكنوا من استخدام الاسلوب الرشيد لتجنيب راس المال المستخدم فى التجارة ، ويلى ذلك السداد الفورى للثمن وهو الاسلوب المتبع فى حالة الحصول على السلعة من أحد التجار الذين لا يبيعون لاجل أو من ألفلاح مباشرة حيث يلجأ التاجر الى شراء المحصول منه أو يشرك معه بعض الباعة فى شراء المحصول (برمته) وتقسيم القيمة الاجمالية بينهم مع دفع القيمة نقدا للفلاح قبل نقل المحصول الى السوق .

و فىحالة **العجز عن السداد** لتاجر الجملة يقوم البائع اما بتغيير السلعة التى يتعامل فيها ويتجر بسلعة أخرى هربا من التاجر (بصورة مؤقتة) أو يلجأ للاستدأنة لسداد التاجر أو كتابة شيك أو ايصال أمانة أو الاستعانة ببعض التجار للوساطة بينهما . ولنا أن نتصور البائع الجائل الذى يحاول أن يحافظ على اتزانه واستقراره فيفقد هذا الاستقرار نتيجة لنقص الامكانيات وألاصول المنتجة من جهة واستغلاله من قبل كبار التجار من جهة أخرى .

وقد يلجأ تاجر الجملة فى المقابل الى عدم ألتعامل مع التاجر الصغير أو الحجز على متعلقاته أو يلجأ لايذائه بدنيا (ضربه) اذا اعتقد بأنه يراوغه فى سداد قيمة السلعة .

وليس بخاف أن البائع الصغير يتعذر عليه تماما أن يهرب من منطقة لاخرى أو من حى الى آخر فهو واقع لا محالة فى يد ألتاجر الكبير .

وقد ذكر نحو نصف مجموع عينة الباعة الذين طبقت عليهم أستمارة الاستبيان أن الدولة (ممثلة فى وزارة التموين) تتولى تحديد قيمة السلعة وان كان من المؤسف أن الدولة لا تتدخل فى تحديد العلاقة بين تاجر الجملة وتاجر التجزئة وهكذا يترك الباعة الجائلين كدمية فى بد كبار ألتجار بينما

يتعرض الباعة الصغار فى السوق كذلك للمحاسبة بمعرفة السلطات اذا حدث أى تجاوز للسعر المقرر .

وقد ذكر نحو ½ مجموع الباعة بأنهم يقومون بتحديد ثمن السلعة على ضوء العرض والطلب أو التسعيرة (ان وجـــدت) ، والامر الملفت للنظـــر حقيقة .

وذكر البعض بأن درجة جودة السلعة هو السر فى اختلاف الثمن من بائع لاخر وقد اتضح كذلك أن التجار يتفقون أحيانا على الثمن المحدد منعا للمضاربات أما الامر الغريب حقا فهو ما ذكره ٩ر٧٪ من مجموع الباعة من أن تاجر الجملة هو الذى يحدد ثمن البيع للتاجر وثمن البيع للزبائن ويحاسب التاجر الصغير على هذا الاساس كما فى حالة الاسماك على سبيل المثـــال فتاجر الجملة هنا لا يكتفى باستغلال هؤلاء الباعة البسطاء مستغلا أفتقارهم لراس المـــال وعدم تماسكهم فى وجه **استغلال صفوة كبار التجار** فحسب بل يملى عليهم ارادته فى تحديد ثمن السلعة بينما ينفض يده فى حالة حدوث أى مشكلات للبائع الجائل مع الزبائن أو مع أجهزة السلطة الرسمية .

والملفت للنظر فى هذه الاسواق التى تشمل السلع الحياتية بأن ثمن السلعة غير ثابت بل يتغير بين الحين والاخر وهذا التذبذب يرجع اساسا فى نظر البائع الصغير الى تذبذب العرض والطلب او لتحكم كبار التجار أو لتدخل الدولة .

وقد أفصحت استمارة الاستبيان التى طبقت على الباعة فى الاسواق (مجال الدراسة الحقلية) أن البيع **يتم يوميا** بالنسبة لـــ ٢ر٦٨٪ من الباعة أما بالنسبة لـــ ٧ر٣١٪ من الباعة الصغار فان البيع يتوقف أحيانا ، ويحدث هذا التوقف نتيجة للعجز عن الحصول على السلعة أو للمرض حيث لا يجد البائع ـــ وبخاصةاذا لم تكن اسرته برفقته فى المدينة ـــ سندا يعينه أو للمشاغل الاخرى أو رغبة فى الحصول على راحة أسبوعية وبخاصة النسبة لكبـــار السن ، وقد أفصحت المشاهدات الميدانية بأن معظم الباعة يعملون ما يزيد عن ٨ ساعات يوميا وقد ذكر ٣١٪ من مجموع الباعة الصغار الذين طبقت عليهم استمارة الاستبيان بأن ساعات عملهم غير محددة وقد تصل الى ١٥ ساعة يوميا اى انهم يقضون جل يومهم فى البيع والشراء ودون أن تتوفـــر لهم فرصة لرعاية أسرهم ومتابعة أولادهم والترفيه عن انفسهم والاحساس بآدميتهم .

وقد ذكر أكثر من ثلثى مجموع الباعة الذين تم استبارهم بأنه لا توجد هناك مواسم لتسويق السلعة مقابل الثلث قد ذكروا بأن هناك مواسم بعينها لتسويق السلعة اذ أن بعض الفوآكه والخضروات تتصل بفصول السنة نفسها وفى هذه الحالة يلجأ البائع للاتجار فى سلعة أخرى ابان عدم وجود السلة .

وقد ذكر معظم الباعة الصغار موضوع الدراسة المسحية بأن هناك فترات يزيد فيها الطلب على السلعة وافصح نحو ثلثى مجموعهم بأن هذه الفترات تتمثل فى المناسبات المختلفة سوآء كانت دينية أو اجتماعية بينما ذكر ١ر٢٣٪ بأن هذه الفترات هى التى يمتنع — أو يصرح — فيها ببيع اللحوم ومن المعلوم أنه فى هذه الفترات يزيد الطلب على الخضر والفاكهة والاسماك والدواجن ومنتجاتها .

وقد تطرقت الدراسة الحقلية الى الطريقة التى سلكها البائع الصغير للاستقرار فى السوق واتضح أنه فى الوقت الذى لم يعتمد فيه أكثر من نصف الباعة على غيرهم اعتمد باقى التجار على بلديات أو زملاء أو على أمين الحزب الحاكم فى منطقة السوق وهو ما يعكس وعيا بدور الصفوة السياسية لضمان أستقرار البائع الصغير الذى نزح من قريته للمدينة طلبا فى الحصول على لقمة العيش له ولاسرته والطريف أن ٧ر٦٪ من مجموع الباعة الصغار قد ذكروا بأنهم لجأوا الى ((**رئيس السوق**)) ليصرح لهم بالاستقرار فى السوق ويقصد بذلك وجود شخصية محورية يحترمها الباعة وتستند على مقومات العصبية وتنتفع بدورها من هذا التجمع فى الحصول على أصوآت الباعة وتتحقق من خلالهم مكاسب سياسية محدودة .

ويحرص الكثير من الباعة على عدم أثارة مشاكل بينهم وبين تجار الجملة غير ان هذه المشاكل تحدث بسبب مغالاة هؤلاء التجار فى رفع أسعار السلع أو الى لجوئهم للغش مما يصيب البائع بأضرار مادية كبيرة واذ ذاك يتدخل الزملاء والبلديات والاقارب أو كبار التجار وقد تتدخل الجهات الرسمية لفض هذه المشكلات ، وان كان على البائع أن يتحمل تبعة هذه الشكوى فقد يتعرض للاعتداء من قبل تاجر الجملة وحاشيته .

ونادرا ما تحدث **مشكلات بين التاجر الصغير وغيره من باعة السلع الاخرى** وان كانت المشكلات تحدث عادة بين هؤلاء الباعة وبين الباعة الذين يفدون من مناطق ريفية لبيع الفاكهة ومنتجات الالبان فيفترشون الارض أمام

هؤلاء وتنشب الخلافات بينهم نتيجة لذلك ويتدخل البلدات أو التجار الاخرين لحل الخلافات مع الزملاء منها لاحتدام الشجار ، وقد ذكر ٤٠٫٣٪ من مجموع أفراد عينة الباعة الجائلين فى الاسواق الدائمة بأنهم يقومون بالبيع بالاجـل ومن الملاحظ أن هؤلاء الباعة يتعاملون فى الاحياء الشعبية كالمنيرة الغربيـة بامبابة والخلفاوى بشبرا ، ومع الشرائح الفقيرة والمتوسطة الحال ممن ينوء كاهلهم بالتبعات والالتزامات العائلية والحياتية مع انخفاض دخولهم أما من يتعاملون مع الزبائن نقدا فيبررون ذلك بحاجتهم لسداد تجار الجملة بصورة دورية .

والطريف أن من ذكـروا بأنهم يقومون **بالبيع « بالشكك »** قـد اتفق معظمهم بأن معرفتهم الكاملة بالزبائن يشجعهم على ذلك ويتمشى هذا مع احتلال الباعة لاماكن شبه ثابتة فى الاسواق بما يتيح لهم عادة التعرف على سكان الحى الذى يتجرون فيه بل أن بعض الباعة قد فسروا سبب لجوئهم للبيع بالاجل بأن الزبون لا يطلب بيعه بالشكك الا آذا كان مفلسا وانهم يرون ضرورة تلبية طلب الزبائن لهذا السبب ، وغير خاف أن مصلحة البائع الصغير تقتضى سرعة التخلص من الفاكهة والخضر والاسماك وغيرها حتى يتجنب التاجر تلف السلعة من جهة ولسداد تاجر الجملة فى الموعد المحدد من جهة اخرى ، فالمصلحة هنا مصلحة مشتركة ينتفع منها الباعة الصغار والشرائح العمالية الفقيرة التى يقف عجزها المادى حائلا عن دفع قيمة احتياجاتها يوميا بعد يوم فيتم السداد فى فترات أو مواعيد بعينها .

وقـد ذكر معظم الباعة الصـغار أنه لا تثور بينهم وبين الزبائن أى خلافات وهو ما أبرزته الدراسة الحقلية . فالبائع هو الخاسر عادة اذآ دخل فى فلك هذه المشاكل سواء من الناحية المادية أو من غيرها من النواحى .

فاذا حدثت خلافات بينه وبين العملاء كانت نتيجة لاتهام الزبائن له بالسرقة أو محاولة اعادة السلعة المباعة له بعد وقت قصير بحجة رداءة السلعة ...

وقد أتضح انه تحررت مخالفات لمـا يزيد عن ثلث الباعة بسبب البيع باعلى من التسعيرة وشغل الطريق .

وفى حالة حدوث خلافات مع زملاء أو مع زبائن يلجأ البائع الجـائل

لغيره من الباعة وللبلديات وقد يصل الامر الى حد النجوء للشرطة اذا تحرش أحدهما بالاخر وتعذر التوفيق بينهما .

ومن الحقائق الهامة المتصلة بالحراك المهنى بين الابناء والاباء اتضح أنه بالنسبة لاكثر من نصف آلباعة كان الوالـــد يعمل بالزراعة وبالنســبة لنحو ثلث الباعة كان الوالد يعمل بالتجارة البسيطة ، ويعنى هذا بعبارة أخرى أن الحراك آلمهنى بين الاباء والابناء يكاد يكون محدودا أو معدوما ، فالزراعة والتجارة البسيطة لا تكاد تختلف عن التجارة السائدة فى السوق.

وقـــد اتضح من الدراسة الميــدانية الى استخدمت فيهـــا استمارة الاستبيان أن نحو ٢/٣ مجموع أفراد العينة قـ ـ جاءوا من محافظات أخـــرى والغالبية الساحقة منهم قد ولدوا بمنـــاطق ريفية فى هــــذه المحافظـــات الريفحضرية ، ومن المرجح أن هؤلاء المهاجرين قد نزحوا من آلقرى لتحسين ظروفهم الحياتية ويؤدى هذا الحراك آلجغرافى الى تغيير أسلوب آلحيـــاة ونمط العلاقات والاتجاهات والقيم بالنسبة لهؤلاء المهاجرين وان كان تأثيرها يصبح أعمق شأنا بالنسبة للجيل الثانى والثالث على وجه الخصوص وغالبية الباعة المهاجرون قد جاءوا الى آلعاصمة للعمل فيها منذ أكثر من ١٠ سنوات وأقل من ٣٠ سنة . غير أنهم ظلوا حتى آلان شرائح فقيرة تعمل بالتجـــارة البسيطة وتستغل استغلالا منظما من قبل قوى أكبر منهم ، والامر الملفت للنظر أن معظم المهاجرين كان بوسعهم العمل فى المناطق التى نزحوا منهـــا غير أنهم فضلوا الهجرة للمدينة طمعا فى الحصول على آلعمل والاجر الثابت بدلا من العمل الزراعى آلعرضى الطابع غير أنهم اضـــطروا لاميتهم ونقص تدريبهم المهنى — للعمل بالتجارة البسيطة فأصبحوا **اداة طيعة فى يد كبـــار تجار الجملة الذين تزداد ثروتهم على حساب هـــؤلاء الباعة الصغار ممن يتمكنون بالكاد من تدبير ظروفهم المعيشية** والقيام بأود أسرهم فيعملون لتحقيق هذا الغرض على تشغيل أولادهم الاحـــداث معهم فى آلسوق فيتعذر على هؤلاء الابناء فيما بعد أن يستكملوا تعليمهم أو يعملوا بمهن أخرى فنية أو نصف فنية ، وقد أفصحت الدراسة الحقلية أن معظم البـــاعة الصـــغار **يتكدسون مع أسرهم فى مساكن ضيقة مشتركة** أو حجرات أو اكشاك خشبية حيث يزداد معدل الازدحام فى المسكن غير الصحى فتسهل الاصابة بالامراض آلمختلفة وقد يترك التاجر الصغير أسرته فى الموطن الاصلى ويعيش بمفرده فى حجرة مشتركة أو ينام بجوار بضاعته فى السوق نتيجة لفشله فى العثور على السكن المناسب فى المدينة بينما يرسل لاسرته جزءا معلوما من دخـــله

الامر الذى يؤدى بدوره الى مشاكل عديدة شخصية واسرية فى مناطق الجذب والطرد معا . وهكذا يزداد الفقير فقرا نظرا لسوء أحواله المعيشية من جهة وسوء المرافق وظروفه السكنية غير الملائمة من جهة أخرى .

ومما يميز الباعة فى هذه الاسواق اليومية أن اكثر من نصف هؤلاء الباعة يعيشون فى الحى نفسه الذى يوجد فيه السوق ، ويشترك عدد ليس بقليل من الباعة فى **جمعيات اختيارية** تضم الزملاء والبلدات وتوفر لهم المساعدات المادية فى حالة تعرضهم للكوارث وتحاول أن تعوضهم عن الروابط والعلاقات الوثيقة (التى افتقدوها بعد النزوح للمدينة) وهى نتيجة تتفق مع دراسات ليتل وغيره من علماء الانثروبولوجيا الذين أبرزوا أهمية الدور الذى تلعبه هذه الجمعيات فى مناطق الجذب فهى جمعيات تزيد تماسك هؤلاء الباعة من ناحية وتربطهم بالموطن الاصلى من ناحية أخرى كما تحميهم من الصدمة الثقافية فى المدينة الكبيرة من ناحية ثالثة .

والامر الملفت للنظر كذلك أن بعض من رفضوا الاشتراك فى هذه الجمعيات افادوا بأنه ليس لديهم وقت لذلك وهو ما يوضح ضغط الحياة المعيشية والجرى وراء لقمة العيش نتيجة لدورة الحياة السريعة فى المدينة.

وغنى عن القول أن هذه الشرائح **تحرم تماما من ملكية ادوات الانتاج ومن رعاية الدولة لها وهو ما يعنى انها انما تترك كدمية فى يد الشرائح البرجوازية فتعانى من الاغتراب نتيجة لذلك ويوجه جهدها الاكبر لاشباع احتياجاتها الاساسية التى لا تشبع كما ينبغى .**

وما نريد أن نؤكده فى النهاية ان حشود التجار الصغار فى أسواق المدينة تؤدى مجموعة من الادوار المزدوجة :

فهى **عمالة وافدة من القرية** للعمل فى المدينة حيث تستبدل الزراعة بالتجارة البسيطة اى انها تخرج من **القطاع الاول** (كما يسميه الاقتصاديين) وهو قطاع الانتاج الزراعى الى **القطاع الثالث** وهو قطاع التجارة والخدمات.

وهى **قوة عاملة عانت من البطالة المقنعة فى الريف** فاشتغلت بالاعمال العرضية المتمثلة فى التجارة البسيطة التى تفتقد لرأس المال وتقنع بهامش

الربح البسيط ، اما الربح الحقيقى فيذهب لصالح كبار تجار الجملة ممن يزداد تراكم راس المـــال بالنسبة لهم دون ان يتعرضوا بدورهم لمخـــاطر وتقلبات السوق .

وهى شرائح عمالية او بروليتاريا هامشية تعانى من تدنى خصائصها الاجتماعية (*) وتضطر فى المقابل لتشغيل الابناء الصغار لسداد قيمـــة السلعة بينمـــا لا تملك فكاكا من قبضة الدولة التى تدافع عن جمهـــور المستهلكين وهى تعانى أيضا من تدخل **السماسرة والوسطاء** الذين أسهموا فى زيادة قيمة السلعة ويعتبرون منافذ لعملية الشراء .

فاذا كانت هذه الشرائح العمالية قاصرة عن الوفاء بالتزامات العمل الصناعى أو التجارة الرشيدة فى المدينة فان هجرتهم للعاصمة تلعب دورا هاما فى تخفيف حدة البطالة فى القرى التى نزحوا منها واذا كانوآ يقاومون بدورهم الذوبان فى مجتمع المدينـــة (**) فانهم ينتخبون بعض الاســـاليب الثقافية الحضرية التى تسهل احتكاكهم بمجتمع المدينة ولا تتعارض وثقافتهم التقليدية .

والهجرة هنـــا بالنسبة للباعة فى السوق تأتى كاستجابة للفـــروق الموجودة بين الريف والحضر فى مصر ودول العالم الثالث حيث ينشد البائع الصغير فى السوق العمل فى مجال التجارة البسيطة دون أن يفقد الامل فى الانتقال للقطاع الحديث للعمل فى مجال الخدمات الهامشية اذا سنحت له الفرصة فى المستقبل .

ويرجـــع كوستللو F. Costello وبيريز سبب تكدس الباعة الجائلين فى الاسواق وأرصفة مدن العالم الثالث الى تدنى مستويات دخول هذه الشرائح وقيام الدول بتنظيم تواجدهم فى المدن فضلا عن رغبة هؤلاء الباعة فى التركيز فى مناطق بعينها فى المدينة . وغير خاف أن هـــذه المبررات لا تفسر تكدسها فى هذه المناطق اذ أن السبب الحقيقى يكمن فى نقص الاصول المنتجة وضآلة رأس المـــال فهم يلجأون عادة للاحياء الشعبية

(*) يقصد بها الخصائص التعليمية والمهنية ومكانتها الاجتماعية الخ .
(**) اذ يحتفظ معظمهم بلباسه التقليدى ولهجته الاصلية .

والمناطق (المتخلفة) حيث الاعداد الهائلة من البشر الذين يتمكنون من تصريف سلعهم بواسطتهم كما أن هذه السلع بدورها تكون عادة متوسطة الجودة رخيصة الثمن مما يسهل بيعها فى هذه المناطق .

ثانيا — الاسواق الاسبوعية :

تمت هذه الدراسة الحقلية فى اسواق المطرية وامبابة حيث تقام هذه الاسواق اسبوعيا فى هذه الاحياء وليس بخاف أن هذه المناطق كانت بدورها مناطق زراعية قبل أن تضم لكردون المدينة . وقد اتضح أن « **الخردة** » (*) تعد اكثر السلع تداولا فى هذه الاسواق كما أن اعمار الباعة عادة تزيد عن ٤٠ سنة (٧٥٪ من مجموع الباعة المدروسين فى أسواق المطرية وامبابة) وليس بخاف أن الاعمار هنا أعلى قليلا من اقرانهم فى الاسواق اليومية فالحنكة والمهارة لازمة وأساسية للبائع فى هذه الاسواق وغنى عن القول أن **الامية** تنتشر بينهم بصورة ملحوظة ، والغالبية الساحقة من الباعة متزوجين ولهم أطفال غير أن نسبة من يبلغ أولادهم خمس سنوات فأكثر تصل الى ¾ مجموع الباعة فى هذه الاسواق الشعبية ويعنى هذا أن أسرة البائع كبيرة الحجم حيث يصبح الاولاد مصدرا أساسيا للدخل الضئيل . وبعبارة أخرى فالبائع هنا ينتمى للمرحلة العمرية التى تسمى مرحلة ما قبل الشيخوخة « ٤٥ فأكثر » ، وهو أمى صاحب أسرة كبيرة الحجم ، ويشكل هذا تدنيا فى الخصائص الاجتماعية والديموجرافية ، وينتمى معظم باعة هذه الاسواق الاسبوعية لمدينتى القاهرة والجيزة وليس هذا بالامر المستغرب فمن الطبيعى أن يسكن باعة الاسواق الاسبوعية فى اقليم القاهرة الكبرى حيث تنتشر فى مجتمعاتها المحلية هذه الاسواق ، ويتفق أفراد هذه الشريحة مع شريحة الباعة فى الاسواق (اليومية) فى انتسابهم لاباء كانوا يعملون بالزراعة والاعمال الحرفية البسيطة ويعنى هذا أن الاباء كانوا يعملون فى مجال المهن البسيطة وأن الحراك المهنى بين الاباء والابناء ليس كبيرا وهكذا يعاد انتاج العامل الامى المتزوج صاحب الاسرة الكبيرة الحجم الذى يكاد يكفى بالكاد قوت أولاده بينما يعيد أولاده هذه الدورة عادة مرة أخرى ، والملفت للنظر بالنسبة للاسواق الاسبوعية أن البضاعة

(*) تشمل الخردة ادوات كهربائية مستعملة وأخشاب وقطع أثاث وحدايد ونحاس ... الخ .

أو السلعة تتجمع لدى الباعة من المرور على المنــازل والمؤسسات والمتعهدين والاسواق الكبرى ، وهى عملية تستلزم جهــدا وقدرة على المســاومة فى الشراء والبيع . والطريف أن معظم الباعة لا يستسيغون فكرة عمل **أولادهم** فى مجال التجارة (البسيطة) كباعة فى الاسواق الاسبوعية ويعنى ذلك أنهم يرغبون عادة فى أن يعمل الابناء بأعمال أكثر استقرارا عوضا عن العمــل بهذه الاعمال العارضة غير المستقرة غير أن استعانتهم بأولادهم فى سن صغيرة وحرمانهم من التعليم يجعل تحقيق هذه الرغبة أمرا عسيرا ، ولا تكاد نسبة الباعة الذين ذكروا أن ثمة مشاكل بينهم وبين الزبائن تتعــدى ربع مجموعهم وان كانت معظم هذه المشاكل تحدث بسبب الاختلاف فى تقدير الثمن فالبيع والشراء يتم عادة هنا دون وجود لافتات بالاسعار المقررة بل من خلال عملية المساومة ، ويدفع معظم الباعة قيمة مادية نظير الدخــول فى السوق وهذه القيمة تحصلها فى النادر جهات رسمية كالمجلس المحــلى ولكنها تصل عادة الى جيوب السماسرة و « الفتوات » فى الاحياء الشعبية ممن يفرضون عليهم أتاوات .

وفى حالة حدوث مشكلات فى السوق تترك الامور عرضة لتـــدخل « أى حــد » للتغلب على المشكلات بينما يتدخل البوليس بصورة تتعدى ربع مجموع المشاكل بقليل . والواقع أن المشاحنات قليلة الحدوث فالفقراء هم رواد هذه الاسواق وهم يعلمون أن السلعة بدورها مستعملة من قبل وبها عيوب .

ومهما يك من تمايز للبائع فى هذه الاسواق عن البــائع الجــائل فى الاسواق اليومية للخضر والفاكهة والسلع الغذائية (حيث لا توجد رقــابة على الاسعار ولا ضغوط من تاجر الجملة ولا سماسرة أو وسطاء) فــان الزبون يكاد يختلف عن قرينه فى الاسواق اليومية فهو لا يذهب لشراء ما يسد رمقه بل يتردد عادة لشراء بعض قطع الاثاث القديمة أو الملابس المستعملة أو الخردة من الادوات الكهربائية وغيرها من السلع (الكمالية) التى يتولى أصلاحها حتى لا يضطر لشراء الجديد ذو السعر المرتفع واذ ذاك فان كم الضغوط الرسمية هنا على البائع الجائل أقل بكثير فى هذه الحالة منهــا ى حالة اتجاره بالسلع الغذائية كما أن الكثير من الزبائن فى هذه الاسواق من الهواة الذين يبحثون عن التحف أو قطع الغيار أو الصور والاجـــزاء التى تعذر عليهم شرائها من متاجر المدينة أما عن شكل السوق نفسه فان الباعة فى الاسواق الاسبوعية يفترشون عادة الارض حيث توضع السلعة

على اسمال بالية ويضطر الزبائن للجلوس القرفصاء لاتمام عملية الاختيار والشراء ، كما تتم عملية الشراء عادة فى زمن أطول نظرا لرغبة الزبون فى فحص السلعة ومعرفة عيوبها وفحص تناسب مقاسها او حجمها مع المقاس او الحجم اللازم له كما أن الاثاث والاجهزة الكهربائية وغيرها فى حاجة الى المزيد من الفحص قبل بداية عملية المساومة ، حتى لا يكتشف الزبون عدم صلاحيتها بعد أن يشتريها . وعادة ما يستقر الكثير من هؤلاء الباعة بسلعهم الكبيرة منذ مساء اليوم السابق للسوق حتى يتمكنوا من ضمان الموقع أو مكان عرض سلعهم ووضعها فى الحيز المتاح بصورة تسهل عملية البيع والشراء ، وينفض السوق عصر اليوم التالى ومن ثمة ينتقل معظمهم الى منطقة ثانية وثالثة حسب تواجد السوق الاسبوعى فى هذه المناطق ، وهكذا يلهث البائع بصورة مستمرة وراء لقمة العيش دون أن تتوفر له ابسط الضمانات التى تكفل له حياة عائلية او اقتصادية مستقرة .

وغنى عن القول أن هذه الشرائح بدورها تحرم تماما من ملكية أدوات الانتاج ومن رعاية الدولة لها وهو ما يعنى أنها تترك كدمية فى يد الشرائح البورجوازية .

فالبائع الجائل يعمل لمجرد أشباع احتياجاته الاساسية فحسب وهو يحرم عادة من تدخل الدولة لحمايته مما يؤدى لعدم استقراره . ولا تعامل هذه الشرائح الهامشية معاملة الشرائح المهنية أو العمالية الاخرى التى لها حقوقها النوعية فى الرعاية الصحية أو الاسكان او المواصلات بل أنها تترك فى هذه الحالة وحيدة فتلهث خلف الحد الادنى من الرعاية الصحية المجانية غير الكافية وتتعرض نتيجة لضآلة دخولها للعديد من المشكلات الشخصية والاسرية ، وقد أتيح للباحث ان يقضى فترات متقطعة فى ملاحظة الاسواق اليومية والاسبوعية فى بعض البلدان كتركيا واليونان واتضح أن الباعة الجائلين فى أسواق أسطانبول واثينا ليسوا بأسعد حالا من نظرائهم فى مصر .

ولعل هذا يؤكد ما ذكره كوريك بقوله :

«That of self — employed workers intertiary sector (street vendors) selfemployed workers in maintenance and servising .. which in addition to unemployment and temporary and seasonal

work are not only constantly stimulated by capitalist development but olso structurally articulated with it».

وما نريد أن نؤكده فى النهاية هو أن شبكة العلاقات الاجتماعية فى الاسواق الحضرية اليومية والاسبوعية بين البائع الجائل والمستهلك هى علاقة تقوم على دعائم مستقرة وشبه ثابتة واذا كان آلبائع يتعرض من سكان الاحياء الشعبية لضغوط ماديه وأجتماعية لا حصر لها فان الباحث يشعر فى نهاية الامر أن البائع فى هذه الاحياء التى قمنا بدراستها يتعرض لضغوط اجتماعية واقتصادية من قوى فى سوق الجملة ، ومن الجهات الحكومية التى تركز على رقابة الاسواق آلاستهلاكية وعلى العلاقة بين البائع والمشترى دون أن تمتد هذه آلرقابة لتحكم العلاقة بين تجار الجملة أنفسهم وتجار التجزئة الذين تؤدى ظروفهم وأوضاعهم الاقتصادية السيئة للوقوع فى براثن هذه الشرائح البورجوازية التى لا تكتفى بظلم هذه آلشرائح بل وبالتلاعب كذلك بالاسعار مما يصيب الناس بهزات اقتصادية عنيفة وتعرض الاقتصاد القومى برمته لمخاطر عديدة .

الفصـــل الثـــــامن

« الانثروبولوجيـــا الســـــياسية »

يذكر سبرادلى وماكردى Spradley, Mccurdy (١) أن السياسة تعنى **العمليات الثقافية** المستخدمة **لصنع** القرارات التى تؤثر فى السياسة العـــامة .

وليس معنى هذا أن المجتمعات المتقدمة والامم الحديثة تحتكر لنفسها هذا النسق السياسى دون غيرها من المجتمعات البسيطة فلدى معظم هذه المجتمعات البسيطة والقبائل انساقها السياسية التى تنهض على قواعد واعراف وتقاليد غير رسمية وغير مكتوبة .

ولكل مجتمع وسائل **لانهاء الخلافات** بين الافراد كجزء من نظـــــامه السياسى ، وقد تتضمن هذه الوسائل نظما رسمية كالمحكمة . وفى أحيـــان أخرى يستخدم المجتمع وسائل غير مادية لانهاء هذه الخلافات وهى التى يعبر عنها كوش K.F. Koch بقوله :

«Every Society has as part of its political:System, Means for settling disputes among membres».

غير أننا نرجح أن المجتمعات البسيطة والقبائل التى تعيش فى عزلة نسبية تستمد السلطة السياسية فيها قوتها من غيرها من الانساق ولا سيما من الانساق القرابية ومن بعض المحددات الموروثة كالمكانة الاقتصـــادية وقوة وسطوة القادة والزعماء وغيرها من المحددات الذاتية ، ويذكرنا هذا بما سبق أن ذكره سير هنرى مين Maine حين ميز بين شبكة العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات البسيطة القـــائمة على اساس المكـــانة الموروثة والقرابة مقابل العلاقات الاجتماعية المعقدة القائمة على أساس المكــــانة

المكتسبة فى المجتمعات المعقدة وما قدمه فيبر M. Weber عن المجتمعات التقليدية وغير التقليدية (كنماذج مثالية) (٢) .

وقد زخر تراث الرواد أمثال **ماركس وانجلز وميلز وميرتون** بالعديد من وجهات النظر والمداخل المختلفة التى يمكن أن تساعدنا فى تحليلنا للنسق السياسى وفهم دينامياته المختلفة فماركس Marx قد ابرز الوعى بالصراع الطبقى Class Struggle وارجع الاختلاف بين الجماعات الاقتصادية **لوعيها الطبقى** الذى يجسد ويزيد من حدة هذا الصراع حيث تشكل **علاقات الانتاج** (البناء الاقتصادى) البناء السياسى العلوى للمجتمع (٣) فنمط الانتاج يشكل الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية برمتها فى التراث الماركسى .

بينما يؤكد انجلز Engels أن الدولة فى كل حقبة تبرز سيادة طبقة بعينها على ما عداها فالدولة فى الحقيقة هى دولة **الطبقة الحاكمة (٤)** .

وقد اهتم ميلز Mills بالقوة والسياسة والناس والمعرفة واعتبرها جوهر الدراسة فى الانسانيات وغير خاف أن هذه المعطيات هى جوهر النسق السياسى ذاته ومفتاح دراسته أيضا (٥) .

وقد تعرض ميرتون Merton للنسق السياسى — فى معرض حديثه عن البناء والوظيفة الاجتماعية حيث تساعد **الوظيفة الاجتماعية** لأى تنظيم فى تحديد البناء الاجتماعى — وهو يؤكد أن الجهاز السياسى يؤدى وظيفة بعينها فى المجتمع فاذا حدثت عيوب بالنسبة للجهاز الرسمى للدولة ظهر **بناء سياسى** (بديل) لاشباع الحاجات المرجوة بدرجة اكثر كفاءة ولاشباع حاجات أخرى غير مشبعة لجماعات وشرائح مختلفة من السكان (٦) .

وتشير السياسة عادة الى **القوة** حيث تستحوذ القوة السياسية عادة لتحقيق أهداف اقتصادية فالثروة تعنى القدرة على الضبط والهيمنة السياسية اذ أن **الاقتصاد والسياسة صنوان** (٧) .

ويرى بعض الثقاه ان النسق السياسى يعكس فكرة **المحـافظة على النظـام فى المجتمع** فى اقليم معين بالذات من خلال استخدام القوة او التهديد باستخدامها .

وان المتتبع لتعريف رواد هذا العلم للنسق السياسى واسلوب معالجته يلحظ خلافات بينهم فى وجهات النظر فهوبل Hoeble يرى سيادة التنظيم السياسى فى كل المجتمعات الانسانية بينما يقصر ردفيلد Redfield وجوده على المجتمعات المعقـدة فى الوقت الذى يعتقـد فيه ميردوك Mrudock أن عامل **العـدد** أو حجم السكان فى المجتمع له دخل كبـير فى تكوين الدولة (٨) .

وغنى عن القول أن النسق السياسى فى المجتمعات البسيطة والمعقدة على حد سواء — لا يمكن دراسته الا فى ضوء علاقته بباقى الانساق ، ويذكر رونيلد أن كل من فورتس F.M. Fortes وايفانز برتشارد E. Pritchard قد قاما بدراسة **الانساق السياسية والقانونية والقرابية** فى بعض المجتمعات الافريقية ويتفق هؤلاء الرواد فى أن وحـدة الجماعة من الداخل وتماسكها من الخارج هو السـند الذى يستمد منه الافراد أوضـاعهم ومراكزهم الاجتماعية فالبناء الاجتماعى فى نظر فورتس على سبيل المثال يعكس نسق المراكز والادوار السياسية والقانونية (التى ترتبط بالمكانات التقليـدية فى المجتمعات البسيطة ويعزز بواسطة الالقاب والجزاءات الشعائرية .

ويرى فورتس ان هناك نظاما يتمثل فى البدنة التى تمثل سدى النسيج الاجتماعى أو لحمته — فضلا عن العلاقات التى تقوم بين ارباب السـلطة الذين يخضعون لهذه السلطة .

ويلفت ردفيلد النظر فى دراسته لشان كوم Chankom الى ظـاهرة الحزبية والانقسامات داخل المجتمع المحلى والتى تدور عادة فى فلك القرابة واللاقات القرابية — لبلوغ اهداف سياسية — ومن المعـروف ان قرية (شان كوم) التى درسها ردفيلد كانت جزءا من دولة قومية وهى المكسيك وكانت جماعة « ليجـــا » فى المجتمع المحلى تضم الشـباب فى القـرية وتعد بدورها فرعا من الحزب السـياسى المسيطر فى الدولة ، وقد درس ردفيلد المدرسة والحزب السياسى والجمعية التعاونية الزراعية كأجـزاء مستحدثة فى البناء الاجتماعى التقليدى لهذه القرية (٩) .

وقد استحوذت **التغيرات السياسية** التى تحـــدث فى آلمستعمرات الافريقية على اهتمام علمــاء الانثروبولوجيا وقد نظــر البض من أمثــال **مالينوفسكى** Malinowski الى هذه المجتمعات باعتبارها محل تفـــاعل ثقافة أصلية تقليدية واخرى استعمارية وافدة فأطلق عليها « المجتمعــات المؤتلفـــة » وسعى لدراسة وتحليل عمليات التغيير والتفاعل آلثقـــافى ، بينما نظر اليها البعض الآخر من أمثال **رادكليف براون** ليس فى ضـــوء فكرة التفاعل فحسب ، بل على اعتبار أن تفاعل الافراد والجماعات يتم داخـــل بناء أجتماعى واحد قائم بالفعل يمر — هو نفسه — بعملية تغير فما يحدث فى احدى قبائل « الترأنسكاى » لا يمكن دراسته الا باعتبار ما يحـــدث يشكل **جزء من النسق الســـياسى الذى يمـــد بدوره أحد اركان البنـــاء الاجتماعى أكبر** فالتركيز هنا على البناء الاجتماعى وليس على عملية التغير نفسها (١٠) ومع أهمية النسق السياسى (اوى اى نسق آخر) الا أن جورج جورفتش G. Gurvitch يلفت النظر الى انه لا يمكنه أن يعبر بمفـــرده عن البناء الاجتماعى للمجتمع الكبـــير بل آن الدولة نفسها أو الاحـــزاب السياسية ألقائمة فى المجتمعات المعقدة تعجز وحدها عن اعطاء « صـــورة دقيقة عن هذا البناء » (١١) .

ويذكر الفريد ستيبان Astepan (١٢) أن هناك **٣ واجبات أساسية للدولة** فى اى مجتمع :

١ — **حماية المجتمع** من الغزو الخارجى .

٢ — **حماية كل عضو** من تعسف الغير وارساء دعائم العدألة .

٣ — **تأسيس ودعم النظم العامة** فى المجتمع .

والامر الذى ينبغى ان يعترف الباحث به أن الانثروبولوجيا السياسية لم تمنح اهتماما حقيقيا من آلعلمـــاء خشية القـــاء الضوء على الاستعمار والكشف عن حقيقة ممارساته بل ان اصـــحاب المدخل الوظيفى ممن قاموا بدراسة النسق السياسى وبخاصة فى افريقيـــا لم بتوصلوآ — بصـــورة أو بأخرى — ألى أن هذه المجتمعات قادرة على حكم نفسها طبقا لثقـــافتها وتقاليدها السياسية الخاصة وعلى العكس من هذا فقد توصلت معظم هذه الدراسات الى أن هذه المجتمعات ما زالت تسودها الفوضى الســـياسية والتناحر بين القبائل آلمختلفة (١٣) .

ويقرر بيلز وهويجـــر Hoijer ، Beals ١٤) أنه بالرغم من ان الجماعة المحلية تشكل نقطة انطلاق فى دراســـــة النسق السياسى الا أن الجماعة فى حد ذاتها قد لا تشكل بالضرورة وحـدة سياسية مســـتقلة غير ان وجود شخصية أو شخصيات قيادية يعد من مستلزمات هذا النسق ولدى بعض القبائل تتشكل الوحدة السياسية من مجمــوعة من العشائر أو العصبيات التى تشـترك عادة فى مشروعات اقتصـــادية أو اجتماعية أو طقوسية واذ ذاك تؤدى **الوظيفـــة السياسية من خلال النظم الاخـــرى** كالقرابة والدين فتظهر الوظيفة السياسية دون التنظيم السياسى ذاته وهو ما يسود عادة فى المجتمعات البسيطة المنعزلة ، وهناك المجتمعات المنظمة سياسيا والتى تلجـأ احيانا للانتظام فى اتحادات (بينما يسودها الاقتصاد المعيشى) كما أن هناك مجتمات حربيـــة تطمع فى السيطرة على ما عداها حيث ينتج الاقتصاد فائضا يمكن تبادله مع العالم الخارجى .

وغنى عن القول أن كتابات ماركس ومؤلفاته فى الاقتصاد الســـياسى قد اثرت تأثيرا واضحا فى مجال الانثروبولوجيا السياسية وقد أوضــــح فهيم (١٥) أن علماء الانثروبولوجيا قد شغلهم فى أعمال كارل ماركس مسألتين أولهما **نظرة ماركس للانسان** ، والثانية **نظريته فى التطور الاجتماعى** ، وعلى الاخص آراؤه عن المجتمعات البسيطة (البدائية) فالانســـان من جهـــة جماع للعلاقات الاجتماعية — التى تتجسد فى الظروف المــادية الحياتية — كما أن الحقوق الانسانية واشـــكال الدولة لهما جذورهما فيما يعــــرف « بالمجتمع المدنى » الذى يتوقف بدوره على **أسلوب الانتـــاج** وهو بدوره أساس **التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية** ، وهكذا ظهر علماء الانثروبولوجيـــا أصحاب النهج الماركسى أمثال ستانلى دايموند Diamond الذين ينظرون للماركسية كمنهج للتحليل الاجتماعى التاريخى والبصيرة الاجتماعية واتجه أصحاب المــادية الديالكتيكية بنظرهم لاعتبار الانثروبولوجيا جزءا من حركة سياسية كبرى تدعم البروليتاريا وتهدف لتدمير النظام الرأسمالى كما أدى هذا الحوار الى التنوع فى وجهات نظر الانثروبولوجيا الثقافية .

وفى الوقت الذى يرى فيه ايســــتون Easton وفريد Fried وسميث Smith ودونالد كرتز D. Kurtz أن هناك قصورا واضـــــحا فى الاطـــار النظرى فى مجال الانثروبولوجيا السياسية وملامحها الاساسية يرى كوهين أن الانثروبولوجيا السياسية تقف على أرض أكثر صلابة من غيرها من الفروع والعلوم السياسية نظرا لحرصها على الحصـــول على بيانات وافية عن الانسان والدولة والمجتمع (١٦) .

وقد زخر مجال الانثروبولوجيا السـياسية بعـديد من الدراسات النظرية والميدانية وانتفع هذا المجال — رغم حداثته النسبية — من التراث النظرى الذى أرساه علمـاء السياسة والاقتصاد السـياسى فقد ناقش دافيد بيدنى D. Bidney (١٧) على سبيل المثال فى مؤلفه عن الانثروبولوجيا النظـرية Theoretical Anthropology — وفى معـرض حديثه عن النظريات المثالية والمـادية الخاصة بالازمات الثقافية — قضـية الحـرية الفكرية والسياسية ، وقضية السلطة ، والايديولوجية التى تشير بدورها الى أداء القوة السياسية لممارسة الضبط السياسى الشامل على الحيـاة الثقافية .

كما ناقش البعض الآخـر أمثال ل . رادولف وسـوسان رأدولف L.I. Rudolph ; Susenne Rudolph ما يمكن أن نسميه بالتحديث السياسى للبنيات التقليدية فى الهند فى ضوء المفاهيم الماركسية والاتجاهات الراديكالية وغيرها (١٨) .

ويعتقد روبرت ميرفى R.F. Murphy (١٩) أن عدم المساواة واختلال توزيع القوة يتركز فى المجتمعات المعقـدة بينما لاحظ كذلك أن الجمـاعات البسيطة التركيب لا تشهد عادة وجود طبقات ، وقد توجد قيادة محدودة أولا توجد على وجه الاطلاق فلدى الشوشونى Shoshoni لا يوجـد رؤساء اذ أنه ليس ثمة حاجة وظيفية للقيادة فى هذه القبيلة

وفى مقاله عن الصراع كتب جـورج سيمل عن الجماعات المتنافسة (كالهنود والامريكان) ويتمثل الصراع أحيانا فى تبنى أشـكال معينـة من القيادة كوسيلة للتعايش المتبادل والوصول لاتفاقات بين هذه الجماعات .

كماقدم سيمل أمثلة أخرى عن قبائل شوشونى نيفادا وبدنة الاريكوا (التى تسكن وسط وغرب ولاية نيويورك وبنسلفانيا) وتبذل الاولى جهودها وتدخل فى صراع مع السلطات الرسمية للحفاظ على حقها فى صيد الجاموس ويبذل الاريكوا جهودا مماثلة للسيطرة على زيادة السكان ومواجهة زيادة الضغط على المصادر.

وقد استفاد البعض من تراث علم الاجتماع السياسى وذلك من خلال

كتابات ماكس فيبر ومفهومه عن القيادة « الكارزمية »ومن « الصفوة » الذىقدم له باريتووموسكا وميتشلز .

وقد ظهرت بعض المؤلفات تحت مظلة **مدرسة التبعية** لتاكيد اثر العوامل الخارجية على البلدان المتخلفة حيث يتركز الاهتمام هنا على اثر هذه (العوامل الخارجية) فى تشكيلالاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافة فىتلكالبلدان المتخلفة صناعيا ، ويعد راؤول بريبش اول من استخدم تعبير **المركز والمحيط** فى نهاية الاربعينيات لدراسة **اثر النظام العالمى والتغلغل الامبريالى** فى البلدان المتخلفة .

وقد انتقدت مدرسة التبعية لميلها للتعميم مع ان المجتمعات المتخلفة التى صممت هذه النظرية لدراستها تتنوع فى طبيعتها وتختلف فى **خصوصيتها التاريخية** .

ومن هنا حاول البض امثال براس المزاوجة بين افكار مدرسة التبعية والمعالجات الاجتماعية والاجتماعية والاقتصادية والطبقية فى العالم الثالث وهى المعالجة التى تمت صياغتها بعد ذلك فى عدة مداخل معرفية :

أ ـ **المدخل التقليدى** ويدرساثر التبعية على الاوضاع السياسية فى المجتمعات المتخلفة باعتبار هذه الاوضاع تعبر عن البناء الاجتماعى الذى تشكله علاقات التبعية وفقا لوضع المجتمع داخل النظام العالمى .

ب ـ المدخل الذى يركز على دراسة **علاقة التبعية بالظاهرة السياسية** فى المجتمع المتخلف لفهم الدور الذى تلعبه التبعية فى صياغة شكل الدولة فى المجتمعات والبلدان التابعة .

جـ ـ المدخل الذى يركز على **التبعية الثقافية** من خلال دراسة الثقافة عامة ونسق القيم بصفة خاصة .

د ـ دراسة **التاثيراتالمباشرة للقوى السياسية** للدولة الكبرى من خلال التركيز على طبيعة المعونات الخارجية(مادية وفنيةوعسكرية..الخ).

اتجاهات الدراسة فى الانثروبولوجيا السياسية :

١ — الاتجـــــاه البنـــائى :

وقد تأثر اتباعه **بكتابات ماكس فيبر ودوركايم ومين وسيمل وغيرهم** ويضم كذلك فورتس وايفانز برتشارد الذين قاموا بدراسة الانساق السياسية فى افريقيـــا وهذا المدخل يركز على التصنيف الاولى (للمجتمعات الى ما يمكن تسميته بالدول) (التنظيمـــات الادارية المركزية) واللادول (العشـــــائر والعصبيات) . ويعـــرف براون هنا التنظيم السياسى بأنه التنظيم الذى يعمل على المحافظة على النظـــام الاجتماعى فى الاطـــارالاقليمى بواســـطة الممارسة المنظمة للسلطة (الفزيقية) ويأخذ البعض من أمثال لويد Lioyd على هذا الاتجاه تركيزه علىا لوحدات الادارية للحاكم فحسب ، وتجاهله لصناع القرار والسياسة الاجتماعية ، كما يأخذ البعض أمثال كرتز Kurtz على أتباعه المبالغة فى اظهار التباين بين الانساق السياسية فى المجتمعات غير الاوربية والمجتمعات الاوربية بينما يعتقد البعض أمثال فورتس Fortes وسميث Smith وبيفـــو Befu ان الاسهام الحقيقى لهذا المدخل يتمثل فى **التمييز بين الانشطة السياسية وغير السياسية** (كالانشطة القرابية وغيرها) وهذا المدخل كمـــا يذكر Chen لازال يعـــد ابرز مداخـــــل الدراسة فى الانثروبولوجيا السياسية رغم ضحالة تركيزه على الفعل السياسى نفسه .

٢ — مدخـــل العمليـــــات :

ويركز على **العمليات السياسية التى تؤثر فى القوى الداخلية والخارجية** للافراد والجماعات الذين يستوعبهم النسق السياسى كما أن هذا المدخـــل يركز على **التنافس والصراع** لدى الجماعات دون أن يقتصر على الابنيــــة الرسمية وحدها والسياسة فى ضوء هذا المدخل تعنى العملية الســـياسية أو العملية التى تسهم فى تحديد وتحقيق الاهداف العامة من خلال استخدام القوة ويشير الفعل السياسى هنا الى الافراد والجماعات الذين يشاركون فى النشاط السياسى فضلا عن القيم والمعانى والرموز المستخدمة لمتـــابعة هذا النشاط ويعبر عن هذا الاتجاه جلوكمان Gluckman وفلسن Velsen وتيــــرنر Tirner وقـــد حاول بالى Bailey وبارث Barth التوفيق بين الاتجاه البنائى وهذا الاتجاه

٣ — مدخل الاقتصـــاد الســـياسى :

يتبنى هذا الاتجاه مقولة مؤداها ان **التحـــكم فى الموارد الاقتصـــاديه وتنميتها** هو العامل المؤثر فى نمو القيادة السياسية والقوة وفى زيادة تعقـــد الحياة الاجتماعية ويعمل التنظيم السياسى على ادارة المجتمع والتحـــكم فى مراكز وأفعال باقى الافراد والجماعات ومن رواد هـــذا الاتجاه **انجلز وآدم سميث** كمـــا أن من أتبـــاعه سالين Sahlin وآدمز Adams وفريد Fried ولنســـكى Lenski ويعد مارفن هاريس M. Haris وكارنيرو Carneiro من أبرز من عبروا عن فكرة التطورية السياسية والاقتصادية حيث تظهـــر الســـلطة السياسية نتيجة لاستحواذ بنـــاء القـــوة Power Structure فى المجتمع على الفائض الاقتصادى .

٤ — مدخل تحليل شبكة العلاقات الاجتماعية :

ويركز هذا الاتجاه على **تحليل شبكة العلاقات الاجتماعية** فى الجماعات غير الرسمية التى لا يضمها بناء معين ولسد الفجوة بين الاشخاص والابنية الرسمية فى المجتمع ، ويلخص بيلز وهويجر طبيعة التنظيم السياسى الـــذى يقوم الانثروبولوجى بدراسته هنا فى انه يتضمن عادة ظهور تجمعات اكبر واكثر تعقيدا من الاسرة حيث تكون مصادر الطعاموفيرة نتيجة للتركيز السكانى الكبير واستخدام التكنولوجيا المتطورة ، ولا ينكر هذا الاتجاه أن المجتمعات الصغيرة المنعزلة تضم تنظيمات سياسية — كما لدى اسكيمو (الشوشونى) — حيث يمكن أن نجد الجهاز السياسى ووسائل الضبط الاجتماعى غيـــر الرسمية .

وتهتم الانثروبولوجيا السياسية بدراسة **النسق السياسى** المتمثـــل فى التنظيمات التى تهدف للمحافظة على النظـــام الاجتماعى فى الداخل ونسق العلاقات الخارجية ، ودور الانثروبولوجيا السياسية هنا يتمثل من جهـــة **فى التعرف على الاجهزة والتنظيمات السياسية** وعلى **علاقة هذا النسق(ككل) بالانساق الاخرى فى البناء الاجتماعى** من جهة أخرى .

وتتنوع الموضوعات المدروسة فتشمل الاتحادات والروابط العسكرية وبناء القوة وعلاقات التبعية مع العالم الخارجى (٢١) .

وقد قدم كرستوفر ألين حصرا بالدراسات الاجتماعية فى المجال السياسى فى افريقيا ، ومن الدراسات الحقلية آلتى أشار اليها نحو ٢١ دراسة أجريت عن كينيا ، و ١٥ دراسة عن مالى ونيجيريا و ١٢ دراسة عن زيمبابوى وساحل العاج ... الخ . وقد أبرزت هذه الدراسات جميعها العلاقة التفاعلية بين النسق السياسى والانساق الاخرى فى البناء الاجتماعى مما يدل على السعى الحثيث للاستعانة بالدراسات الحقلية فى هذا المجال .

ومن الدراسات الهامة آلتى تناولت النسق السياسى فى أمريكا الجنوبية دراسة نابليون شانون N.A. Chagnon عن « هنود يانومامو » Ganomamo Indians حيث وصف هذه الجماعة التى تنهض السلطة فيها على « متصل العنف » وناقش اعتقاد سكان القبيلة فى طبيعتهم (الوحشية) واستعدادهم لممارسة العنف (رغم انكار الباحث لسيادة هذه آلسمات الشخصية داخل القبيلة) .

وهناك كذلك آلدراسة القيمة التى قدمها كلوس فردرك كوش K.F. Koch عن النسق السياسى وطريقة حل المنازعات فى غانا الجديدة لدى قبيلة جال Jale .

وتكشف بعض الدراسات الانثروبولوجية عن امكانية دراسة ما يعرف بأدب الرسائل لتصوير بعض الجوانب الثقافية أو بعض جوانب البناء الاجتماعى (لمجتمعهم أو المجتمعات أو ثقافات اخرى فى حقبة زمنية بعينها) وبعض هذه الرسائل تشبه المذكرات اليومية التى يدونها الانثروبولوجى فى الدراسة الحقلية .

ومن بين هذه الدراسات ما أماط عنه أبو زيد (٢١) اللثام وخاصة فى مجموعة « رسائل من مصر » Letters from Egypte التى حررتها ليدى لوسى دون جوردون Lucie Duff Cordon فى ستينيات القرن التاسع عشر فقد أبرزت هذه آلخطابات رأى الناس فى الحاكم التركى وموقفهم من بناء القوة فهى تذكر على سبيل المثال « لايزال الطغيان كما كان دائما .. فالمصريون يدركون مدى التحيز القائم ضدهم » وحين زار السلطان العثماني

مصر كتبت بدورها رسائل اخذت عليه ترفعه على الشعب المصرى وتكشف عن مظاهر التفرقة بين الاتراك والمصريين ، « لقد أمر الباشا بأن تحتجب كل نساء الطبقات الدنيا فى بيوتهن اثناء وجود السلطان لان النساء العربيات سافرات وربما يرفعن اصواتهن بالشكوى فى وجهه » .

وقد تعرض نبيل صبحى(٢٢)للنسق السياسى فى المجتمعات الصحراوية فأفصح عن ميكانزمات خضوع الجماعات الصحراوية لسلطة الدولة حيث تزداد القوة العسكرية وقوة التنظيم السياسى للبدو ابان ضعف الدولة بينما تتقلص هذه القوة نتيجة لازدياد قوة الحكومة المركزية .

فالحكومة الاردنية على سبيل المثال تعتمد اعتمادا سياسيا على القبائل البدوية فى الحصول على دعم سياسى ويستشهد صبحى هنا بما يذكره كول كذلك عن الجيش السعودى حيث تزداد المنافع التى تحصل عليها القبيلة بقدر مساهمة افرادها فى خدمة الوطن وبذا تضمن الدولة استيعابا لقبيلة والانتفاع بخبرتها والاستعانة بها فى صد الهجمات الخارجية .

بينما تقوم قبائل الكرك فى جنوب الاردن مثالا للعداء بين القبيلة والدولة حيث هاجمت هذه القبائل الدولة فأرسلت الدولة حملة عسكرية لاخضاع هذه القبائل .

وهذا فضلا عن ذلك العداء الدائر بين القبائل فى الصحراء مما يؤدى للاقتتال المستمر بينها ، ومن أمثلتها الصراع الدائر رحاه بين قبائل « الهنادى » وقبائل « أولاد على » .

وهناك الغزوات التى تقوم بها جماعات بدوية على جماعات مسافرة او على قرى قائمة (حيث كانت القرى تقدم اتاوات تسمى بالخاوة) وقد تعرض صبحى لنظام « الزجالة » فى سيوة حيث كان هؤلاء الرجال يشكلون شريحة تعيش فى معسكرات ويشترط عليهم عدم الزواج ويتولون مهمة الزراعة فضلا عن الدفاع عن الواحة .

كما اوضح فى دراسته لمجتمع « الكرك » كيف أمكن للقبائل أن تكون

صاحبة النفوذ فى الاقليم وتقوده سياسيا وكيف تسنى لها ادارة شئون الاقليم وتحقيق الاتصال بين الحكومة المركزية والقطاعات المحلية فالقيادة القبلية ترتكز على المجلس المحلى لتوفير الخدمات المختلفة وعلى « المختار » أو ممثل القبيلة ، وقد تمكنت الدولة من خلال البرامج التنموية (تعليمية واقتصادية) من انعاش الاقليم اقتصاديا مما ادى لزيادة معدل التغير الاجتماعى والثقافى ويزداد تأثيرها فى الاقليم .

نخلص من هذا أن الانثروبولوجيا السياسية هى **ذلك الفرع الهام** من فروع **الانثروبولوجيا** الذى يهتم بدراسة السلوك السياسى فى سياقه المجتمعى Societal Context وينظر للانظمة والظواهر السياسية Political Phenomena فى ضوء علاقتها بالنظم والظواهر السياسية الاخرى .

فالانثروبولوجيا السياسية Political Anthropology تهتم بدراسة النسق السياسى فى ضوء علاقته بالبناء الاجتماعى Social structure كما تنظر للسلوك السياسى Political Behaviour فى ضوء علاقته بالنسيج الاجتماعى وشبكة العلاقات الاجتماعية التى يشب فى ظلالها .

وبعبارة أخرى فالانثروبولوجيا تهتم بتحليل النظام السياسى والظواهر السياسية الواقعية والملموسة فى المجتمع كما تهتم بالعلاقة بين النسق السياسى والانساق الاخرى : اقتصادية وايكولوجية وقرابية فضلا عن الضبط الاجتماعى ونسق القيم فى المجتمع .

« المصـــــــادر »

١ — Conformity and confliet. Little, Grown and comp. Boston. 1980 p. 255.

٢ — R.F. Murphy. Cultural and social Anthropology U.S.A. 1979. pp. 142 : 150.

٣ — David Bidney. Theoretical Anthropology schoken Books. New York. 1967 pp. 138 : 442.

٤ — Alfred Stepan. The state and society princeton. New Jersey. 1978 p. 12 : 22.

٥ — I.L. Horowitz. power politics, and people The collected Essays of wr. Mills 1962 : p. 2.

٦ — على ليلة — البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا — دار المعارف — القاهرة — ١٩٨٢ ص ٤٠٣ ، ص ٤٠٤ .

٧ — R. F. Murphy. op. Cit. U.S.A. 1979. p. 141.

٨ — احمد أبو زيد — البناء الاجتماعى — الانساق — جـ ٢ — دار الكاتب العربى — الاسكندرية — ١٩٦٧ — ص ٤٦٥ : ص ٤٧٩ .

٩ — روبرت ردفيلد — المجتمع الصغير كبناء أجتماعى — ترجمة احمد أبو زيد مطالعات فى العلوم الاجتماعية ١٩٦٠ ص ٨٤ : ص ٨٦ .

١٠— رادكليف براون فى البناء الاجتماعى — ترجمة السيد عبد الحميد الزين مراجعة أحمد أبو زيد .

مطالعات فى العلوم الاجتماعية ــ سنة ١٩٦٠ ص ١٤ : ص ١٦ .

١١ــ جورج جورفتش ــ مفهوم البناء الاجتماعى ــ ترجمة خليل صابات .
فى مطالعات فى العلوم الاجتماعية ــ ١٩٦٠ ص ١٤٣ ، ص ١٤٤ .

١٢ــ جيرار لكلرك ــ الانثروبولوجيا والاستعمار ــ ترجمة جورج كتورة ــ
معهد الانماء العربى ــ بيروت ــ ١٩٨٢ ــ الفصل الثالث .

١٣ــ بيلز وهويجر ــ مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ترجمة محمد اللجوهرى
والسيد الحسينى ج ١ ــ القاهرة ــ ١٩٧٦ ــ الفصل الثالث عشر .

١٤ــ حسين فهيم ــ قصة الانثروبولوجيا ــ عالم المعرفة ــ الكويت
١٩٨٥ ــ ص ٢١١ ، ص ٢١٢ .

١٥ــ أحمد أبو زيد ــ البناء الاجتماعى ــ ١٩٦٧ الفصل العاشر .

١٦ــ Bidney. op. cit. cf. 14 : 16.

١٧ــ Op. cit. Introduction.

١٨ــ R.F. Murphy .. op. cit. ch. 7.

١٩ــ أسامة الغزالى ــ حرب الاحزاب السياسية فى العالم الثالث ــ
عالم المعرفة ــ الكويت ــ ستمبر ١٩٨٧ ص ٤٦ : ص ٧٤ .

٢٠ــ أحمد أبو زيد ــ الفصل الحادى عشر .

٢١ــ احمد أبو زيد ــ رسائل انثروبولوجية ــ عالم الفكر ص ٣ : ص ٣٠ .

٢٢ــ نبيل صبحى ــ المجتمعات الصحراوية فى الوطن العربى ــ دار
المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٨٤ ــ الفصل الخامس والسادس .

الدراســـــات الحقليـــــة

فى مجـــال الانثروبولوجيـــا الســـياسية

اولا — الدين والسلطة لدى نيورو — اوغندا :

يعرض جورج بالاندييه رائد الانثروبولوجيا السياسية فى فرنسا — فى مؤلفه عن الانثروبولوجيا السياسية — من خـــلال استراضه للدراسات الحقلية فى افريقيا أن ثمة علاقة وثيقة بين الدين والسلطة اذ أن وحـــدة الرموز فى بض المجتمعات الافريقية تجسد هذه العلاقة فالمفاهيم المستعملة لوصف جوهر السلطة هنـــا مستمدة بدورها من المعجم الدينى والمقدس ، وهكذا تلجأ نظرية الملكيـــة فى جماعة « نيورو الاوغنـــدية » الى مفهـــوم « **موهانو** » ويعبر هذا المفهوم عن السلطة التى تجيز للملك المحافظة على النظام وتنتقل وفقا لاجراءات طقسية دقيقة . أما « الموهانو » فمتسع الانتشار فهو يشارك فى أعمال عديدة أما اذا اشترك فى أعمال عنف فهذا يعنى أن هناك خطر خارجى يتهدد الناس ، فاذا حدث ما يهـــدد النسق القرابى أو النوع أو العمر أو التدرج الاجتماعى تدخل الـــ « **موهانو** » للمحافظة على توازن البناء الاجتماعى فى المجتمع التقليدى بل ان على « الموهانو » أن يكشف للمجتمع المخاطر التى تتهدده قبل أن تحدث كما يتدخل أخيرا فى مجرى الحياة الشعائرية عند الولادة والتكريس والوفاة وهكذا يبدو أن الموهانو حـــاضر دوما سواء فيما يتعلق بعلاقة الفرد بالمجتمع أم بعلاقة الفرد بالقوى التى تحدد مصيره ومستقبله . ويمكن القول بأن الجهاز السياسى هو ضــــابط للموهانو فمراكز السلطة أو السيطوة التى يحددها هذا الجهاز من شأنها أن تبرر تفاوت أصحابها فى الحصول على تلك القوة — التى تصون الحياة — وتحافظ على النظام . وملك النيورو Nyoro هو الذى يستحوذ على سلطة الموهـــانو Mohano كاملة فالطقوس جميعا تهدف لصنع الملك وصـــيانة شخصيته وحمايته كرمز للحياة نفسها فحماية الملك تحمى الجماعة كلها من الموت ، فالملك هو الـــذى يسيطر على الاشخاص والاشياء ويحـــافظ على

تنظيمهم ، وبواسطة الملك ينتظم العالم الاجتماعى وتتدعم سلطته على القبيلة وعلى « الموهانو » ترتكز بدورها الميكانيكيات المكونة للعالم والمجتمع فهو الذى يتيح للملك الاضطلاع بمهامه ، وهذه السلطة الروحية تعد مصدر خطورة فى حد ذاتها لان لها متطلباتها وشروطها على من يملكها ، والموهانو تحافظ على الرئيس حتى لا يتصرف بحماقة أو رعونة .

والامر الملفت للنظر أن « الموهانو » يحتوى على ازدواجية تضم مجموعة من القيم المتناقضة كالحياة والموت .

وهكذا تبرز هذه الدراسة علاقة الانساق الدينية والسياسية فى هذا المجتمع التقليدى حيث تتحد السلطة الروحية والسياسية فى شخص الزعيم أو القائد .

ثانيا — القيادة فى قرية مصرية (*) :

تمت هذه الدراسة الحقلية لاحدى قرى محافظة المنوفية فى الستينيات واستخدمت فى الدراسة الملاحظة بالمعايشة وصحيفة الاستبيان مع الجمع بين مميزات مقياس أسلوب الشهرة Reputation approach والاسلوب السوسيومترى وتبعد القرية المدروسة عن مدينة شبين الكوم بنحو ٢٠كم ، وقد أفصحت الدراسة الحقلية عن أن للقرية «هرم قيادى جامد ومغلق»ويضم هذا الهرم مجموعة قيادية مغلقة تحتل قمة الهرم وترتبط معا عن طريق الدم أو المصاهرة (الانتماء لبدنة واحدة) كما لوحظ بالقرية اقتراب صورة القيادة غير الرسمية من القيادة « الرسمية » و « شبه الرسمية » وبخاصة فى مجموعة القمة حيث يشغل جميع أعضاء هذه المجموعة مراكز قيادية رسمية أو شبه رسمية ، وهكذا تتداخل النماذج القيادية الثلاثة الرسمية وشبه الرسمية وغير الرسمية معا .

(*) قام بهذه الدراسة د. محمود عودة أستاذ علم الاجتماع لانجاز رسالته للحصول على درجة الماجستير فى كلية الاداب جامعة عين شمس عام ١٩٦٦ — انظر لويس مليكة — قراءات فى علم النفس الاجتماعى — الهيئة المصرية للتأليف — القاهرة ١٩٧٠ .

ويرتكز القادة فى مجموعة (القمة) هذه على المركز الوظيفى الرسمى أو شبه الرسمى بالاضافة للعائلة وللعصبية مما أدى لاحتلالها مكانة مرموقة فى بناء القوة .

وقد ادرك الناس افراد هذه المجموعة بسهولة كمجموعة قادرة على مجابهة كل المواقف (سياسية — اجتماعية — اقتصادية ... الخ) وتحتل المجموعة القيادية **المتوسطة** مكانة القيادة فى بعض المواقف المتخصصة وفقا لراى الناس اذ يبتعد أفرادها عن مراكز القوة بينما تظهر خصائصهم القيادية فى مواقف بعينها ، وتضم القيادة المهنية المتخصصة كالمدرسين والمشرف الزراعى على أسس غير قرابية ، وتمثل هذه المجموعة اهم مجموعات البناء القيادى كما انها بحاجة لتدعيم لمواجهة المجموعة التقليدية فى النسق السياسى .

اما **المجموعة الثالثة** فتتسم بالتركز القيادى فى موقف أو موقفين على الاكثر ، اى ان القرويين قد أختاروا أعضاء هذه المجموعة كمستشارين فى موقف واحد أو موقفين على الاكثر وهى تضم تشكيلة مختلفة وان اتفقت بدورها فى الحاجة لمزيد من اعتراف مجتمع القرية بهم وقد أوضحت الدراسة الحقلية عن أن قادة القرية ينتمون الى الطبقة المتوسطة (العليا) وان ثمة سيطرة قرابية ملحوظة على بناء القوة فى القرية مع تمتع هذه المجموعة القرابية المسيطرة بشغل معظم المراكز الرسمية الفعالة المصحوبة بنفوذ متسع وهو ما أسماه الباحث بالتركز العائلى للقوة .

وقد تركز قادة القرية فى المرحلة العمرية ٢٥ سنة فاكثر كما ان المستوى التعليمى يرتفع قليلا عن مستوى غير القادة وان كان التعليم كمتغير يغفل تماما فى المواقف الرئاسية ويتصل العامل الاقتصادى بالعامل القرابى بحيث يسهمان معا فى تحديد بناء القوة فى مجتمع القرية حيث اتضح أن بناء القوة فى هذا المجتمع محدد بعوامل كامنة فى بنائه الاجتماعى أكثر مما هو محدد بسمات شخصية تميز الافراد ، فالافراد الذين شغلوا مراكز مرموقة فى بناء القوة بالقرية يشغلون بالفعل مراكز قيادية رسمية وشبه رسمية وهى مراكز مصحوبة « **بقوة ما** » . اى أن بناء القوة Power فى المجتمع الريفى المدروس يمثل نسقا فرعيا Sub - System يحمل بداخله خصائص البناء الاجتماعى الكلى للقرية بما يتضمنه هذا البناء من أنساق دينية وقرابية وغيرها .

الباب الثـــالث

« الاتجــــاه السوسيوانثروبولوجى »

الفصل التاسع : الاتجاه السوسيوانثروبولوجى ــ المنهج والادوات

الدراسة الحقلية : النادى وميكانزمات الصراع

دراســـة سوسيوانثروبولوجية

الفصل العاشر : الانثروبولوجيا الراديكالية :

الفصل التاسع

« الاتجاه السوسيوانثروبولوجى »

المنهج والادوات

يهدف هذا الاتجاه للانتفاع من معطيات علم الاجتماع والانثروبولوجيا ونحن نثير هنا التساؤلات الآتية : **ما فحوى هذا الاتجاه ؟ وما هى أبرز ادواته؟**

فقد ظهرت الدلالة الواضحة لما يعرف بالاتجاه السوسيوانثروبولوجى فى الآونة الاخيرة — وبخاصة خلال النصف الثانى من القرن الحالى — حيث تبلورت فكرة المزاوجة بين الاتجاه الانثروبولوجى والاتجاه السوسيوانثروبولوجى اذ أن البعض أمثال رادكليف براون R. Brown لا يرون مانعا من تسمية الانثروبولوجيا الاجتماعية علم الاجتماع المقارن ، كما أن مرد ذلك يرجع لمحاولة العودة الى الفلسفة التى تتركز عليها العلوم الانسانية بصفة خاصة فقد تساءل علماء الاجتماع والانثروبولوجيا عن ماهية دورهم فى دراسة الانسان (١) اذ لم يعد الهدف الاساسى هو المباهاة بالنظريات والتعصب فى الدفاع أو اخفاء الاخطاء بقدر الحرص على زيادة فاعلية هذه العلوم الانسانية فى فهم الانسان يؤثر ويتأثر بالحياة فى المجتمع وفى ظل ثقافة معينة والعمل من أجل اسعاده والتغلب أيضا على مشكلاته التى تزداد تعقيدا بمرور الايام . وقد أدى هذا المنظور فى علم الاجتماع الى ظهور ما يعرف بعلم اجتماع علم الاجتماع Sociology of sociology وبدأ علم **الاجتماع الراديكالى (٢)** يبحث عن دوره فى خدمة المجتمع بينما انطلقت الانثروبولوجيا من حيز الاهتمام الرومانسى بالمجتمعات البدائية Primitive societies والمجادلات النظرية التى قادها مورجان وغيره ممن أطلق عليهم « **انثروبولوجى المقاعد الوثيرة** » الى الاهتمام بالتحضر والتصنيع والتنمية ، أما الاتجاه الكلاسيكى فيلخصه لنتون Linton بقوله :

« لقد تناسب الاهتمام بتلك الجماعات (**البدائية**) طرديا مع شدة عزلتها عن ثقافتنا واختلافها عنا وكان (**الاثنولوجى**) القديم يشعر أنه فى السماء السابعة لو اكتشف جماعة لم يرها الرجل الابيض من قبل (٣) .

ومن الطريف أن علماء الانثروبولوجيا حين حاولوا أن يدرسوا المجتمعات المعاصرة كانوا يشعرون وكأنهم أرتكبوا معصية كبرى لا تغتفر فبينما كان الانثروبولوجى يفخر بالقبيلة أو المجتمع المنعزل الذى يقوم بدراسته فانه كان يجتهد من ناحية اخرى أن يخفى اسم المدينة أو المنطقة الحضرية التى يتولى دراستها . فقد قام هـ. ليند ، ر. ليند Lunde's بدراسة مدينة أمريكية قبل الحرب الثانية غير انهما امعانا فى التمويه أطلقا عليها : «Middle town, Yankee City, Plainville». أى منطقة كذا من ولاية كذا ... الخ (٣) .

اولا — فحوى هذا الاتجاه :

لقد شهد الانفصال بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا انفصالا مماثلا فى الادوات البحثية التى يستخدمها كلا منهما فقد اعتمدت الانثروبولوجيا على **الملاحظة والملاحظة بالمشاركة ، وذاكرة كبار السن** (والاخباريين) **والطريقة الجينالوجية** لتسجيل شجرة العائلة والاقارب ، **ودراسة تاريخ الحياة** Autobiography للحصول على المادة الاثنوجرافية التى يتسنى بموجبها تحديد جوانب البنية الاجتماعية وكيفية التساند الوظيفى . بينما اعتمدت الدراسات السوسيولوجية على الوثائق والاحصاءات واستمارات المقابلة الشخصية (الاستبيان) والاستمارات البحثية التى لا تستوفى بمعرفة المبحوث (الاستخبارات) وتحليل المضمون والاتجاه التاريخى لجمع البيانات اللازمة (٤) .

وقد أحرزت الانثروبولوجيا الان تقدما فى استخدام أدوات البحث الكمية بينما انتفع علم الاجتماع من أستخدام **المنهج الاثنوجرافى** والدراسات المتعلقة بالاعتماد على الملاحظة بالمشاركة ودراسة الحالة وغيرها ومن الادوات البحثية ، وما لبث علماء الاجتماع والانثروبولوجيا معا أن اكتشفوا أهمية تجاوز هذه الثنائية الى ما سمى بالاتجاه السوسيوانثروبولوجى وأستخدمت الادواتو مناهج آلبحث — التى تحقق الهدف من الدراسة — وأساليب

التحليل السوسيولوجية والانثروبولوجية معا وبخاصة فى دراسة المجتمعات الحضرية الصناعية حيث تقوم الدراسة السوسيوانثروبولوجية على عدة مقومات من بينها :

١ — تحديد **الهدف** الاساسى والاهداف الفرعية للدراسة .

٢ — تحديد **الفروض** وتساؤلات الدراسة ونوعية القضايا التى ستقوم بدراستها .

٣ — تحديد **الاطار التصورى** او الاتجاه (النظرى) الذى يتبناه الباحث والادوات التى يستخدمها فى دراسته وتساعد لعى تحقيق اهداف الدراسة دون أن ينحصر اهتمامه فى أدوات معينة لا يتعداها وهو يراعى هنا عدة اعتبارات من بينها .

أ — المزاوجة بين **الوصف الاثنوجرافى** Ethnography **والتحليل السوسيولوجى** Sociological analysis فقد يدرس الباحث النقابة العمالية فى منطقة صناعية ويتتبع كيفية اشباع النقابة لاحتياجاتهم الاجتماعية ويتعرض للخدمات التى تقدم الوظائف التى تؤديها النقابة للعمال غير أنه يحاول ان يربط بين بناء القوة فى المصنع ودور النقابة كما انه يتتبع اوجه الصراع ويقوم بتحليلها وعليه أن يستقصى عن المعلومات الخاصة برأى العمال فى النقابة ونظرتهم لها وغيرها من المتغيرات مما يجعل من الوصف وسيلة — لا غاية — بينما يتم التحليل والتفسير فى ضوء الأطر النظرية التى تبناها الباحث ويشترط الا يتعارض هذا التحليل ومعطيات الواقع الاجتماعى الذى يقوم بدراسته .

ب — **اهمية الدراسة التكاملية للظاهرة** لا الدراسة الجزئية فحسب وهى النظرة المعروفة **بالنظرة ((الجشطالتية))** فلا يمكن أن ندرس أدمان العمال للحشيش الا فى ضوء العلاقة بين ظاهرة الادمان والظروف الاجتماعية والثقافية فى المجتمع العمالى ووسائل الترفيه المتاحة والعلاقات العمالية (*) غير الرسمية ، والدخول الطفيلية العمالية (كالتى صاحبت حقبة الانفتاح الاقتصادى فى مجتمعنا) وارتفاع

معدلات الامية أو نقص الوعى بين العمال وتتبع وصــول المخدرات للعمال وكيفيـــة انتشارها وأسباب التعاطى (بينهم) ومعتقــداتهم الدينية ورؤيتهم للآثار التى يؤدى اليها ادمان الحشيش ... الخ .

جـ — لا يمكن أن ندرس الظاهرة المجتمية الا فى ضوء **علاقتها بالمجتمع المحلى** الذى توجــد فيه فالمولد يختلف بحسب طبيعة المجتمع المحلى الذى يحتفل بالمناسبة وبحسب شخصية المحتفى به وبحسب امكانيـــات المنطقة ونوعية الزوار الذين يفدون اليها ، ومدى توفر سبل المواصلات من عدمه ، واهتمام الجهات المسئولة بحفظ الامن والنظام ... الخ .

د — ان دراسة **التساند فى البنــاء الاجتماعى** لا يعنى خلو هــذا البنـــاء من أوجه **الصراع** فحيثما يتواجد الانسان يتواجد النعــاون والصراع جنبا الى جنب .

هـ — ان الادوات البحثية التى يستخدمها الباحث الانثروبولوجى ينبغى ان تكون قادرة على القاء الضوء على مظاهر التغير الاجتماعى الداخلية الخارجيّة معا (من داخل المنطقة وخارجها) .

و — أهمية فهم **المراكز والادوار** فى داخل السياق الاجتماعى للانساق والنظم الاجتماعية حتى يتسنى للباحث أن يربط بين التمـــايز فى العلاقات الاجتماعية والتمايز فى الادوار والتوقعات .

ز — أهمية فهم **المنــاخ الثقافى** الذى تعمل الظواهر والعلاقات الاجتماعية من خلاله ويقتضى هذا من الباحث الاستعانة بالوسائل المختلفة لدراسة الثقافة سواء الثقافة المــادية أو غير المــادية .

ح — هناك حقيقـــة ينبغى أن يضـــعها الباحث فى اعتبـــاره وتتمثل فى أن الجماعة التى يدرسها تمثل **جمـــاعة جــزئية** Part Community وتكون **مجتمعـــا غير متكامل** In Complete وهى مقولة تختلف تمـــاما عنها فى حالة دراسة المجتمعات التى كانت تسمى بالمجتمعات المنعزلة

المكتفية بذاتهـــــا Self suffucient ويدفع هـــذا بالباحث الى الاستقصاء عن وســـائل الاتصال بين الشريحة التى يقوم بدراستها والمجتمع المحلى الصغير الذى يدرسه والمجتمع ألقـــومى الذى يضمه والمجتمع العالمى الذى يضمهما معـــا ــ فقد نظـــر ألكثـــيرون من الباحثين الانثروبولوجيين للمجتمعات الريفية باعتبارها مجتمعات لا تفهم الا فى ضـــوء علاقاتها بالتجمعات الحضرية التى تضمها وهى حقيقة اظهرتهـــا دراسة جون امبرى Embree فى اليابان ودوبيـــه Dube فى ألهنـــد حيث تتفاعل القـــرية مع الثقـــافة التى تأتى من خارجها كما أن كروبر Kroober يؤكد هذه الحقيقة نفسها .

وقد قام الباحث بدراسة سوسيو ــ انثروبولوجية لاحـــــدى أطراف العاصمة للتعرف على **أثر التصنيع** فى هذه المنطقة ــ التى تضم مؤسسة صناعية كبرى للمبردات واجهزة التكييف ومؤسسات صناعية أصغر حجما لصناعة الاثاث من الاخشاب ــ فاكتشف ان المادة الخام ترد من الخارج (الاخشاب المستوردة واجزآء المبردآت واجهـــزة التكييف) وأنها **تصنع** بالمنطقـــة ثم **تســـوق** خارج المجتمع المحلى ، وبعبـــارة أخرى فان ثمة علاقة عضوية (وان كانت غير مبـــاشرة) بين هذا الحى ــ من احياء **المدينـــة المتروبوليتانية** ومناطق التوزيع من جهة ــ والبلدان المرسلة للمواد المصنعة من جهـــة أخرى ، فالسلعة يتم تحـــديدها بينما يتم تصنيها بالمؤسسات الصناعية آلمســـتقرة فى المجتمع المحلى (٦) .

وفيما يلى تفصيل **لبعض الاساليب السوسيوانثروبولوجية** المتبعة :

١ ــ **الملاحظة بالمشاركة** وتعنى أن يمضى الباحث عادة سنتين على الاقـــل فى الدراسة الحقلية مستعينا بهذه آلاداة ويشترط على البـــاحث أن يكون على صلة وثيقة بالاهالى وأن يستخدم اللغة (الوطنيـــة) أو آلمحلية حتى يتمكن من فهم شبكة العـــلاقات وأن يلاحظ المجتمـــع من الداخل بحيث يشـــارك فى النشاط اليومى ولا يتيسر هذا الا اذا عاش بينهم وأصبح يؤلف جـــزءا من هذا آلمجتمع المحلى فهو لم يأت لكى يغير اسلوب حياتهم وانما سعى اليهم ــ فى تواضع ــ ليـــدرس اساليبهم الثقافية ويقتضى هذا منه أن يفهم كل شىء حتى الامور آلتى تبـــدو تافهـــة مثل النكت السائدة وطريقة طهى الطعام وذلك فى ضوء

علاقة كل هذه العناصر بغيرها من العناصر الاخرى .

كما ينبغى أن يضــــع أولويات تحدد ما يجب أن يدرسه أولا وما الذى يليــه وهكذا ، وتتطلب الملاحظة بالمشــاركة عادة **شخصية** تستطيع أن تتحمــل مشاق العــزلة عن الاسرة والاصدقاء والتكيف مع الظروف الجديدة وان يتسلح بقــدرة على البحث لا بمجرد الالمام بالمعرفة النظرية .

ويجتهد الباحث أن **يفسر معنى كل نشاط** يدخل فى اطار الظاهرة المدروسة ولا يكتفى بمجرد سرد الوقائع (٧). كما أن شخصيته قد تؤثر فى تفسيره للثقافة والانساق دون أن يتغاضى عن **تفســير النــاس انفسهم للظواهر** من جهة وعن المقارنة بينها فى ضوء علاقاتها بالبنــاء الاجتماعى من جهة أخرى .

٢ ــ **اعداد دليل جمع البيــانات من المجتمع المحلى :** ويتضمن هذا الدليل عادة أسئلة حول الملكية والمحاصيل ونوع التربة والحيــوانات الاليفة والنواحى الصحية والتعليمية والدينية والمناسبات الاجتماعية والدينية التى يحتفل بها الناس .

٣ ــ **تاريخ حيــاة الاشــخاص :** وهى أداة متعمقة لسبر غور الشــخصية من خلال المناخ الاجتماعى والثقافى السائد للاحداث المحلية التى تفصح بدورها عن الحياة الشخصية أو الاحداث الاسرية (التى ترد من خلال دراسة شخصية معينة فضلا عن دراسة مظاهر **التفاعل الاجتمــاعى** داخل الاسرة والمشكلات الشخصية ومراحل النمو النفسى والاجتماعى للشخص ويقترب من هذه الاداة ما يسمى كذلك بطريقة **الفهم الذاتى** Ethnoscience ويشمل طريقة تنظيم الشخص لثقافته الخاصة .

٤ ــ **الشخص الاخبــارى :** وهو الشخص المحلى الذى يختــاره الباحث اما لدرايته الواسعة بما يحدث فى المجتمع أو لكبر سنه وخبرته الكبيرة بتراث المجتمــع أو لثقتــه بأنه سيعطى تفسيرات واضحة لما يغمض على الباحث ادراكه . ويشترط ألا تتعــارض المعلومات التى يدلى بها الاخبــارى مع ما يسمعه أو يراه الباحث فى المجتمع ، فاذا حدث هذا وجب عليه أن يحدد ما يجانبه الصواب .

٥ ــ **دراسة الحـــالة :** وهى الدراســة المتعمقــة التى يمكن أن تعتبر الشخص أو الاسرة بموجبها بمثابة حالة Case تدرس بالتفصيل كما يمكن اعتبار المجتمع المحلى بأكمله بمثابة حالة يمكن دراسة نظمه والعلاقة بين سكانه وأوجه التغير الاجتماعى والثقافى التى تتعرض لها انساقه ويتم ذلك عادة بموجب ما يسمى بدليل دراسة الحـــالة الذى يضم القضايا المراد دراستها بصورة مفتوحة Opened .

٦ ــ **استمارات او صحف الاستبيان والاستخبارات :** وتشمل عادة البيانات الاساسية والديموجرافية والاسرية واوجه الدخل والانفــاق والمكانة الطبقيــة واوجه السلوك الاجتماعى والثقــافى التى يمكن دراستها بموجب اسئلة محددة ومغلقة Ended .

٧ ــ **المقـــابلات الجماعية :** Group Interviews وهــو الاســلوب الذى يمكن بموجبه دراسة الظواهر العامة كالهجــــرة والاتجاهات والظروف الاسرية والاقتصادية فى المجتمع المحلى عن طريق طــرح قضايا محددة ومناقشتها مع جماعات صغيرة من أفراد المجتمع ومعرفة موقف هذه الجماعات من تلك القضايا .

٨ ــ **الدراســة الجينولوجية للقــرابة :** ويمكن بموجبها تســجيل أسماء الاشخاص الاحيــاء والموتى ، والعــلاقات القــرابية القائمة ومهنهم وتعليمهم ومحال اقامتهم والادوار والمراكز الاجتماعية والمكانات الطبقية للشخص وجماعته القرابية .

٩ ــ **دراسة دورة حياة الاسرة** Family Cycle هى ادارة نافعة للاستقصاء عن مراحل العمر والوضع العائلى .

١٠ــ **الاحصاءات والوثائق ، والخـــرائط :** ومن المعروف أنه من خلال الدراسة الايكولوجية على سبيل المثال يلجــأ الباحث الى الخــرائط القديمة والحديثة لمقارنة التوسـع العمرانى للمنطقـــة فى حقب زمنية مختلفة . وغنى عن القــول أن الباحث يلجــأ فى استخدامه لهـــذه الوثائق لبعض الادوات **كاجهزة التسجيل ، والصور الفوتوغرافيــة**

وأجهزة الفيديو وغيرها من الوسـائل السمعية والبصرية لاعطـاء صورة حية وشاملة للواقع الميدانى الذى يقـوم بدراسته ويستعين الباحث أحيانا بنقطة الصفر Zero point لمقارنة أوضاع المجتمـع قبل وبعـد حدوث تغيرات أساسية معينة كدخول الصناعة والثورات والحروب وهذه النقطة تحدد تعسفيا لاغراض الدراسـة المتزامنة للمجتمع المحلى مع الرجوع الى ذاكرةكبـار السن والوثائق لمقـارنة المرحلة السابقة علىالتغير بالمرحلة اللاحقة لها .

ثانيـا : سـنعرض هنا لأبرز هـذه الادوات وهى الملاحظة بالمعايشـة وصحيفة المقابلة ودليل دراسة الحالة :

أ — الملاحظةبالمعايشـة :

مقـدمة :

تعنى هذه الاداة استخدام مفهوم الملاحظة فى مواقف بحثية **يتعايش فيها الباحث معا لموقف أوالجماعة أو الظاهرة** المراد دراسـتها بحيث يرتبط الانسان القائم بالملاحظة مع « الآخـر » موضوع الملاحظة ارتباطا مباشرا ، وغنى عن القول أن تفـاعل الباحث (الملاحظ) والناس موضوع الملاحظة يشكل المحور الاساسى فى **الدراسـة الحقلية** فى الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية .

١ — **التاريخ للملاحظة بالمعايشـة :** ان التاريخ لهذه الاداة يقودنا لتقليد الدراسة الحقلية فى الانثروبولوجيا اذ بدأت الرحلات الانثروبولوجيـا اساسا فى الولايات المتحـدة حين قام **بواز** Boas بدراسته الحقليـة فى **كولومبيا (البريطـانية)** وانتقلت هذه الدراسات الى انجلترا حين قام **هاردن** Haddon على رأس بعثـة جامعة « كمبردج لدراسة **منطقـة مضـايق توريس** Torres straits بالمحيط الهادى فى نهاية القـرن التاسع عشر ، وقد اعتبرت هذه المرحلة نقطة تحـول فى تاريخ الدراسـة الحقلية فى مجال الانثروبولوجيا فى بريطانيا أذ أسهم سلجمان G. Seligman — احد أفراد جامعة كمبردج — بدوره فى توجيـه بعض رواد الانثروبولوجيا الى اتبـاع النهج الخاص بالمعايشـه فى مجتمعات معاصرة — بعيـدة عن المجتمعات التى عاشوا فيها — ومن هنـا بدأت الدراسات الحقلية القائمة على الملاحظة بالمعايشـة تأخـذ نصيبها من الاهتمام حيث درس **ايفـانز برتشـارد** على سبيل المثال السودان ، والنوير Nuer ونيـام نيـام وغيرها من المجتمعات الافريقية (٨) كما قام **رادكليف براون** الذى كان تلميذا لريفرز وهادن بدراسة لسكان جزر الاندمان The Andaman Islanders وهى من الدراسات الهامة التى حاولت الانتفاع من خبرة الدراسة الحقلية

على أساس استخدام الملاحظة بالمعايشة للسكان حيث يعتقد براون أن المنهج العلمى يبدأ بالملاحظة ثم التصنيف فالمقارنة والتحليل (٩) ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن (هذه) الدراسات الحقلية الاولى كانت تمثل النموذج المثالى الذى ينبغى اتباعه فهى لم تخلو بدورها من ثغرات ونقاط ضعف عديدة اذ أن قصر المدة التى كانوا يمضونها بين تلك الشعوب : وجهلهم بلغاتها ، وعدم توطد العلاقات مع الاهالى وغيرها من الاخطاء قد أدت الى الحصول — فى الكثير من الاحيان — على بيانات سطحية ، وليس هناك شك كذلك أن رادكليف براون (١٩٠٦ : ١٩٠٨) كان أول من حاول الرجوع الى مجتمع بدائى معين لوصف الحياة الاجتماعية بينما يعد **مالينوفسكى** Malinowski وهو تلميذ لكل من **هوبهاوس** Hobhouse **ووسترمارك** Westermarch **وسلجمان** — ابرع من قام — من الرواد — بدراسة حقلية اذ أستخدم الملاحظة بالمعايشة فى دراسة لسكان جزر التروبرياند Trobriand فى ميلانيزيا بين عام ١٩١٤ ، ١٩١٨ ومصداق ذلك أنه أول من استخدم لغة الاهالى أنفسهم فى الدراسة وعاش مع الناس بحسب طريقتهم الخاصة فى الحياة ، الامر الذى مكنه من التغلغل فى فهم الحياة الاجتماعية فىهذا المجتمع فتمكن من دراسته بصورة متعمقة(١٠). كما أن مالينوفسكى كان يؤكد دائما أن النظرية العلمية يجب أن تبدأ من الملاحظة (١١) .

محتوى هذه الأداة :

تستلزم الدراسة الحقلية ألتى تتبنى هذا الاسلوب من اساليب الدراسة الحقلية أن يشارك الباحث فى الحياة اليومية للناس — من خلال الموقف الحياتية المختلفة وهو يدخل فى حوار مع الناس ويستوضح تفسيرهم للاحداث ، ومن هنا يشعر الناس بأنهم موضع اهتمام الباحث الانثروبولوجى وان تفسيرهم الشخصى لجريات أمورهم يعد موضع تقدير الباحث الحقلى ومحل اهتمامه . وغنى عن القول أن طول الفترة التى يقضيها الدارس الانثروبولوجى فى الميدان يمكن أن تحسم فهمه للكثير من الظواهر بصورة متعمقة (١٢) .

تتضمن هذه الاداة بذل الجهد الاكبر فى ملاحظة الظواهر وتقصى دورها ووظيفتها ومعرفة تفاصيلها مع بذل الجهد الاقل فى توجيه الاسئلة ، وبالرغم من أن المعايشة الكاملة فيها تركيز على عملية التفاعل

والاندماج — فى حد ذاتها — الا أنها تتم عادة بصورة قد تفقد الباحث هويته العلمية ، ومن الامثلة الفريدة على ذلك ما حدث فى القرن الماضى عندما تحول كشنج F. H. Cushing الى واحد من كبـار الكهنة فى قبائل الزونى فى نيومكسيكو وتعهـد بكتم الاسرار ولم يعـد قادرا اذ ذاك على أداء دوره كباحث (أنثروبولوجى) (١٣) .

فان الملاحظة بالمعايشة من جهة أخرى تتضمن التركيز على التفـاعل مع الناس حتى لا تقف الملاحظة الكاملة حائلا بينه وبين الاقتراب فى الظاهر ، (نظرا لعزلته عن المجتمع المحلى موضوع الدراسة الحقلية) كملاحظ فقط ، فالملاحظة بالمعايشة تتضمن **الملاحظة المتعمقـة** للظواهر فى ظل علاقة تفاعلية مستمرة بين الباحث ألحقلى والشخص أو الجماعة موضوع الدراسـة ، وكلما كان الباحث أكثر دقة فى ملاحظاته وأكثر فاعلية فى علاقاته بأفراد المجتمع فى المواقف المختلفة ازداد نجـاحه فى استخدام هذه الاداة .

وينبغى التنويه أن الملاحظ المعايش للظاهرة لا يعطى للناس فرصة للاحسـاس بأنه **غريب عنهم** بل على العكس تماما فالثقـة المتبادلة بينهما ستجعل بوسع الناس ممارسة أدوارهم المعتادة دون أن يتحـول الموقف الدراسى انى صـورة مصطنعة — تكاد تخلو من الواقعية — واذ ذاك فان مطالبة الباحث بأن يحاول الاندماج فى المجتمع الاصلى وينسى هويته العلمية لكى يصبح أحد أعضاء هذا ألمجتمع تصبح قليلة الاهمية .

هناك **قواعد اخـلاقية** ينبغى مراعاتها كالمحافظة على سرية الاسماء ومراكز الافراد الاجتماعية ومواقعهم فى البناء الطبقى والحرص على بعض اسرار الجماعة والمحافظة على الوثائق الخاصة بها والتى نكون قد أطلعنا عليها دون أن ننال الاذن بالافصاح عنها .

وبدون التعاطف والقدرة على احترام مشاعر الغير — مهما كانت درجة الاختلاف بينهم — لا يستقيم استخدام هذه الاداة فى الميـدان ، ويجب أن يتمتع ألباحث الحقلى بقـدرة فائقة على فهم الغمـوض كما أن عليه أن **يتجنب اصدار الاحكام** والنتائج المتسرعة بل ان عليه أن يقترب من نمـاذج السلوك التى قد يجدها غير محببة الى نفسه فى نهـاية ألامر (١٤) .

من بين الادوات التى نستعين بها فى ملاحظتنا بالمشاركة **الصـــور الفوتوغرافية وأفلام الفيديو ، والتسجيل الآلى والكتابى** والاطلاع على الوثائق والمستندات واختيار ((**الاخباريين**)) فضلا عن استخدام الاسـئلة والحوار للحصول على تفسير الناس وتحليلهم لما يغمض علينا فهمـه من أحداث ، واستجلاء العلاقات والروابط بين المواقف التى يتعذر فهم احداها دون ربطه بالمواقف والاحداث الاخرى فى حياة الجماعة أو المجتمع المحلى* .

يشير بيلز وهويجر الى هذه الاداة باعتبارها تتضمن مشاهدة تسـجيل اكبر قدر ممكن من السلوك مع المشاركة فى أكبر عدد من الانشطة تتيحهـا الفرصة للباحث ، ومن هنـا فقد يدعى الشخص الى حفل زفاف أو عيـد دينى وعليـه أن يفطن الى أهميـة هـذه المواقف فى الدراسـة الحقلية وربما لا يستطيع أن يسجل ملاحظات فى هذه المناسبات غير أنه يسجلها بعد أن يخلو الى نفسه واذ ذاك فانه قد يكشف بأنه أغفـل ملاحظة الكثير من الحقائق الهامة التى ينبغى أن يستوضحها بعد ذلك .

على الباحث ان يتجنب الارتباك بسبب مشكلات المشاركة لشخصية فى الطعـام والشراب أو لاضطراره لاتبـاع أنماط السلوك المحلية التى لم يتعودها من قبل كما أن عليـه كذلك أن يؤجل العـديد من الاسئلة التى قد تلح فى طلب الاجابة عليها حتى لا تضيع الفرصة الذهبية للملاحظـة بالنسبة لبض المواقف ، اذن أن الاجابات المباشرة لا تكاد تخلو عادة من التبسيط المخل أو التهويل الشديد أو المغالطة المتعمدة .

هناك عدة محاور أساسية ينبغى أن تأخذ نصيبها من اهتمام الباحث لضمان الاستخدام الموضوعى لهذا المنهج ومنها :

١ — أن يبدأ الباحث دراسته فى اطـار فهمه الواعى الدقيق **للنظـرية الانثروبولوجية** ، فالاطـار النظرى والتصورى هو الذى يقـود الدراسة الحقلية ويوجهها ، ويثريها .

٢ — أن يقوم بتحديد الهدف الاساسى والاهداف الفرعية **والفـروض أو تساؤلات الدراسة** ، والبيانات التى يرغب فى التوصل اليها .

٣ — أن تكون له دراية وافية **بالتراث** المتوفر عن موقع الدراسة وأن يحاول دراسة اللغة وعادات السكان قبل النزول للميدان .

٤ — ان يتولى **الاعداد (الجيـد)** وحشـد كافة الامكانيات والطـاقات التى تستلزمها طبيعة الدراسة الحقلية قبل مقابلة الناس .

٥ — أن يقضى **فترة طويلة فى الميدان** لا تقـل عن عام وقد تصـل الى عدة سنوات كما تطول هذه الفترة بقـدر جهل الانثروبولوجى بالمجتمع المحلى وأتساع المجتمع المدروس وتعقد بنيته وثقافتـه .

٦ — أن يقوم الباحث **بتصنيف وتحليل وتفسير** المـادة التى جمعت للخروج بنتائج واضحة ومفصلة .

واذ ذاك ينبغى ان يحدد الباحث دوره فى المجتمع المدروس فأفراد المجتمع سينظرون اليه كغريب ، وقد تتراوح ردود أفعـالهم تجاه الغرباء بين العـداء والكرم ، وينقـل بيلز وهويجـر عن وأجلى C. wagley أن المجتمع المحلى كان يتعاطف مع الباحث الانثروبولوجى فى احدى القبائل الهنـدية فى الامازون حيث كان الافراد ينظرون اليـه كشـخص جاهل بالمعلوماتالاساسية اللازمة — وأن الواجب يقتضيهم تعليمه ما يعرفونه(١٩) .

الظواهر التى تستخدم الملاحظة بالمعايشة لدراستها :

تعد الملاحظة بالمعايشة منهجا **كليا وشموليا** Holistic Approach للدراسة الحقلية فى الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية Social, Cultural Anthropology وهى تستخدم عادة لدراسة الابعاد الآتية :

أ — **الانساق الاجتماعية** Social Systems وتتضمن هـذه الانسـاق الاساسية والفرعية انماط السلوك الانسانى Behaviour Patterns التى تتضح من خـلال المواقف التى يظهـر فيها الاعتماد المتبـادل Interdependence بين الناس .

ب — **مؤسسات المجتمع المحلى** وهيئاته الرسمية .

جـ — **ثقافة المجتمع** سواء الثقافة المادية Material Culture او غير المادية

التى تشمل المعتقدات Rituals والعادات والاتجاهات والقــانون العــرفى Customary وغيرها .

د — **مشكلات المجتمع** المحلى والانحرافات Deviations ، وانماط الجناح Delinquency ، وعادة ما يجــد الملاحظ المعايش للمجتمع المحلى نفســه فى مواجهـــــة مركبات سلوكيـــة Behavioural Complexes تستوجب دراستها (١٦) .

ومن المعتــاد فى الدراسات الحقليـــة التى تستخدم فيهـــا الملاحظة بالمعايشة كذلك تتبع **التغير فى أنماط السلوك** وديناميات التغير التى تحدث فى الحياة اليومية .

وهناك بعض الملاحظات العامة التى ينبغى أن يهتم بجمعها المــــلاحظ ابان احتكاكه بالمجتمع المحلى Local community موضوع الدراسة ومن بينهـــا :

— **عدد السكان** ، والبيانات الديموجرافية عن المجتمع .

— **الموارد الطبيعية** ونمط النشاط الاقتصادى والحيوانات ، والنباتات وأنواع الطعام التى يألفها الناس .

— **الطرق والمساكن** ونمط المسكن والاثاث المتوفر عادة لدى الطبقــات المختلفة فى المجتمع .

— **الخدمات التعليمية** والصحية والمواصلات الموجودة والتى تربط المجتمع بالمجتمع الاكبر والمناطق المجاورة .

— **التفـــــاعل** وشبكة العلاقات التبادلية
Network of social Relations.

— **المناسبات الاجتماعية** ، والاسرية والدينية .

— **الفــروق بين الطبقات** والشرائح الاجتمــاعية Socio-Economic

Power structure وبناء القوة Stratification
فى المجتمع .

— **شجرة الانساب** والمصطلحات القرابية
Genealogy, Kinship terminology

— **السحر والفولكلور** والاساطير (١٧) .

وعلى الرغم من الاختلافات بين المدخلين الثقافى والبنائى لدراسة الحياة الاجتماعية فان أول ما يسترعى نظر الدارس للانثروبولوجيا الثقافية فى دراسته الحقلكة أنماط التغير الملموس والمظاهر المختلفة للحياة المادية التى تدخل فى اطار الثقافة المادية ، بينما تدخل العلاقات الاجتماعية وشبكة التفاعل داخل الانساق فى صميم اهتمام الانثروبولوجيا الاجتماعية وتحتاج دراستها الى كثير من التحليل والفهم المتعمق ، بينمـا يعيب أبو زيد على رادكليف براون اعتقاده بأن الملاحظة « المباشرة » تدلنا على العلاقات (البنائية) فانه يعتقد ان هذه الملاحظة المباشرة يمكن أن تكشف لنا عن **الانماط الثقافية** فحسب بينما تحتاج العلاقات الاجتماعية الى شىء من التجريد والتعمق الذى يمكن أن يتم فى مرحلة لاحقة (١٨) .

وبعبارة أخرى فان الباحث الانثروبولوجى أحوج ما يكون الى المشاركة والملاحظة بالمعايشة وبخاصة حين يكون مهتما بدراسة الانساق الاجتماعية والتغير الاجتماعى فى المجتمع المحلى .

ومن الواضح ان **صغر حجم المجتمع** — يتيح للباحث الانثروبولوجى استخدام هذه الاداة عن طريق الاتصال المباشر وبالاقامة فى المجتمع ، ومشاركة الناس مناشطهم المختلفة والاقامة فى هذا المجتمع فترة لا تقل عن عامين ، ومن هنا كان المدخل « البنائى » ينفر أشد النفور من الادوات والاساليب التقليدية كاستمارات الاستبيان ، ويتيح هذا المدخل فهم أى نظام فى ضوء علاقته بالبناء الاجتماعى ككل ويذكر ميرفى مميزات هذه الاداة بقوله (١٩) :

«The hall mark of the anthropological method is participant observation, aponderous, term that means only that the resear-

cher lives among the people he is studying takes part in their social life, and watches what is happening, asking question when he does n't understand.»

وليس بخاف أن **الملاحظ المعايش** للناس ينبغى أن تكون له شخصية سوية وأن يكون **غير متعصب** لدينه ، أو جنسه ، أو نوعه فالتعصب يمكن أن يعمى عينيه تمـــاما عن الرؤية الدقيقـــة والتفسير الحقيقى للموقف أو الظاهرة المدروسة .

وليس هناك شك أن الملاحظة بالمعايشة تواجه فى الكثير من الاحيان **بصعوبات وتحديات** كثيرة فالجماعة لا تقبل بسهولة آنضمام الاغراب اليها ومن المعروف أن الكثير من الجماعات المتطرفة سياسيا أو عنصريا تحـــكم بالموت على الشخص عـــادة اذا اكتشفت أنه يمـــكن أن يفشى أسرارها أو ينشرها للعيان .

ب ـــ صحيفة المقـــابلة :

تعد استمارة المقابلة احد **أبرز الادوات البحثية** فى علم الاجتمـــاع والانثروبولوجيا وبخاصة فى الحالات الاتية :

أ ـــ الحالات التى **يتعذر فيها** الحصول على بيـــانات من خلال الملاحظة والملاحظة بالمشاركة كالمواقف الماضية المتعلقة بتاريخ الاسرة والزواج والانجاب أو البيانات الخاصة بأسلوب وميكانزمات الهجرة بالنســـبة للمهاجرين الريفيين للمدن ... الخ .

ب ـــ المواقف التى يستلزم الامر فيها مقابلة **اعدادا كبيرة** من آلاشخاص (٢٠) يشكلون عينة ممثلة للمجتمع المحلى مع الحصول على النسب المئوية والوزن النسبى والدلالة الاحصائية بالنسبة لكل سؤال يوجهه الباحث لافراد العينة وبخاصة فى حالة وجود عينتين يقارن بينهما أو عينـــة واحـــدة تتسم بالثراء الواضح فى خصائصها العمـــرية والنوعيـــة والزواجية والتعليمية والمهنية والطبقية ... الخ . لامكان المقـــارنة بين الظروف الاجتماعية والاستجابات النوعية لكل شريحة .

ولذلك يشيع استخدام هـذه الاداة فى **المسوح الاجتماعية الشاملة** فى الدراسات الانثروبولوجية التى يدرس الباحث فيهـا كل وحدات المجتمع المحلى من خلال المقابلة الشخصية لمعرفة اتجاههم نحو الزعيم أو نحو القادة المحليين او تجاه الصفوة او نظام الحكم أو المستعمر أو المعاملات الاقتصادية وأساليب الضبط الاجتماعى وغيرها .

جـ ـ تتيح المقابلة الشخصية فرصة ذهبية **للتفاعل** بين الباحث والمبحوث وقد يحدث هـذا اللقاء فى منطقة السكن ممـا يتيح الفرصة لملاحظة المستوى الاجتماعى ـ الاقتصادى للمسكن ونوعية الاثاث فضـلا عن لقاء باقى أفراد الاسرة وبخاصة اذا كان موضوع البحث هو النظـام الاسرى والعلاقة بين أعضاء الاسرة الواحدة أو اذا كانت الدراسة عن صراع الاجيال داخل الاسرة ، ومن المعروف أن صياغة الاسئلة ينبغى أن تتمشى مع المستوى التعليمى وتراعى وعى القاعدة العريضة ممن ستطبق عليهم صحيفة المقابلة (٢١) .

ومن الواضح هنا أن الاتجاه السوسيوانثروبولوجى لا يقـر استخدام **الاستبيان البريدى** الذى ينفى العلاقة بين الباحث والمبحوث حيث يكتفى بارسال الصحيفة بالبريد دون أشتراط وجود المقـابلة الشخصية ، كما أن الباحث لا يلجأ عادة الى ترك الاستمارة فى يد المبحوث أو افراد المجتمع المحلى لكى يتولوا استيفائها بمعرفتهم فى غيبة الباحث .

د ـ يستخدم الباحث هذه الاداة اذا كانت الشريحة المراد دراستها منتشرة فى رقعة جغرافية متسعة وهو ما يحدث عادة اذا رغب الباحث فى دراسة قادة المجتمع فى المجـالات المختلفـة سياسية واقتصـادية واجتماعية ... الخ .

هـ ـ تستخدم صحيفة المقابلة فى حالة دراسة بعض الجماعات الهامشية كالباعة الجائلين على سبيل المثال .

وتستخدم هذه الاداة بخاصة فى حـالة انخفـاض المستوى التعليمى لافراد المجتمع المحلى حيث توضع الاسئلة باللغة العـامية التى يتحدثون بها .

و — تتيح صحيفة المقابلة اشتراك مجموعة **مدربة تدريبا عاليا** من الباحثين تحت اشراف الباحث الرئيسى وهو ما يسهل اجراء الدراسة السوسيوانثروبولوجية فى وقت وجيز نسبيا اذا قورنت بالدراسة الانثروبولوجية التقليدية التى يقوم بها الباحث بمفرده ويقضى فى المجتمع موضوع الدراسة عدة سنوات قد تصل الى ٤ سنوات كما فعل مالينوفسكى ويفعل غيره فى علماء الانثروبولوجيا .

ز — تتضمن صحيفة المقابلة عادة أما أسئلة **مقيدة** Closed أو أسئلة محددة Structured كالسؤال عن الحالة آلزواجية مع اضافة متغيرات الاجابة الاتية :

متزوج (   ) أعزب (   ) مطلق ،   )
أرمل (   )

وقد تتضمن الصحيفة أسئلة من النوع المفتوح Open أو غير المحددة un structured بهدف التعمق والتفصيل كالسؤال عن معلوماته الخاصة عن سبب تعاطى الشباب للمخدرات ويستخدم مثل هذا النوع من الاسئلة فى الدرآسات الاستطلاعية آلتى ليس للباحث معرفة كافية باحتمالات الاجابة فيها أو فى الحالات التى تحتاج للاستطراد وللتعمق فى فهم الظاهرة المدروسة (٢٢) .

ح — تتيح الصحيفة المستخدمة من خلال المقابلة الشخصية الفرصة لدراسة الاطار العام للمجتمع أو المظهر آلخارجى للمجتمع المحلى Profile of the community ويتمكن الباحث من خلالها ان يتعرف على الجماعات التى يضمها المجتمع المحلى والشرائح والطبقات والفئات المختلفة والعمليات الاجتماعية Processes التى تحدث بينها من تعاون وتنافس وصراع فهو يقوم بتوجيه الاسئلة نفسها بسؤال كل شخص على حدة دون أن يتأثر بآرآء غيره من الافرآد ومن هنا يذكر ميرفى Murphy (٢٣) أن **الانثروبولوجيين الثقافيين** يخصصون وقتا طويلا لهذه الاداة حيث يجمعون قدرا متسعا من المعلومات A broad range of data والاداة لذلك تعد متمشية مع المجتمع الحديث .

ويؤكد فكتور بارنو Bar Nouw ٢) أن صحيفة المقابلة تعد أداة مكملة

للملاحظة فى الدراسة الانثولوجية فهى تتضمن ايضاحا لما يراه الباحث وهى تتضمن الملاحظة أيضا ، فالباحث لا يكتب ما يذكـره المبحوث فحسب بل يلاحظ كيف يتصرف المبحـوث ويتحدث ويرقب ايماءاته ومصمصة شفاهه ووقفاته وتلعثمه فى الاجابة ويدرس عن كثب أثاث مسكنه ومقتنياته ، فصحيفة المقابلة تزيد عادة من معلوماتنا عن اعضـاء المجتمع المدروس فالنـاس قد تفضل الافصاح عن بياناتها بحرية للاغراب عنها بالنسبة للاصدقاء .

ويذكر بارنو أن علينا أن نهتم باعداد الاستبيان اعدادا جيدا لكى نركز على **افعال بعينها** او على حد تعبيره :

«A previously prepared schedule focuses the observer's attention on certain selected acts»..

ويستشهد بارنو على ذلك بأن أوسكار لويس وجـد النـاس فى نيبوزتلان **اقرب للباحثين منها بالنسبة لبعضهم البعض :**

O'Lewis, for example found that the people of Tepoztlan were distant to one another but willing to open up to him and his coworkers.

وقد استخدمت هـذه الاداة بكفاءة فى الابحاث الخاصة بالثقـافة والشخصية كالتى قام بها منتيرن L. Minturn ولامبرت Lembert عن الام فى ست ثقافات mothers of six cultures حيث قاما بسؤال الام عما تفعله فى حالة بكاء الطفل وقـد قام اريك فروم Fromm وميشيل ماكـوبى M. Maccobu بدراسة الخصائص الاجتماعية لاحد المجتمعات المحلية الريفية المكسيكية .

جـ ـ دليـل دراسة الحـــالة : Case study Guide

تعد دراسة الحالة أداة رئيسية للتعمق فى فهم الوحـــدة المدروسة سواء كانت الحالة فردا أو جماعة أو مؤسسة أو مجتمعا محليا Community وذلك بقصد :

ا ـ **الدراسة الشمولية** Molistic للوحدة المدروسة وهذا المبدأ يعد من أهم المبـــادىء التى بحرص عالم الانثروبولوجيا على اتباعهـــا حيث أبرزت النظرية الجشطالتية Gestalt اهميـــة التعرف على الموقف الكلى للوحدة المدروسة والنظر للجزئيات فى ضوء علاقتها بالكل فنحن ندرس على سبيل المثال بناء القوة فى المجتمع power structure فى ضوء علاقة هذا البناء بباقى شرائح المجتمع وطبقاته الاجتماعية .

ب ـ **الدراسة المتعمقة** Indepth للظاهرة أو النظام الذى ندرسه وهى خاصية تميز دليل دراسة الحالة عن استمارة الاستبيان فاذا درسنا الاسرة فاننا ندرس تفاصيل العـــلاقة بين الزوج والزوجة (جسديا ونفسيا واجتماعيا واقتصاديا) ودلالاتها ثم عـــلاقة الزوج بالابنـــاء وعلاقة الزوجة بالاولاد ، ثم علاقة الذكور بعضهم بالبعض الاخـــر وعلاقة الاناث بعضهم ببعض ، ثم علاقة الابناء الذكور بالاناث الخ . فهى أداة لا تقنع بالدراسة السطحية للعلاقات الاجتماعية بل تتعمق فى فهم شبكة العلاقات الاجتماعية وتهتم بتحليلها .

جـ ـ استخدمت دراسة الحالة بكفاءة عالية لدراسة المجتمع المحلى كوحدة كلية والواقع أن معظم دراسات المجتمع المحلى قـــد أعتبرت هـــذا المجتمع سواء كان حضريا أم ريفيا أم منطقة صحراوية بمثابة « **حالة** » يمكن من خلالها تفسير اى ظواهر أجتماعية داخل أسوارها فالبناء الاجتماعى والثقافة يعدان بمثـــابة المتغيرات المســـتقلة التى تصلح لتفسير كافة النظم والظواهر الاجتماعية فى الداخل دون اغفال للعلاقة التفاعلية بين هذه الوحدة الجزئية المدروسة والمجتمع الاكبر ، وتعد دراسة هربرت جانز H. Gans (٢٥) بمثابة دراسة حالة لاحد الاحياء المتخلفة بمدينة بوسطن ويسمى The west End يضم الامريكان من

أصل ايطالى وقد استخدم جانز فضلا عن الملاحظة بالمعايشة المقابلات المتعمقة وهو يذكر فى هدف دراسته :

«My main research interests were two : to study a slum and to study the way of life of a low income population I want to know what a slum walike and now it felt to live in one .. I have tried to describe the way of life of lower people as they might describe it themselves..

كما يوضح بالنسبة لهذه الاداة التى استخدمها وهى صحف المقابلة التى تحوى بدورها أسئلة متعمقة :

«This study based primarily on intensive interviews».

د — تهدف دراسة الحالة أيضا الى توضيح **التاريخ** التفصيلى للوحدة المدروسة اذ ان القصد من القاء الضوء على هذه الوحدة محاولة تتبع جذورها التاريخية **بغية فهم الحاضر** كما تهدف الى الغوص فى حياة الوحدة موضوع الدراسة ، فقد ندرس حالة طه حسين وتاريخ حياته لنصل الى فهم كامل لعصره أو للازهر أو للقرية المصرية الخ . ومن أشهر الدراسات التى استخدمت هذه الادارة دراسة توماس وزنانيكى عن « الفلاح البولندى فى أوربا وأمريكا » كما درس عاطف غيث قرية « القيطون » فى مصر مستخدما هذه الاداة نفسها (٢٦) .

ويعد دليل دراسة الحالة بمثابة قائمة تضم اما مجموعة أسئلة مفتوحة سبق اعدادها بدقة أو مجموعة الموضوعات الاساسية والفرعية التى تساعد المبحوث على ترتيب استجابته وافكاره وتعطى الفرصة لمرونة أكبر حيث يملك الشخص القدرة على الاستطراد فى الحديث فى ضوء العلاقة التفاعلية الوثيقة التى تربط الباحث بالوحدة المدروسة وتتأكد هذه العلاقة فى ضوء طبيعة دراسة الحالة نفسها فالدليل قد يستلزم القيام بمقابلات عديدة تستحوذ **القضايا الاساسية والفرعية** على عدة جلسات تتوثق من خلالها العلاقة بين الباحث والمبحوث وتزداد المعرفة المستقصاة حتى يمكن استيفاء البنود المتنوعة فى دليل دراسة الحالة وعلى سبيل المثال فان الباحث الانثروبولوجى قد يقوم بدراسة ظاهرة السحر فى المجتمع فيتولى دراسة حالة السحرة ويعتبر كل ساحر هنا بمثابة حالة Case يمكن دراستها

ومعرفة التفاصيل المتصلة بتنشئة الاجتماعية وظروفه الاسرية وأحواله التعليمية والمهنية والزواجية وطبقته الاجتماعية وكيفية ممارسته السحر وخصائص الجمهور الذى يتردد عليه ونوعية المشكلات — لمن يأتون اليه بها لحلها — والشعائر الطقوسية التى يؤديها ... الخ .

وقد يدرس حالة الاشخاص الذين قبض عليهم لارتكابهم جريمة الاغتصاب لمعرفة الاسباب التفصيلية لشيوع هذه الجريمة رغم أن عقوبتها تصل للاعدام .

وما من شك أن الباحث يستطيع من خلال هذه الاداة أن يدرس الظواهر الثقافية كالمولد وجلسة الحشيش والزار وحلقات الذكر وغيرها حيث يعد المولد وجلسة الحشيش والزار وغيرها بمثابة حالة يمكن دراستها دراسة متعمقة وشمولية أيضا . كما يمكن استخدامها بكفاءة عالية اذا أردنا أن ندرس ظاهرة كالانتحار من خلال دراسة حالة أولئك الذين انقذوا فى اللحظات الاخيرة قبل أن يغادروا الحياة .

« المصـــــادر »

١ — محمود عودة — تاريخ علم الاجتماع — بيروت — بدون .

٢ — سمير نعيم — النظرية فى علم الاجتماع — القــاهره — ١٩٧٧ — الفصل الاول والثانى .

٣ — ا. ب. دوزير مفهوما البدائية والوطنيـــة فى الانثروبولوجيا (فى) اشلى مانتاغيو (محرر) البدائية — ترجمة محمد عصفور — عالم المعرفة — مايو ١٩٨٢ .

٤ — محمد عبده محجوب — مقدمة فى الاتجاه السوسيوانثروبولوجى — الفصل الرابع .

(*) أنظر الدراسة التى اشترك فيها الباحث ضــمن فريق البحث الانثروبولوجى المصرى — الهولندى فى الدراسة التى اشرف عليها المركز القومى للبحوث الاجتمــاعية عن « امكانات التنمية بين ذوى المستوى المعيشى المنخفض » المركـــز القومى للبحوث الاجتمــاعية والجنائية — ١٩٨٢ و ١٩٨٣ .

٥ — محمد عبده محجوب — المصـــدر السابق — مواضع عديدة وأيضا محمد عاطف غيث — التغير الاجتماعى والتخطيط — الاسكندرية — ١٩٦٢ .

٦ — ثروت اسحق — اثر التصنيع والتحضر على البنــاء الاجتماعى — دكتوراه غير منشورة — جامعة عير شمس — ١٩٨٠ — الفصــل السادس .

(*) يتيح ذلك فرصة لملاحظة الحياة الاجتماعية فى كل فصول السنة وتسجيلها بكل دقائقها .

٧ — أ. برتشارد — الانثروبولوجيا الاجتماعية — الفصل الرابع .

٨ — ايفانز برتشارد — الانثروبولوجيا الاجتماعية — ترجمة احمد أبو زيد — القاهرة — ١٩٧٥ — المقدمة .

٩ — على ليلة — البنائية الوظيفية — دار المعارف — القاهرة — ١٩٨٢ — الفصل الرابع .

١٠— ايفانز برتشارد — المصدر السابق — الفصل الرابع .

١١— على ليلة — المصدر السابق — الفصل الثالث .

١٢— ثروت أسحق — الملاحظة بالمشاركة — ورقة مقدمة للندوة المنهجيه التى عقدت بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية — يناير ١٩٨٣ .

١٣— بيلز وهويجر — مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة — جـ ١ ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى — القاهرة ١٩٧٦ — الفصل الخامس.

١٤— المصدر نفسه — المكان نفسه .

١٥— المصدر نفسه — المكان نفسه .

١٦— نرفانا أحمد — طريقة المعايشة — ورقة غير منشورة — مقدمة للمركز القومى للبحوث الاجتماعية — وحدة الاسرة — ١٩٨٤ .

١٧— البناء الاجتماعى — جـ ١ — ١٩٦٥ — الفصل الخامس .

١٨— المصدر نفسه — المكان نفسه .

١٩— R. F. Murphy, Cultural and Social Anthropology, New Jersey. 1986, p. 222.

٢٠— Ibid p. 225.

٢١— عبد الباسط محمد حسن — أصول البحث الاجتماعى — القاهرة — ١٩٦٣ — الفصل السابع عشر .

٢٢— سمير نعيم — المنهج العلمى فى البحوث الاجتماعية — القـاهرة — ١٩٨٨ — الفصل الثامن .

٢٣— Op cit. pp. 225, 226.

٢٤— Culture and personality U.S.A. 1973. pp. 261 : 277.

٢٥ — The Urban villagers. U.S.A. 1965, preface.

٢٦— هناك دراسة أخرى خصبة المحتوى تناولت دراسة المجتمع المحلى كحالة ، انظر :

R. Redfield, Avillage That chose progress Chan Kom Revisited. Chicago. 1964.

« النادى وميكانزمات الصراع فى مجتمع محلى »

دراسه سوسيوانثروبولوجيــة

مقـــــدمة :

ينهض هذا البحث على دراسة حقلية لاحد أطراف مدينة القــاهرة حيث تبعد المنطقة عن وسط المدينة بنحو ٢٠ كم ويدل تاريخ المجتمع المحلى عن انه كان بمثابة منطقة زراعية حتى قيــام ثورة ١٩٥٢ حيث اســتهدف المجتمع للتغير الاجتماعى — تحت وطأة التصنيع والتحضر الذى امتد الى الى الاجزاء المجاورة له فى منطقة حلوان الصناعية التى استقبلت عشرات المؤسسات الصناعية اليها — واضطردت مدلات الهجرة الداخلية المتجهــة للمجتمع المحلى خلال العقدين الاخيرين بناء على ذلك بصورة ملحوظة .

وقد تأسس النادى منذ حوالى ١٠ سنوات بعد صراع طويل حيــث تحمس الشباب لفكرة تأسيسه على ارض « حكر » مملوكة للمجتمع المحلى بينما تحمس كبار السن — ومن اقتربت اعمارهم من سن الشيخوخة — لتحويل المبنى الى مؤسسة تبيع السلع الاستهلاكية أو تؤدى خدمات معيشية اخرى غير متوفرة فى المجتمع المحلى وبانتصار الشباب احس كبار السن بالهزيمة والاحباط الشديد نتيجة لذلك ومن ثم اتهم الشباب بعدم اخــــذ الحياة مأخذ الجد بينما دافع الشباب عن رايهم بأن النادى سيصبح المتنفس الوحيد لانشطتهم والبديل عن ارتياد المقاهى والتى يقوم البوليس بعمــــل « كبسات » عليها فى أحيان كثيرة للتاكد من عدم ممارسة العاب القمــــار وتعاطى المخدرات وبخاصة بالنسبة للاغراب عن المنطقة وسائقى عربات الاجرة والسيارات الكبيرة المــارة بالمنطقة .

وقد اجريت الدراسة الحقلية للنادى فى الفترة الممتدة من مطــلع سنة ١٩٨١ حتى مطلع سنة ١٩٨٢ وتم الاستعانة بالملاحظة بالمعايشة لمدة

لا تقل عن ٤ أيام أسبوعيا فضلا عن المقابلات الجماعية وقد قام بالملاحظة بالمشاركة واحد الباحثين الهولنديين .

وتفصح المشاهدات الميدانية عن **الفجوة بين النادى والمجتمع المحلى** أو على حد تعبير احدى الحالات « سبب فشل النادى فى تكوين علاقة مع المنطقة » (المجتمع المحلى) ترجع فى نظرى لنقص وعى الناس وكمان (علشان) علاقة اعضاء مجلس ادارة النادى بتقوم على النفاق وناس بتحاول تظهر بمظهر القوة وانهم اقوى من — الناس — التانيين » وقد ادى هذا الى **تجميد بعض الانشطة** وبخاصة الانشطة التى تتيح الفرصة للحوار ومناقشة مشاكل الشباب حين تذكر حالة أخرى « مفروض النادى يفتح أبوابه نهارا وليلا ولكن لا يوجد مسئول وممكن أن تهاجم بأى اتهام داخل النادى ومافيش اهتمام بمسابقات الشطرنج مثلا وعلشان كده فيه شباب بيفضل القهوة » (الجلوس على المقهى) . وتستكمل حالة اخرى هذا بقولها « النادى الوقت منفصل عن المنطقة « المجتمع المحلى » الشباب نفسهم (أنفسهم) بيروحوا النادى علشان البنج مثلا لكن مافيش حاجة مشجعة ، رئيس مجلس الادارة بطبيعته راجل مش رياضى ... وبيختلس ايرادات النادى » . ومفهوم النادى فى حد ذاته مصدر نقد من الشباب أنفسهم » أو على حد قول أحدهم « النادى مفهومه عند الناس مفهوم خاطىء ينصب أساسا على لعب كرة القدم بالذات وده مفهوم خاطىء ويرجع لارتفاع معدل الامية على أساس (تفكيرهم) ان النادى مكان اجتماع الشباب الفاضى » (الذى لا يعمل) .

أما الاهداف غير الرياضية والتثقيفية فانها صوحبت بدخول بعض الاشخاص ممن لهم اتجاهات سياسية وميول دينية متطرفة ، وازدادت حدة الصراعات داخل « اللجنة الثقافية » مما أدى الى الغاء هذه اللجنة تماما منعا لحدوث المشكلات واحتمال انعكاسها على النادى مما قد يهدد باغلاقه.

والحقيقة ان النادى **يعكس بصورة واضحة اوجه الحياة الاجتماعية** فى المنطقة ، اذ أن المجتمع المحلى يضم اربع عصبيات كبيرة :

(عميره ، شادى ، الصاوى ، خزام) .

فضلا عن عائلات (خالد ولطيف) ويحاول التجميع بينهما حتى يتمكن من تحقيق اهدافه فى ظل تمثيل عصبيات المجتمع المحلى والعائلات ويعكس

بدوره أوجه الخلاف بينهما اما الاعداد الكبيرة المهاجرة للمنطقة طلبا للسكن بجوار محال عملهم ممن يطلق عليهم « الفرط » (*) فلا لزوم لتمثيلهم اذ أنهم لا يشكلون مصدر الثقل فى التركيب السكانى والتنظيم الاجتماعى بالمنطقة كما أن الصراعات التى تثور بين العصبيات والعائلات تنعكس بدورها على النادى فقد حدثت بعض المشاكل بين هذه العصبيات فى نهاية السبعينيات (**) ، وأسفرت عن تنحية رئيس مجلس ادارة النادى وأمين الحزب الحاكم (وكانوا ينتمون لاحد هذه العصبيات) وتجريدهم من بعض اختصاصاتهم والتشهير بهم .

والنادى يضم بين أعضاء مجلس ادارته بعض أصحاب المؤهلات الجامعية كالمحامى والمهندس بينما يضم فى عضويته الطلاب والعمال وغيرهم ، وغير خاف أن العصبية هى قطب الحياة الاجتماعية فى هذا المجتمع التقليدى وفى فلكها تتزايد الصراعات التى تهدف لاستحواذ كل عصبية على بناء القوة داخل المجتمع بينما تتعدد الميول السياسية والدينية داخل بنية هذه العصبيات نفسها ، ويعبر أحد الاشخاص عن ذلك بالقول « عصبية (عادى) يميلوا لبعض أكثر من النادى » وبعض « شباب عصبية (الصاوى) يرفضون العضوية علشان المشاكل والمناقشات » ، وبين عصبية (شادى) ورئيس مجلس ادارة النادى ضغائن لا تخفى على أحد .. فى انتخابات المجلس المحلى الاخيرة هو خانهم وعصبية (الصاوى) كمان خانوه ... الخ . وقد افصحت الدراسة الحقلية عن ان عصبية (عميرة) كعصبية كانوا يعارضون أساسا تأسيس النادى . أما (الصاوى) فكانوا يرغبون فى وضع اليد على مساحة محدودة من الارض ملاصقة للنادى — خلت بنقل أحد الاكشاك المخصصة لتوزيع السلع الاستهلاكية منها — وضمه للمقهى المواجه للنادى والتى يملكها أحدهم وعارض الشباب هذا واستعانوا بالجهات المسئولة، أما الامر الملفت للنظر فان عصبية (الصاوى) لجأت الى أحد الوزراء من البلديات لتحقيق رغبتهم من جهة كما أن الوكيل الثانى للنادى (وهو شقيق صاحب المقهى) قد حاول من جهة أخرى الوقوف مع عصبيته لحرمان النادى من هذه الارض وضمها لشقيقه طمعا فى فوز العصبية على حساب النادى .

(*) الفرط هم الافراد الذين نزحوا كأفراد أو مع أسرهم الزواجية لا فى ظل جماعات أو عصبيات .

(**) قبيل اجراء الدراسة الحقلية .

وقد فشل رئيس مجلس ادارة النادى فى المحافظة على علاقات ودية حميمة بينه وبين العصبيات مما **عاق النادى عن تحقيق الكثير من أهـــدافه** نتيجة للصراعات التى ثارت بينه وبين الاعضاء الذين ينتمون لهذه العصبيات والعائلات .

اما رد الفعل الناتج عن هذا الصراع والتى لحقت برئيس مجـــلس الادارة فجعلته يخشى من هذه العائلات والعصبيات مما جعل الحقبة الاخيرة توصف من جانب الشبان بأن « رئيس مجلس الادآرة مش حازم وبيراعى العائلات نتيجة خوفه الشديد من هذه العائلات لان العند بيولد الكفر » . وانعكس ذلك على نظام التدريب . وعلى حد تعبير احد الحالات « تحس اننا عيلة واحدة علشان القرابة والجيرة وده مش كويس . احنا فى حاجة للجدية فى التدريب بتاعنا » . ومن هنا أصبحت القرارات الصـــــادرة من مجلس ادارة النادى غير معبرة عن مصلحة المجموع بل معبرة عن الخوف الشديد من اغضاب رؤساء العصبيات والعائلات فى المجتمع المحلى وتعبر بدورها عن المصلحة الذاتية لافراد اكثر منها مصلحة القاعدة المتسعة من شباب النادى فعلى حد قول أحد الشباب « رئيس مجلس الادارة يسيطر على قرارات النادى » بينما عبر غيره عن أن هذه الهدنة لم تحقق الهدف الذاتى المرجو منها ، فقد فشل رئيس مجلس ادارة النادى فى المحـــافظة على علاقات ودية حميمة بينه وبين العصبيات الموجودة مما على النادى عن تحقيق الكثير من أهـــدافه نتيجة للصراعات التى ثارت بينـــه وبين بعض الاعضاء الذين ينتمون لهذه العائلات ، وقد حدث حين اتخذ المجلس قرارا بفصل احد آلاعضاء أن قام هذا العضو بتقديم عشرات الشكاوى الكيـــدية التى اضير بسببها رئيس مجلس الادارة — وبعض أصحابه — ممن كـــانوا يمثلون بناء القوة فى هذا المجتمع المحلى — ماديا وأدبيا .

وهكذا **لم يقوى النادى على مجاراة التحول الاجتماعى** الذى تعرض له المجتمع المحلى فى تحوله من منطقة زراعية الى منطقة متاخمة لعشرات من المؤسسات الصناعية والـــذى ادى الى جذب عشرات الاسر التى وفدت للمجتمع المحلى طمعا فى الحصول على مساكن قريبة من محال العمل فظل التنظيم داخل النـــادى يتسم بالتقليـــدية ويعكس اصـــداء **الصراعات بين عصبيات المجتمع** التى كانت مستقرة به قبل أن تلحقه آثار التصنيع والتحضر أما رؤساء العصبيات أنفسهم فانهم يقفون بالمرصاد ضد مشاريع النادى حيث يعبر عن الكراهية احد اعضاء النادى بقوله « موقف الناس الكبار هنـــا

يكرهوا النادى كره العمى (كراهية عمياء) مخ الناس الكبار ان النـــادى معناه كورة وبس يعنى فساد ... علشان كده كل الببوت هنا متضايقين من النادى » .

أما رئيس النادى فينسب هذا الصراع برمته الى الظروف والملابسات المصاحبة لتأسيس النادى فقد حاولت الجهات السياسية (ممثلة فى الاتحاد الاشتراكى) والادارة الحكومية (ممثلة فى رئاسة الحى التابعة له المنطقة) والجهات آلاقتصادية (ممثلة فى مؤسسة الاهرام للجمعيات التعـــاونية الاستهلاكية) الاستيلاء على المبنى « لكن الشباب وقفوا معانا وكبار البلد قالوا بقى مبنى زى ده يأخذوه يلعبوا فيه العيـــال ... » . والامر الملفت للنظر ان النادى لا يملك حتى الان الارض وبالتالى لا يملك المبنى آلخـــاص به فالارض التى شيد عليها آلنادى وملعب الكرة شأنها شأن معظم أراضى المنطقة « أرض حكر » وتعد من الناحية الرسمية تعديا على أملاك الدولة ولم يحسم أمرها حتى الان وتفصح الدراسة الحقلية عن أن النادى يستثير صراعا يمتد بدوره داخل كل أسرة فالاسر التقليدية فى المنطقه والتى تنتمى للطبقة العاملة الفقيرة تعتبر النادى اضاعة للجهد وآلوقت الذى ينبغى أن يخصص بجملته للعمل وكسب المال والتحصيل الدراسى . والنادى هنـــا يمثل مؤسسة شبابية يلفظها المجتمع المحلى اذ أنها من وجهة نظره تتناسى المشكلات المحلية المرتبطة بالحياة اليومية رغم أن آلنادى يشجع على عقد اللقاءات بين كبار رؤساء آلعصبيات والقيادات السياسية والتنفيذية لمناقشة المشاكل الملحـــة للمجتمع المحلى أو عمل ندوات فى المناســبات الدينيـــة والاجتماعية غير ان هذه اللقاءأت تحدث لماما .

وينعكس موقف المجتمع من النادى فى **اهمـــاله** المتنـــاهى للمؤسسة ذاتها وللعادات غير آلمستحبة والتى تتصل بعدم احترام الناس للنـــــادى فالاسرة فى المجتمع المحلى ترى — من وجهة نظرها — أن النادى لا يساعدها فى الحصول على تسهيلات معيشية وهكذا يتعرض المبنى من الخارج وملعب الكرة لالقاء القاذورات والقاء القمامة والحجارة وغيرها من النفايات الامر الذى يلزم الشباب بتنظيف آلملعب والمساحة المحيطة بالمبنى يوميا هـــذا فضلا عن المعاكسات التى يتعرض لها أعضاء فريق النادى من غير آلاعضاء ممن يريدون أحيانا فرض سيطرتهم على هذه الفرق الرياضية التى تشارك فى النشاط لا سيما فرق الاشتال والاحداث .

أما المساجد والجمعية الشرعية وغيرها من المؤسسات الدينية فقـــد

أفصحت عن أن النادى يمثل اللهو والانغماس فى الامور الدنيوية وان هذا الوقت المستغرق فى الرياضة يمكن استغلاله فى النشاط الدينى وحفـــــظ القرآن والدعوة الدينية .

أما المقاهى فى المنطقة فيعتقد أصحابها أن لا لزوم للنادى فالمقهى تقوم بوظيفتها خير قيام لجذب الذكور مع توفر التليفزيون والالعاب البسـيطة والمرطبات وغيرها من المشروبات داخل المقهى نهارا وليلا . ولا ينتظم مجلس ادارة النادى فى الحضور للنادى يوميا بينما يقل تردد الاعضـــاء فى موسم الشتاء نظرا لانشغال الطلاب فى الدراسة واستذكار دروسهم .

ولا جدال أن النادى بتركيب مجلس ادارته الحالى منذ تأسيسه سنة ١٩٧٣ قد **فشـــل** فى جذب الصفوة المتعلمة تعليما عاليا والشخصيات آلتى يمكنها أن تخدم المنطقة خدمة مخططة .

غير أن النادى فى نهاية الامر هو نادى **للذكـــور فقط** وقــد افصحت المقابلات التى تمت مع اناث عن امتعاضهم لموقع المجتمـــع المحلى وموقف الشباب الذكور منهم وقد طالبوا بن يفتح النادى أبوابه لهم فترة الصباح كمشغل للفتيات وكدار حضانة للصغار من أبناء العاملات فى المنطقة وهكذا يعكس الصراع فى النادى اصداء الصراع فى منطقة تقليدية تعرضت لاثار التصنيع والتحضر وبدأ معظم الاشخاص ينزحون للمجتمع المحلى ويتجهون للعمل فى المؤسسات غير أن **التحكيم القبلى لا يزال أهم وسائل الضـــبط الاجتماعى** فى المنطقة .

ومازال النادى يعكس اصداء الصراع بين العصبيات من جهة واصداء صراع المطالب الحياتية الملحة لعشرات الاسر التى تنتمى للطبقة الدنيـــا الفقيرة والتطلعات المشوبة بالقلق لشـــباب المنطقة (الذى يشـــعر بأن من حقه أن يشبع حاجته للترفيه كحاجة ملحة تتصل بالمرحلة العمرية التى يحياها ليحيا حياته دون تطرف أو جموح) من جهة أخرى كما أن الصراع داخل النادى يعكس بدوره **صراع أبنية القوة فى المجتمع المحلى ويجســد اختلاف الرؤى الاجتماعية والسياسية فى مجتمع الاطراف** موضوع الدراسة سواء رؤية المؤسسة الدينيه أو رؤية المؤسسات الترفيهية القائمة كالمقهى وغيرها أو صوت المصالح الذاتية للصفوة التى تقود العمل الاجتماعى داخل المؤسسة نفسها .

ويعبر النادى فى نهاية المطاف عن مجتمع نوعى ينفرد فيه الذكـــــور بالعمل واشباع احتياجاتهم الاجتماعية . دون الاناث حيث يحجم دور الانثى تماما فى المجتمع المحلى .

غير أن النادى قد **فشل فى نهاية المطاف فى قيادة العمل الاجتمـــاعى** فى منطقة تقليدية تعرضت لاثار التصنيع والتحضر فى أحـــد أحياء المدينـــة المتروبوليتانية بينما استغرقته النظرة الرياضية (الضيقة) دون أن يهتم بالنظرة (المتسعة) التى تهتم بالاشباع الجسدى والنفسى والفعلى للشباب من سكان المنطقة ، كما فشل فى أن يعكس الخصائص الحضرية على هذا المجتمع التقليدى ليسهل ربطه اجتماعيا وثقافيا مع العاصمة الام التى تضمه وهـــذه الدراسة تعبر من وجهـــة نظـــرنا عن كيفيـــة اســـتخدام المنهج السوسيوانثروبولوجى فى الدراسة الحقلية التى شارك فيها الباحث وأحد الباحثين الاجانب .

الفصل العاشر

الانثروبولوجيا الراديكالية

اولا ــ الماركسية والانثروبولوجيا :

يرى تيماشيف N. S. Timasheff أن ماركس قد اسهم فى ابراز اهمية النظام الاقتصادى كمحدد لبناء المجتمع وتطوره اذ أن تنظيم الانتاج يشكل التنظيم السياسى والقانونى والدينى والعلمى والاخلاقى للمجتمع ، وأنه قد اهتم كذلك بميكانزمات التغيير الاجتماعى لنسق الانتاج الاقتصادى والطبقى فى المجتمع الانسانى (١) وكما يذكر عنه كوزر .

Marx's focus on the process of social change it forms all his writings ets ...

فالناس يطورون قواهم الانتاجية من خلال الكفاح المشترك والصراع مع الطبيعة حيث تحدد هذه القوى ظروف الانتاج أى بناء الاشكال الاجتماعية وديناميتها ، وفضل الماركسية هنا أنها لم تحاول الفصل بين العوامل المادية والظروف الفكرية خلال العملية الانتاجية كما أوضحت كذلك أن الثراء الفكرى الذى يحققه الفرد يتوقف على مدى ثراء العلاقات الاجتماعية الفعلية ولذا تجنب ماركس تصوير المجتمع ــ بالنسبة للافراد ــ كفكرة مجردة وربما يرجع الفضل لانجلز Engels كذلك فى ترويج أفكار ماركس الاجتماعية .

وقد تأثر البعض بكتابات ماركس ومن بين هؤلاء كارل فولجراف الالمانى Vollgraf (١٧٩٢ ــ ١٨٦٣) الذى صدر له كتاب بعنوان « محاولة أولية للدفاع العلمى عن الاثنولوجيا من خلال الانثروبولوجيا » .

وكذلك كوفاليفسكى Kovalevsky الروسى حتى ان الاثنوجرافيا فى روسيا قد ظلت لفترة طويلة نسبيا خاضعة لمنهج كوفاليفسكى ألقائم على استخدام البيانات الاثنوجرافية فى الدراسات التاريخية والسوسيولوجية للتشريعات الروسية مع ألتركيز على العناصر المادية فى ثقافة الشعوب المختلفة .

كما تأثر ته بوجيسيك Bogisic اليوغوسلافى الذى تتبع النظام الابوى فى آلمنطقة السلافية الجنوبية ويمكن ان نذكر أيضا أولييج مانديك الذى اهتم بالاثنوجرافيا وتساى يان بى Tsai yuan pei الذى كان يشرف على قسم الاثنولوجيا التابع لكلية العلوم الاجتماعية بالصين ، وقد اهتم هذا العالم بالدراسات الحقلية مما كان له أكبر الاثر على زملائه وطلابه (٣) .

والواقع أن الرؤية الماركسية للواقع آلاجتماعى تتضمن بعض الافتراضات الاساسية عن :

ا ــ الافراد والانساق الاجتماعية .

ب ــ النظم الاجتماعية المسيطرة .

جـ ــ نظام الانتاج والطبقات الاجتماعية .

وترى آلماركسية أن **الطبيعة الانسانية هى اساسا طبيعة جيدة** فالناس ليسوا أشرارا بطبيعتهم (وهى المقولة الاساسية فى علم الانسان بصفة عامة والانثروبولوجيا الراديكالية بصفة خاصة) .

فالعيوب الاجتماعية كلها ترجع للنظام الاجتماعى الذى توجهه الطبقة المستغلة فيظهر الفقر والبؤس والمشاكل الاجتماعية آلتى ينبغى ألبحث عن حلول لها ليس فى الافراد أنفسهم بل فى النظام الاجتماعى القائم لا سيما من خلال ازاحة تلك الشريحة التى تعمل على السيطرة على عملية التبادل الاقتصادى بقصد ملكية وسائل الانتاج وللحصول على ألقوة آلاجتماعية . ولنزيد من احتمالات الصراع الاجتماعى بين الجماعات المتعارضة المصالح فى الحياة الاجتماعية (٤) . ويعتقد البعض أن من أبرز المفاهيم التى تأثر بها

علمـــاء الانثروبولوجيا ـــ كانعكاس للماركســـية ـــ مفهـــوم ماركس عن المجتمعات البدائية حيث تتحدد طبيعة آلانتاج ، اشكال آستيعاب الثقـــافة والظروف والاوضاع الاجتماعية فى مرحلة تاريخية بعينها لهذا المجتمع وكذلك رؤيته للتشكيلة الاجتماعية أو بمعنى آخر نظريته للتطور الاجتماعى حيـــث تتشكل العلاقات الانتاجية بأسلوب الانتاج الذى يعبر عن مرحلة تاريخيـــة بعينها يعد المجتمع المشاعى البدائى **أول التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية** التى ظهرت فى الوجود (٥) .

وقد ظهر فى وقتلاحق فى الادبيات المعاصرة ما يعرف **بالماركسية الجديدة** Neomarxism ومن اقطابها ستانلى دايموند Diamond الذى اصـــدر دورية بعنوان « الانثروبولوجيا الديالكتية Dialectical Anthropology ويرى دايموند فى أعمال ماركس سواء ما كان واضـــحا أو ضمنيا ـــ رؤية صالحة للتحليل الاجتماعى ومصدراً للفكر الانثروبولوجى الثورى وهـــكذا يناقش الانثروبولوجيون الماركسيون غالبا قضـــايا وموضوعات تتصـــل باصلاح الاوضاع فى المجتمعات الغربية من خلال المنظور الخاص بالمجتمعات البداية (٦) .

ثانيا ـــ الاتجاهات الراديكالية والانثروبولوجيا :

اتجهت بعض التيارات الفكرية فى الغرب الى المناداةباجماع احداث تغير اجتمـــاعى متسع Massive social change فالمجتمع والعـــلوم الانسانية بحاجة الى **الايديولوجيا** Ideology ، وكما يذكـــر لازارسفيلد Lazars وسويل Sewell وويلنسكى Wilensky (٧) .

«They need the fig ideas that move men to act and introduce these social changes etc».

وهكذا بدأ الاهتمام بقضايا خاصة بالتغير فى النسق الاجتماعى والبناء الاجتماعى والتى من ابرزها تغير **ملكية وسائل الانتاج**
«Change in the ownership of the mean of production».

وقد بدا رايت ميلز Mills وغيره من العلماء يفتحون باب الحـــوار ويثيرون العديد من القضايا والتساؤلات التى لم يك أحد يفكر فى اثارتهـــا

بهذا الوضوح والصراحة فى العرض أو التنــاول من قبــل وبدأ العلماء ينسحبون عن الاهتمام بالاعمال اليوتوبية والمناقشات السوفسطائية التى ظلت تشــغل وتركز على « **المركزية الاثنيــة** » الاذهان فى المــاضى . وقد انطلقت **الاتجاهات الراديكالية** بقوة فى الولايات المتحــدة كانعكاس للتــوتر وللقلق الذى يخيم على المناخ الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى ستينيات هذا القرن ، واذا كان طلاب علم الاجتماع قد أصيبوا بخيبة أمل كبيرة حين اكتشفوا أنهم انما يدرسون قضايا أكاديمية شكلية تؤهلهم لحمل مسئوليات مهنية محددة (٨) فان طــلاب الانثروبولوجيا بدورهم قــد اكتشــفوا أن **الانثروبولوجيا التطبيقية** كانت مجرد أداة فى يد القــوى الاستعمارية وسلاح موجه لاستغلال ثروات وشعوب الدول الفقيرة بل ان النظرية التطــورية والنظريات الانتشارية كانت تفسر فى معظم الاحيان لاثبات تفوق الانســـان الابيض وأظهاره فى صورة الانسان العاقل الذى يمثل قمة التطور الانسانى حيث تتم عملية التثقف فى المقابل من البلدان الغربية الى القبائل والشعوب المنعزلة والفقيرة وكأن هذه النظرياتلم يقصد بها الا تبرير تفوق الرجــل الابيض وتبرير استعماره لدول العالم الثالث .

وترتبط الرؤية الامبريالية برفض الاعتراف بمــا فى المجتمعــات غير الغربية من فعاليــات ، ومن المعــروف كمــا يذكــر جــورج كتورة أن الانثروبولوجيا الاجتماعية قــد تطورت بشكل واضح فى بريطــانيا وهى الامبراطورية الكبرى التى ارتبطت بالسياسة الاستعمارية التوسعية اذ أن المدرسة الوظيفية نفسها ترتبط كذلك بالاستعمار والانثروبولوجى صاحب هذه التوجهات هو الذى يعمل فى حقله وهو الذى يؤلف الصورة الخاصة مستخدما مفاهيمه الخاصة فالباحث والمنظر هنا شخص واحد .

وهو الامر الذى عبر عنه كتورة بقوله :

« باعتبار الاستعمار حقيقة موضوعية لا نظــاما له بعــده التاريخى والايديولوجى أقامت الانثروبولوجيا الكلاسيكية معه علاقة مزدوجة فالواقع الاستعمارى يقدم لها حقلا تجرب فيه مفاهيمها الخاصة باعتبارها علمـــا اجتماعيا ... » (٩) .

ثالثا — الانثروبولوجيا الراديكالية :

تهدف **الانثروبولوجيا الراديكالية باصرار لبحث احتياجات البشر** وأمكانياتهم الثورية كما تهدف لتكوين الباحث الذى يتخذ موقفا أيديولوجيا محددا — والذى يقف من الظواهر موقفا ايجابيا — بالعمل مع الناس — **لتغيير الاوضاع القائمة فى ضوء الامكانات البيئية والبشرية والثقافية والاخلاقية المحيطة بهم .**

ومن أبرز القضايا التى أثارت اهتمام هؤلاء الانثروبولوجيين مناقشة التباين القائم بين مادية ماركس التاريخية ونظرية المادية الثقافية Cultural materialism التى وضعها الانثروبولوجى المريكى المعاصر مارفيل هاريس Marvin Marris حيث يتفق الماركسيون المحدثون مع دعاة نظرية المادية الثقافية على أن الظروف والاوضاع المادية للحياة الانسانية لها أولويتها فى ضوء النسق الايكولوجى التى توجد فى ظلها هذه الاوضاع والظروف (١٠) .

ولقد قام هرسكوفيتز Herskovits بنقد الرؤى اللبرالية والامبريالية التى دأفعت عنها الانثروبولوجيا الوظيفية بينما أعلن بعض علماء الانثروبولوجيا فى الولايات المتحدة موقفا ثوريا تجاه ما اسموه بالمسألة الاستعمارية . وأودعوا سنة ١٩٤٧ المكتب التنفيذى للجمعية الانثروبولوجية الامريكية (لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة) مشروع اعلان أوضحوا فيهبصراحة أنه نظراً للعدد الكبير من المجتمعاتالانسانية التىأدخلت فى عالمنا الحديث مرحلة احتكاك وثيق ونظرا لتعدد طرق الحياة . فان على كل اعلان لاحق لحقوق الانسان أن يسعى أساسا لحل المشكلة التالية : كيف يمكن تطبيق الاعلان المقترح على الكائنات البشرية كافة ، من غير أن يكون اعلانا للحقوق مصاغا بعبارات تصطبغ بسيطرة القيم الغربية السائدة فى أوروبا الغربية وامريكا . ومن المعروف أن هرسكوفتيز قد رفض الانثروبولوجيا التطبيقية (البريطانية) التى يمكن استغلالها من قبل الاستعمار .

ويستحثنا علماء الانثروبولوجيا هنا للتركيز على مقولات

الانثروبولوجيا الثقافية المرتبطة بالنسبية الثقافية Cultural relativism (*) وهكذا يقرر عالم الانثروبولوجيا ديلافينات Delavignette فى كتابه « افريقيا السوداء الفرنسية وقدرها » سنة ١٩٦١ أن عملية القضاء على الايديولوجيا الاستعمارية المسيطرة تظهر فى علم الانثروبولوجيا بلغة ذات نبرة امبريالية حيث ترتد ظاهريا على الاقل الى أصولها لتتحول الى أداة مناهضة للاستعمار ... الخ .

وهنا لا ينبغى أن نفترض بأن الشعوب البسيطة والمنعزلة أو ما برح أصحاب مدرسة التبعية على تسميتها بالمحيط بحاجة الى حماية المركز (أو الاستعمار) بل لابد من تقسيم جديد للعمل على المستوى العالمى والتخلص من التبعات والروابط القديمة فالتحلل من الاستعمار على ما يذكر جاك بيرك J. Berque لا يتم الا بتغيير العلاقات الاقتصادية العالمية واستبدال النرجسية الامبريالية بحوار تقف فيه المجتمعات والثقافات فى موقف الاحترام المتبادل وهى ما اتفق جورج كتورة مع انور عبد الملك فى تسميتها بتزكية النزعة القومية Nationalitarisme ويستشهد سيكوتورى على ذلك بأن الاستعمار الفرنسى فى افريقيا قد تزامن مع الدراسات التى قدمها ليفى بريل عن العقلية البدائية التى تسخر من منطق الانسان الافريقى (**) .

وقد لفت ايميه سيزار A. Cesaire النظر فى مؤلفه عن الاستعمار ١٩٥٦ الى عدم المساواة الاستعمارية كما ذكر « انى أعتقد انه لا يحق لاوروبا المستعمرة أن تبرر لاحقا العمل الاستعمارى بحجة تحقيق تقدم مادى واضح فى بعض المجالات ابان وجود الاستعمار » . ومن ثم ردد بعد ذلك عن الاستعمار فى افريقيا « الافريقى يطالب الان بالطرق والموانى فهو الذى يريد السير الى الامام والمستعمر هو الذى يريد أن يجره الى الوراء..الخ».

وقد كشف ليكلرك Lecaerc ان الانثروبولوجيا التطبيقية ومدرسة

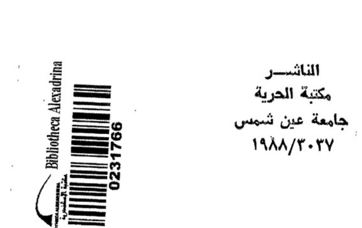
(*) اذ تركز النسبية الثقافية على ان لكل ثقافة طابعها المميز وبالتالى لا ينبغى أن نفترض أن بعض خصائصها الثقافية بالغة السوء أو أنه من اللازم تغييرها للاحسن .

(**) المؤتمر الثانى للكتاب والفنانين السود — روما سنة ١٩٦٥ .

التبعية الثقافية لم يتسنى لهما أن يقفا وقفة حاسمة ضد الاستعمار اذ ان لغتهم ومواقفهم ظلت تعكس الموقف الغربى ازاء شعوب العالم الثالث .

هذا بينما نادى أصحاب الاتجاهات الراديكالية باعادة تقييم موقف الانثروبولوجيا وتقيم دور عالم الانثروبولوجيا اذ يفترض أنصار الاتجاهات الراديكالية أنه مع الاعتراف بالصعوبات التى تواجه الباحث الوطنى فى دراسته لمجتمعه الخاص الا أن الباحث الوطنى هو الذى يدرك بعمق امانى شعبه وتطلعاته وقد ظهرت هنا البيوية الانثروبولوجية حيث حـــاول كلود ليفى ستراوس جاهدا أن يثرى النظرية الانثروبولوجية وان ينـــادى بانثروبولوجية مستقبلية مناهضـــة للاستعمار تدافع عن هـــوية العـــالم الثالث ، فقد رأى ستراوس أن على الباحث ان يبدأ باستخلاص القواعـــد والقوانين التى تحكم سلوك الافراد ثم يحاول الكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية وخصائص الثقافة القائمة من خـــلال التعمق فى تحليل البنـــاء العقلى كما حـــدد ستراوس ثلاثة أنواع من أنظمة الاتصـــال بين الافراد والجماعات وهى **التواصل اللغوى والزواجى والاقتصادى** وبعبارة أخرى فان الامل معقود الان على الانثروبولوجيا الراديكالية التى تنطلق بدورها من منطلقات نظرية واعية لبنـــاء علم للانسان قادر على أن يفهم الواقع ويستعد لبناء المستقبل (١١) .

فهـــــــرست



الناشـــر
مكتبة الحرية
جامعة عين شمس
١٩٨٨/٣٠٣٧